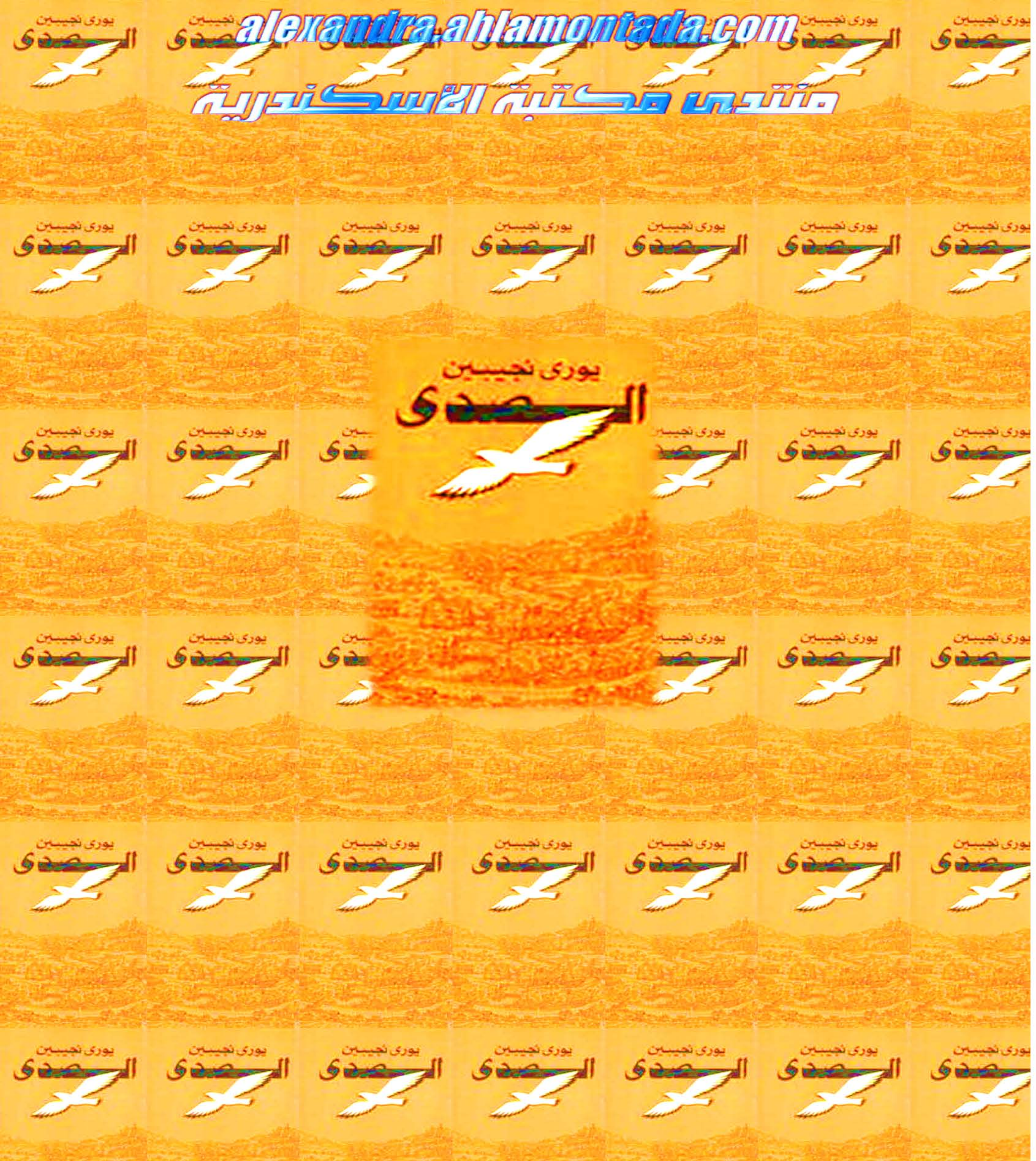


alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الاسكندرية
يورى نجيبين
الصدى

يوري
نجيبين

الصدى

(وقصص أخرى)

دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة د . ابو بكر يوسف

Юрий Нагибин

РАССКАЗЫ

На арабском языке

Перевод сделан по изданию:
Юрий Нагибин. Собрание сочинений.
В 4-х тт. М. «Художественная литература»,
1980—1981. тт. 1—4

© التاليف والمقدمة دار «رادوغا» ، ١٩٨٧
© الترجمة الى اللغة العربية – دار «رادوغا» ، ١٩٨٧
طبع فى الاتحاد السوفييتي

H 4702010200—156 / 031(01)—87 077—87

ISBN 5-05-001198-1

مقدمة المؤلف

صدر كتابى الوحيد باللغـــة العربية – مجموعة قصص «الغليون» – منذ حوالى دهر تقريبا . . قرب نهاية الخمسينات . ورغم ان قصصى كانت تنشر مترجمة من حين لآخر فى المجلات والصحف الدورية فى مختلف البلدان العربية ، فسيكون من الاسراف فى الغرور الظن بان اسمى يعنى شيئا ما لجماهير القراء العرب العريضة . ولهذا أجد لزاما عليّ قبل كل شيء ان اقدم نفسى .

ولدت عام ١٩٢٠ فى مدينة موسكو ، فى اسرة موظف . وكنا نعيش فى الجزء القديم الأصيل من موسكو ، قرب بوليفار «تشيستوبرودنى» (البرك الصافية) الذى كتبت عنه كثيرا من القصص ، فى كنف الكنائس والمبانى القديمة والحدائق التى غرست اشجارها فى القرن السابع عشر ، وكان يتسامى فوق بيتنا «برج مينشيكوف» المذهب الشهير ، أعلى برج فى موسكو فى تلك الآونة . وقد تعرفت انا واترابى على التاريخ الروسى لا عن طريق الكتب ، بل عبر المبانى والمعابد والحدائـــق والمتنزهات . . . ومن ذكريات تلك الأيام البعيدة ظهر كتابى «سفر الطفولة» الذى ترجم الى العديد من اللغات الاجنبية . كذلك ظهر كتاب القصص والروايات التاريخية «صباح ضيعة تسارسكوى سيلو» من انبهارى فى طفولتى بتاريخ موسكو المنقوش على الاحجار .

وفى صباى لم تكن لدي مواهب بارزة محددة ، فلم أعرف خلافاً لمعظم رفاقى وانا انهى المدرسة الثانوية ما الذى سوف افعله بعد ذلك . وكانت امى وزوج امى ، الكاتب ريكاتشوف ، يأملان بان أصبح من رجال العصر : مهندساً او عالماً فى ميدان العلوم الدقيقة ،. فراحا يحشوانى بكتب الكيمياء والفيزياء ، وبكتب السير المبسطة لعظماء العلماء . ومن اجل تهدئة خاطرهما اقتنيت انابيب اختبار ودوارق ومواد كيماوية ، بيد أن نشاطى العلمى كله انحصر فى قيامى بين الحين والحين بتحضير طلاء أحذية من نوعية فظيعة . وفى نهاية الأمر انفجر شيء ما لدي ، وكدت اضرم النار فى الشقة ، ففرض الحظر على تجاربى الجريئة .

بيد ان ثقتى بنفسى كانت تزداد اكثر فاكثر في ملعب كرة القدم ، وتنبأ لى المدرب بمستقبل زاهر . ووعدنى بأن يضمنى الى احتياطى اللاعبين الكبار عندما ابلغ الثامنة عشرة . لكن امى لم تشأ ان تستسلم لفكرة انها عانت آلام المخاض من اجل ان تلد ظهير دفاع أيسر او جناحا أيمن . وراح زوج أمى يلح عليّ ، بضغط منها فيما يبدو ، ان اكتب شيئا ما . وهكذا ، وتحت ضغط خارجى ، بدأت حياتى الأدبية . وكتبت قصة قصيرة عن نزهة بالزلاجات قمت بها مع تلاميذ الصف فى يوم احد . وقرأ زوج امى القصة ، ولم يطلب منى بعد ذلك ان اكتب شيئا . بالطبع كانت قصة سيئة ، ومع ذلك فلدي من الأسس ما يجعلنى اعتقد ان ملامح طريقى الادبى قد تحددت فى تلك المحاولة الاولى بالذات ، متمثلة فى عدم الاختلاق ، بل الانطلاق من الحياة مباشرة ، و«الغوص» فى مادة الواقع ، بحثاً فيها عن المزيد من الحقائق .

أدركت جيدا سبب صمت زوج أمى ، ولم أحاول مجادلته فى حكمه القاسم المختفى وراء هذا الصمت . لكن الكتابة شدتنى اليها تماما . ولدهشتى البالغة اكتشفت كيف انه من مجرد الحاجة الى نقل انطباعات بسيطة عن يوم نزهة الى الورق اخذت جميع المشاعر والانطباعات المرتبطة بهذه النزهة العادية تتعمق وتتسع بصورة غريبة . ووجدتنى أرى بمنظور

جديد زملاء الدراسة ونسيج علاقاتهم المتشابك الدقيق المعقد على غير توقع . واتضح لى ان الكتابة ليست مجرد تصوير للحياة بل ادراك لها . فاخذت اكتب ، ولكننى اخفى ذلك عن اقاربى .

وذات مرة اخذ زوج أمى من على مكتبى عملاً ادبياً كنت قد نسيته هناك . وبعد ان قرأه قال لى : «يبدو مع ذلك ان هذا هو عملك الحقيقى . اكتب» . ورفع هذا التشجيع من معنوياتى فانكببت على الكتابة ، وعلى الفور هبط مستواى فى ملعب الكرة . وسرعان ما طردنى المدرب من الفريق ، الأمر الذى لم آسف عليه قط وقد استحوذت عليّ شهوة تسويد الصفحات .

وبدأت مرحلة جديدة من الدراسة الأدبية . وكاد زوج امى ، الذى اعتبره معلمى الأول والوحيد ، ان يوصلنى الى اليأس بشدة متطلباته . حتى بدأت احيانا أمقت الكلمات ، بيد انه أصبح من الصعب انتزاعى من الورق .

ومع ذلك فبدلا من الالتحاق بكلية الآداب ، وجدت نفسى بعد التخرج من المدرسة ، طالباً فى معهد الطب الأول ، فقد خافت امى وزوج أمى من وعورة طريق الكتابة غير المضمون . وقاومت طويلا ، لكننى لم استطع الصمود أمام مثال تشيخوف وبولجاكوف . فانظر اية موهبة كانا ، ومع ذلك امّنا انفسهما بمهنة مضمونة مؤكدة * .

ودرست باجتهاد رغم شعورى فى قرارة نفسى باننى لن اصبح طبيبا جيدا . فالدراسة فى معهد الطب فى غاية الصعوبة ، وتتطلب ، عدا اشياء اخرى ، حفظاً مستمراً للمصطلحات اللاتينية . ولم يعد ثمة مجال حتى للتفكير فى الكتابة . وصمدت حتى أول دورة امتحانات . .

وفى ذلك الوقت بالذات فتح باب القبول فى كلية السيناريو بمعهد السينما . فهرعت الى هناك .

كانت الدراسة فى معهد السينما آنذاك ، قبل الحرب ،

* الاديبان انطون تشيخوف وميخائيل بولجاكوف درسا الطب ومارسا مهنة الطبيب بعض الوقت . **المعرب** .

سهلة ، تترك لك من الوقت قدر ما تشاء لكتابـــة القصص والمقالات الأدبية والنقدية والتعليقات ! وفى مارس ١٩٤٠ نشرت مجلة «اجونيوك» اول قصة لى بعنوان «الخطأ المزدوج» ، وكانت تتناول مصير كاتب مبتدئ . ورحت اركض من كشك صحف الى آخر واسال : هل لديكم آخر قصة لنجيبين ؟ ان اول عمل منشور يسطع نوره فى الذاكرة اقوى من الحب الأول .

وعندما بدأت الحرب الوطنية العظمى تطوعت للقتال . ومنحت رتبة ملازم . وحاربت فى جبهة فولخوف ولينينجراد وفورونيج . وفى عام ١٩٤٣ صدرت لى اول مجموعة قصص حربية عما رايته وعايشته ، وكان عنوانها : «رجل من الجبهة» . وقبل صدورها كنت قد أصبحت عضوا فى اتحاد الكتاب بناء على قصصى المنشورة فى المجلات .

وفى نهاية عام ١٩٤٢ اصبت بصدمة انفجار شديدة ، ومرضت طويلا ، وبعد شفائى عدت الى الجبهة مراسلا حربيا لجريدة نقابية سلمية جدا هى «ترود» (العمل) ، حيث عملت حتى نهايـــة الحرب . وقد اتيح لى ان ازور ستالينجراد فى اقسى أيام معركتها الضارية ، ولينينجراد المحاصرة ، ثم شهدت معارك تحرير مينسك وفيلنوس وكاوناس ، كما زرت قطاعات الجبهة الأخرى . كذلك زرت خطوط المؤخرة ، وشهدت بداية اعمال التعمير فى ستالينجراد حيث رايت انتاج اول جرار بعد تحرير المدينة ، وتجفيف مناجم الدونباس وشاهدت كيف كان يكدح حمالو الفولجا وعاملات النسيج فى ايفانوفو . . .

وبعد الحرب بدأت اعيش حياة الكاتب المحترف . وهكذا لم ارجع الى مقعد الدراسة بعد ان أصبحت رب أسرة . ان معرفة الحياة اهم بالنسبة للكاتب من المحاضرات ودورات البحث . وقد امدتنى الحرب بخبرة حياتية كبيرة ، ولكنها احادية الجانب الى حد ما ، ومن ثم كان عليَّ ان ارى كيف يعيش الشعب الذى نزع عنـــه معطف الجندى وراح يداوى جراحه البالغة . فاصبحت ، ولسنوات طويلة ، صحفياً جوالاً ، او كما يقال بلغة الصحف ، مراسلاً متنقلاً .

وترتبط نقطة التحول فى حياتى ككاتب بقصة «الغليون» ، التى كادت تصبح مع قصة «البلوطة الشتوية» اشهر ما كتبت . كان استقبال القراء لهما حارا ومجمعـــا بصورة نادرة . وفى الواقع لم اخبر ذلك الاحساس الغريب ، المثير بلا حدود ، بان لك قراءً ، الا بصدور «الغليون» . ولسبب ما أصبحت حكاية تشرد ذلك الغجرى الصغير والمصائب التى واجهها فى السنوات الاولى بعد الثورة شيقة على حد سواء لمواطنى بلدى وللافارقـــة (صدرت القصة بلغتى الهوســـــة والسواحلى) وللمتحدثين بالأوردو والهندى والتاميل والسنغالى ، وللعرب والصينيين ، ولجميع الاوربيين بلا استثناء . وبنفس الصورة ذاعت قصة «البلوطة الشتوية» ، اللهم الا فى افريقيا الاستوائية التى لم تصدر هذه القصة فيها ، وربما لانهم لم يروا الثلوج هناك ابداً .

ومنذ ذلك الحين بدأت اعيش حياة اكثر استقرارا ، تلك الحياة الضرورية لكاتب محترف . وظلت القصة القصيرة هى لونى الأدبى «الرئيسى» .

وبامكانى حتى أن اقول اننى لست أنـــا الذى اخترت القصة القصيرة ، بل هى التى اختارتنى . فانـــا بطبيعتى لا استطيع ان اكتب أشياء «سميكة» . ان نَفَسى قصير . وعندما كنت العب الكرة كانت قواى تكفى لشوط واحد . كنت ابذل قواى عن آخرها . ويبدو ان هيكل المؤلفات «الصغيرة الشكل» (القصة القصيرة ، النوفيل ، الرواية القصيرة ، السيناريو) تتفق وايقاعى الداخلى . وعلاوة على ذلك فانا مقتنع بأن اى موضوع يمكن معالجته فى حدود مائتى صفحة . وفى عصرنا المتشبع اللاهث فى سرعته ، تفرض اصول احترام القارئ على الكاتب ان يكون موجزاً ومختصرا . ان العصر المتسارع الايقاع وحياة المدينة يتطلبان الايجاز .

ولكن كفانا حديثا عن مطبخ القصـــة . ففى اواسط الخمسينات ، ودون ان اقطع صلتى بموسكو ، اخترت لنفسى مكانا للاقامة الدائمة على شاطئ نهر «ديسنا» ، وهو نهر يمر بضواحى موسكو ، على مسافـــة اربعين كيلومترا من

العاصمة ، حيث شيدت منزلاً صغيراً دافئاً وسط اشجار الصنوبر والشوح والبتولا . وفى هدوء الغابات والحقول ارتفع معدل انتاجى الادبى بصورة ملحوظة ، فتوالى صدور مجموعاتى القصصية : «البلوطة الشتوية» ، «الجنادل الصخرية» ، «الانسان والطريق» ، «البرك الصافية» ، «قبيل العيد» ، «البعيد والقريب» ، «فى البحيرات» ، «قلب آخر» ، «حارات طفولتى» .

وتحولت مجموعة «حارات طفولتى» الى كتاب كبير بعنوان «سفر الطفولة» . وكل قصصى عن الطفولة فى موسكو فى العشرينات تحمل بصمات السيرة الذاتية ، مثلها مثل قصصى عن الصبا والشباب . ويحمل معظم ابطالها اسماءهم الحقيقية . اننى اعشق طفولتى ، وذلك الفناء الواسع الصاخب ، حيث كنا نلعب كرة القدم والهوكى ، ونطيّر الحمام ، ونتعارك ، ونغرم ، ونتشاجر ، ونتصالح ، ونتعلم ، كما يقال فى لغة الملاكمة كيف «نتحمل الضربة» . وليس بأقل من ذلك حبى لمدرستى فى ذلك الزقاق الهادئ قرب «البرك الصافية» . ولم تنقطع اواصر الصداقة بين خريجى دفعة عام ١٩٣٨ ، وما زلنا نلتقى كل عام فى عيد النصر ، عند البرك الصافية ، امام تمثال الشاعر الروسى الكسندر جريبويدوف . ونتذكر الاصدقاء الذين رحلوا عنا ، من لم يعد من جبهات الحرب ، ومن مات بفعل الجراح القديمة أو الامراض ، ونتذكر مدرّسينا ، ونغنى الاغانى القديمة ، ونفرح بحياتنا التى لم تزل بعد ممتدة . وهذه الصداقة هى أثمن ثروة لدي .

اننى لا أسعى بحثا عن مادة لقصصى ، فالحياة نفسها هى التى تهبنى المواضيع . وبعد ان كتبت قصصا عن الحرب الماضية وعن الريف ، وعن الطفولة ، جاء دور قصص الصيادين . فذات مرة اخذنى واحد من اقرب اصدقائى الى رحلة لصيد البط . ومن يومها دخلت «ميشورا» حياتى بصورة راسخة ، هى وموضوعها ، ومواطنها الصياد اناتولى ايفانوفتش ، أحد معوقى الحرب . وقد كتبت عنه مجموعة قصص وسيناريو الفيلم الروائى «المطاردة» ، ولكنى بخلاف

ذلك كله احب اصدق الحب هذا الرجل المتفرد والأبى واعتز بصداقته . اما «ميشورا» فهى منطقة رائعة ، تقع على بعد مائتى كيلومتر من موسكو ، بها غابات عذراء ، وبحيرات عميقة ، وانهار صافية . وعلى ارضها راى النور الشاعر الروسى العظيم سرجى يسينين .

ان من قرأ قصصى يعرف اننى احب الحيوانات جدا . وقد يبدو غريباً كيف يتفق الصيد مع حبى «لاخوتنا الأصغر» (حسب تعبير يسينين) . بيد اننا اذا استثنينا اولئك الصيادين ذوى الكروش السمينة ، الذين يدفع لهم القناصون الخدومون بالطيور نحو بنادقهم تماما ، فان جميع الصيادين يحبون الحيوانات . ان اطلاق النار على بطة مندفعة كالسهم ، او على دجاجة برية منطلقة بعنف من وراء خميلة ، وعلى اى طائر أو وحش تحميه سرعته وخفة حركته ومهارته . . ان ذلك ليس قسوة . . .

منذ وقت ليس بالبعيد كان هذا الرأى يتفق وموقفى فيما يخص صيد الطيور وصيد الاسماك (فقد كنت ايضا مغرماً بصيد الأسماك) . كنت مؤمنا بعقيدة هيمنجواى البسيطة ، وهى انه طالما توجد طيور فلا بد ان يكون هناك صياد . المهم فقط ان تحاول التسديد بدقة ، حتى لا تترك طيورا جريحة ، ولا تسبب آلاما لا داعى لها لمخلوق حي ، وفيما عدا ذلك لا تشغل بالك . بيد أن الضمور القاسى الراهن الذى اصاب الطبيعة ، والعطف على تلك المخلوقات الحية التى ما زالت تسكن الغابات والمياه ، قد قلبا رأسا على عقب بعض مبادئى . فقد تحولت من الفلسفة التى تعفو مقدما عن الشخص الحامل للبندقية الى معتقدات مضادة تماما ، وهى ان صيد الطيور والأسماك فى مملكة الطبيعة التى اصابها الفقر حاليا هو عمل لااخلاقى . فليقم بذلك اشخاص معينون ، هم الصيادون المحترفون ، وعلى اساس القوانين الموضوعة . اما ما هو جدير بالانسان كإنسان فهو ان يبذل كل ما فى وسعه ليحمى من الدمار ذلك العالم الاخضر الضعيف الذى أسلم لنا مصيره ،

وان يكبح فى نفسه الشهوة القديمة فى السيطرة من خلال التدمير .

بين هاتين النقطتين المتطرفتين لموقفى من الصيد امتد طريق طويل نحو ادراك مكانة الانسان فى الطبيعة . فى البداية لم اكن اهتم عموما بمسلك الانسان فى العالم الذى وُضع سيداً له ، اى بين الحيوانات والنباتات . ولكنى كلما ازداد احساسى والمى بضعف هذا العالم ، وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه امام هذا السيد ذى الساقين ، اصبحت نظرتى الى العلاقات القائمة هنا اشد تعقيدا وقسوة . وللأسف ، فكثير من الناس لا يصمدون امام اختبار المسئولية والتسامح . تستطيع فى الطبيعة ان تفعل اى شىء ، وليس هناك اختبار للانسان اشد قسوة من ان يكون بمنأى عن العقاب . وبالتدريج توصلت الى قناعة بان المسلك السيئ فى الغابة ، او على النهر ، او على البحيرة او فى الجبال لابد وان يلازمه مسلك سيئ فى الأسرة وبين الأهل والاقارب ، وفى العمل ، وفى المجتمع البشرى بوجه عام . فهنا ثمة علاقة متبادلة مباشرة لا تنفصم . وليس هناك معيار للحكم على الشخصية الانسانية اكثر دقة وقسوة من مسلكه ازاء الطبيعة . هكذا تحول عندى موضوع الصيد القديم .

وقد يتبادر الى الذهن الظن بان حياتى قائمة على سلسلة من الامتناعات : ففى البداية تخليت عن الفضاء الرحب باستقرارى فى كوخ فى غابة ، وبعد ذلك تخليت عن صيد الاسماك والطيور (ويمكن اضافة الرياضة الى ذلك ، فقد اعطتنى الكثير من الموضوعات ، ولكن الأزمة القلبية المبكرة طردتها من حياتى) . ولكن المسالة ، فى الواقع ، غير ذلك تماما . فكل عام اقوم بجولة صغيرة بالسيارة فى المدن الروسية القديمة الرائعة ، ومعروف ما مدى المسافات لدينا فى روسيا . . ففى جولة «صغيرة» كهذه تقطع بالسيارة حوالى الالفين وخمسمائة كيلومتر . وكل عام أسافر الى الخارج ، ومن هذه الرحلات ظهرت كتبى : «افريقياى» و«اصدقائى البشر» و«لا تدعه يموت» وغيرها . ويكاد يكون موضوع

الخارج ، موضوع وحدة البشر ، وركاب السفينة الحزينة الوحيدة – فليس هناك غيرها ولن يكون – هو الموضوع الدائم فى اعمالى الادبية ، بل والسينمائية ايضا . لقد شاركت فى افلام مشتركة كثيرة ، مع الايطاليين والامريكيين واليابانيين والنرويجيين والبولنديين والمجريين ، وكانت افلامنا تخدم اهداف الفهم المتبادل والسلام .

ولدى اصدقاء كثيرون جدا ، ولقاءاتى بهم ، الصاخبة ، المليئة بالجدل العنيف الطيب ، تهبنى الكثير من الفرح . وحتى الصيد لم يخرج من حياتى تماما ، وان كنت الآن أمارس «الصيد الثالث» البرىء ، اى جمع الفطر كما يسمونه عندنا . وانا اسكن فى منطقة من اغنى مناطق الفطر فى ضواحى موسكو . وبقيت لدى الرياضة ايضا . . لعب البلياردو وكرة الطاولة ، والألعاب التى تمارسها وانت جالس ، مثل مشاهدة كرة القدم فى التليفزيون . . .

ولم اذكر شيئا عن قصصى حول الموضوعات الأبدية : الحياة والموت ، الحب والكراهية ، البحث عن الحقيقة وطريق الصواب فى الحياة . ولا اظن انه يمكن فصلها ووضعها فى مجموعة على حدة . فهذه الموضوعات ، كالهواء الذى تتنفسه ، موجودة فى اى قصة من القصص .

وفى السنوات الخمس عشرة الاخيرة أقبلت اكثر فاكثر على الكتابة عن الماضى ، دون ان اهجر الحاضر . وفى هذه السلسلة الكبيرة من القصص القصيرة والروايات القصيرة كتبت عن تشايكوفسكى وباخ ورحمانينوف وبوشكين وغوته وهمنجواى وغيرهم من الفنانين الأقل شهرة وان لم يقلوا جدارة . وقد بدأ ذلك بكتابة سيناريو لفيلم عن الموسيقار الروسى العظيم تشايكوفسكى . وجذبنى الموضوع اليه فكتبت عملاً كبيراً ، واضطر المخرج الى اختصاره . ونتيجة لذلك سقطت من العمل اجزاء كبيرة كانت تتناول صديقة تشايكوفسكى ، تلك المرأة الروسية الرائعة ناديجدا فون ميك ، محبة الموسيقى وراعية الفن ، التى خلّصت الموسيقار القليل التدبير والمعوز دائما من عناء التفكير فى لقمة

الخبز ، بل ووفرت له حياة عريضة ، حرة ، مستقلة . غير ان ناديجدا فون ميك كانت الى جانب سخائها فى رعاية الفن تتميز بسجية اخرى نادرة ، اذ كانت لديها بصيرة فنية نافذة . فهى أول من اكتشف عبقرية الفنان فى ذلك المؤلف الموسيقى المتواضع فى الكونسرفتوار . وكان ذلك بالنسبة لتشايكوفسكى ، الذى لم يفهمه النقاد القصيرو النظر وظلموه ، اثمن من كل نعم الدنيا .

وقررت أن اجعل من هذه المادة عملاً ادبيا حياً . وهكذا ولدت رواية «كيف تم شراء الغابة» المترجمة حاليا الى لغات اجنبية عديدة . وشجعنى نجاح الرواية فكتبت رواية اخرى عن تشايكوفسكى بعنوان «عندما انطفات الالعاب النارية» التى وضعت الخاتمة لـ«قصة غرام الاشباح» . وهو التعبير الذى اطلق منذ زمن بعيد على العلاقة الغريبة عن بعد بين تشايكوفسكى وفون ميك . فالغريب ان هذين الشخصين اللذين احبا بعضهما البعض ، لم يلتقيا ابدا ، ولم ير احدهما الآخر الا صدفة . . مرة اثناء نزهة ، ومرة اخرى فى المسرح .

بهاتين الروايتين القصيرتين بدات مرحلة جديدة فى حياتى الادبية . واتسع اهتمامى بالموضوع تدريجيا . لم تعد سيكولوجيا الابداع هى وحدها التى تهمنى ، بل وعلاقة المبدع بالمجتمع . فمن المتعارف عليه ، وهذا صائب تماما ، اعتبار ان الفنان مدين للمجتمع ، بيد ان هناك علاقة عكسية ايضا ، فالمجتمع بدوره مدين للفنان . فكم من آلام جلبها على المبدعين العظام — من ليوناردو حتى رحمانينوف مثلاً — عدم فهم معاصريهم لهم . وفى قصصى يتردد بكل وضوح : ايها الناس ، كونوا اكثر اهتماما وحرصا وطيبة وصراحة مع اولئك الذين يعتصرون من اجلكم كل دماء قلوبهم . اننى اريد ، ولو متأخراً ، ولو بعد الممات ، ان ارد الاعتبار لأولئك المبدعين غير المعترف بهم وغير المعروفين وشبه المعروفين . اما هدفى الآخر من كتاباتى تلك فكان ادراك

«ميكانيكا» مولد القصيدة او الصورة الموسيقية ، وتلمس اسرار ولادة الجمال .

ان قصصى عن المبدعين الراحلين لا يمكن اعتبارها من الاعمال الادبية التاريخية الا تجاوزاً . اذ لم يكن ما يهمنى هو احداث الأيام الغابرة ، بل الشخصيات المبدعة ، حتى اننى كنت احيانا ، وعن وعي ، اخالف الواقعة التاريخية رغبة منى فى التاكيد على ان التاريخ بالنسبة لى ما هو الا وسيلة وليس غاية على الاطلاق . ولكننى فى نهاية الامر اخذت اهتم بالتاريخ فى حد ذاته ، فانكببت على المؤلفات التاريخية ، والذكريات ، وشتى المجلات القديمة ، وفى العام الماضى كتبت روايتين تاريخيتين .

لقد وهبت الكثير من قواى للعمل السينمائى . وقد بدات من تحويل قصصى الى افلام سينمائية ، مثلا «ضيف ليل» و«ابطا قطار» و«الفتاة والصدى» (الذى فاز بالجائزة الكبرى فى مهرجان كان الدولى) ، ثم بدات اضع سيناريوهات مستقلة ، انتجت على اساسها افلام : «تشايكوفسكى» و«الخيمة الحمراء» و«مملكة النساء» و«المدير» و«ياروسلاف دومبروفسكى» واكثر افلامى ذيوعا : «الرئيس» ، وهو عن واحد من اولئك الذين اعادوا تعمير القرى التى دمرها العدو ، وذلك فى سنوات ما بعد الحرب القاسية . واذكر ان النقاد أبدوا دهشتهم الشديدة من ان ساكناً موسكوفياً قحاً مثل نجيبين الذى نشا وترعرع فى المدينة ، يعرف شئون الريف على هذا النحو . بيد ان الريف دخل حياتى فى وقت مبكر . فقد كانت لدي مربية عجوز تدعى فيرا ايفانوفنا — فيرونيا — من قرية فنكوفو النائية فى محافظة ريزان . وكنت اسافر كل صيف اليها هى واقاربها الكثيرين . وهكذا نشأ حبى للريف ، لعالم الريف بهمومه وباعماله الشاقة التى لا تنتهى . ولهذا السبب فقد اخترت عالم القرية ، لا عالم المدينة ، عندما عملت صحفيا بعد انتهاء الحرب . ووضعت فى سيناريو «الرئيس» خبرتى كمراسل ريفى ، وخبرة سنوات الحرب ، اذ كنا نعسكر

لفترات طويلة فى قرى تركها العدو شبه اطلال ، ثم بالطبع خبرة طفولتى .

بيد ان فيلم «الرئيس» ليس مشهورا فى الخارج شهرة فيلم «درسو اوزالا» الذى أخرجه المخرج اليابانى الشهير اكيرا كوروساوا حسب السيناريو الذى وضعته أنا وانتجه ستوديو «موسفيلم» بموسكو . لقد فاز هذا الفيلم بأعظم جائزة سينمائية فى العالم وهى «الأوسكار» .

وفى الختام بودى ان اذكر بضع كلمات عن هذه الطبعة . ففى وقت مضى ، واذ عشقت العالم العربى المزخرف ، المتعدد الأبعاد ، وحضارته العريقة ، وفنونه المذهلة ، كنت كل عام أزور بلداً عربياً . وهكذا مرّ عبر حياتى المغرب من الرباط الى اغادير ، ومن الدار البيضاء الى فاس ، وتونس ، ومصر بأقصرها وأسوانها ، والسودان طولا وعرضا ، وسوريا من دمشق الى حلب ، ولبنان ، ثم مصر من جديد . وكتبت عن رحلاتى قصصا ومقالات أدبية صدرت فى كتابين . كتبت عن المدن والقرى ، عن الصحارى والجبال ، عن نمط الحياة ، وعن الحرف والفنون ، وعن كفاح الشعوب العربية وأهدافها ، وعن الناس الرائعين الشديدى التفاوت . وكان من بين أبطالى المطربة اللبنانية الموهوبة والممثلة السينمائية فيروز ، و«تشيخوف مصر» القصاص يوسف أدريس ، الذى قلب راسا على عقب اسلوب الكتابة النثرية العربية التقليدية ، والبائع التونسى الصغير سهيل الطيب القلب ، والأديب السودانى محمد المجذوب ، والصحفية الحسناء خديجة ، ونساء قرية «الطيبة» اللائى رقصن «رقصة الجمل» التى تصور عمل الفلاح ، والطبيب حسين من مركز البشيرى ، الذى يعالج سبعة عشر الف شخص ، وراعى المعيز السورى الذى يرعى قطيعه فى نفس المكان الذى كان يرعى فيه النبى ابراهيم ، والحرفيون المهرة من مكناس وفاس : الفخارون ، والنحاسون والنقاشون والمبلّطون ، وغيرهم وغيرهم .

وأصبح لى بين العرب اصدقاء كبار واوفياء ، منهم

سفير مصر الأسبق فى الاتحاد السوفييتى ورجل الاعمال حاليا الدكتور مراد غالب ، وقرينته الرائعة مدام شوشو ، والشاعر الفلسطينى الموهوب والشخصية الاجتماعية معين بسيسو الذى اختطفه الموت مبكرا ، والاديبان الآنفا الذكر يوسف ادريس ومحمد المجذوب . واذكر من بينهم بكل سرور مترجم هذه المجموعة الدكتور ابو بكر يوسف . وقد سعدت باستقبال هؤلاء الأصدقاء فى بيتى . وانى لواثق من ان هذه الصداقة ستبقى الى الأبد مهما كانت تصاريف القدر . ولا شك اننى سعيد بصدور مجموعة قصصى هذه باللغة العربية . انها تضم قصصا كتبت فى سنوات مختلفة ، وفى موضوعات مختلفة ، كما انها مختلفة من حيث المادة الحياتية والمزاج . وهذا أفضل ، اذ سيتاح للقراء العرب ان يكوّنوا فكرة أشمل عن عملى كقصاص . لقد تقدم بى العمر ، واصبحت ملازما لبيتى ، ونادرا ما اتجاسر على القيام برحلات بعيدة ، واذن فليذهب ولو كتابى الى تلك الاماكن ، التى انحفرت صورتها العزيزة فى قلبى الى الابد .

يورى نجيبين



الغليون

(قصة واقعية)

كان مهدي وانا طفل عربة غجر ، وقضيت طفولتى الباكرة كلها على عجلات . وحينما استعيد ذكرى هذا العهد البعيد فان أول ما يتبادر الى ذهنى ليس المشهد الطبيعى ولا وجوه اقربائى او صوت امى وذراعاها ، ولكن احساسى بحركة مستمرة رتيبة تبعث على النوم . يكفى ان اغمض عينى حتى يبلغ هذا الاحساس قوة وعمقا خارقين . أحس بكل كيانى حركة العربة الهازة ، والتقلقل القاسى فوق مرتفع هنا وحفرة هناك ، والارجحة التى تصيبنى بما يشبه الدوار كلما انغرزت عجلة فى ارض رخوة .

بدا العالم المحيط بى ايضا فى حركة مستمرة ، الطريق تنطوى تحت العربة جارة فى اثرها الشريط الجانبى والخمائل القائمة على الناحيتين ، والغابات والبساتين والحقول تسابقنا ، ومن حولنا يدور بلا كلل خط الأفق الازرق واصلا السماء بالارض .

وكان عمرى سبعة اعوام لما سكنت الاشجار والمنازل والحقول والخمائل جميعا الى راحة راسخة . فقد اصيبت امى بمرض خطير اوجب علينا ان نهجر حياة الخيام ونستوطن فى قرية بوغدانوفو ، فى مقاطعة فوروونيج السابقة ، عند ميخايلو الاصهب ، احد اقاربنا البعداء ..

كان ميخايلو حدادا يعشق مهنته . وهو من الغجر القلائل الذين فاءوا الى حياة مستقرة . وقرب دكانه المنخفضة المسودة من الدخان والتى يدور بابها حول مفصلة هى كل ما يثبته ، وتعلو سقفها المنخور مدخنة سماور مقطوعة ما تفتأ تقذف السماء بحفنات من الشرارات ، قرب هذه الدكان يقوم كوخ صغير لا يقل عن الدكان رثاثة وتهالكا . لقد زعزعت ضربات مطرقة ميخايلو الجبارة هذا الكوخ المتهالك أصلاً واذا كل شىء فيه يصر : الابواب والنوافذ والجدران والارض . وكل خطوة تخطى يصاحبها رنين الأوانى ، اما حينما يجتاز ميخايلو ، الضخم الثقيل ، عتبة البيت تتواثب المناضد والمقاعد كلها وتملأ البيت موسيقى يتردد صداها طويلا .

فى هذا البيت الصغير المغنى ، الملطخ بالسخام يعيش الناس فى غير سعة ولكن فى مرح . ولم تلبث امى ان ابلت من مرضها ، وانصرفت فى شغف الى امور البيت ، وهو عمل جديد عليها . وكان ميخايلو يشتغل فى حدادته ، وزوج امى يبيض الحلل ، وهما يدندنان اغنيات قبيلتنا الطلقة والحزينة .

وعشنا على هذا النحو حتى صيف عام ١٩١٩ ، حينما احرقت احدى فصائل الجنرال الابيض مامونتوف قريتنا . والحقيقة اننى لم اعلم حينذاك من اضرم النار ولماذا . كانت القرية تقع تحتنا ، فى غور ، وذات صباح رأيت ، بدلا من سطوح القش والالواح ، عوارض مسودة ، مفحمة ، تنبعث منها خيوط حلزونية رقيقة من الدخان .

فى ذلك الحين تردد فى بيتنا فعل «خط» الذى كنت نسيته وهو يعنى عند الغجر هذا الحنين الخفى الذى يكنونه

للسرعة . اصبح «الخط» رمزا للحركة عند الغجر الذين ادهشتهم سرعة المواصلات على خطوط السكة الحديدية فجعلوا يلفظونها ولعلهم كانوا يقارنون مشى عرباتهم الوئيد بطيران القطار السحرى .

لما علم ميخايلو ان فى نيتنا «الخط» حمل على احدى كتفيه مطرقته التى تزن بودين * وكيره على الاخرى وذهب يفتش عن عمل حدادة فى الاماكن المجاورة .

واما نحن فلم ننزح سريعا . كنا ننتظر ، كما علمت فيما بعد ، مخيم آميلكا ، الذى سيمر بهذه النواحى على ما يقولون . وكانت جدتى تتنقل مع هذا المخيم .

وذات ليلة ايقظونى من نومى ، وبعد ان البستنى امى حذائى ، اخرجتنى الى فناء الدار . لم اكن قد استيقظت تماما فلم استطع ان افهم شيئا . كان الفضاء حول الدكان غاصا كله بالعربات ، المغطاة بالقماش السميك ، التى بدت لى مع الليل ضخمة . وكان رجال يحملون حزما مشتعلة من القنب يروحون ويجيئون بين العربات . فى هذا النور المحمر الممزق ، كانت تظهر وجوه سحرية : انوف عقفاء ، جلد اسمر قاتم حتى الزرقة ، لحى شعثاء ، سوداء كالقطران . . . لقد نسيت خلال العام الذى قضيناه عند ميخايلو ، حياة ابناء عشيرتى الرحل ، نسيت اصواتهم الحلقية المتحشرجة ، حركات رجالهم المستطيلة وايماءات نسائهم المتقطعة المضطربة . كان الغجر يقومون بالأعمال العادية التى يقومون بها حينما يخيمون فى مكان ما : يفكون الخيل ويطعمونها ويفحصون العجلات ويزيتونها ، ويصلحون سروج الخيل المقطعة ؛ ومع ذلك فقد بدت لى حركاتهم البسيطة غامضة ومرعبة . وفوق ذلك فقد اضعت فى هذا الهرج والمرج اهلى .

كانت الدموع تغلى فى حنجرتى ، وفتحت فمى لأرسل الصيحة الوحيدة القادرة على ان تعيد لى امى ، ولو كانت فى

* البود مقياس وزن روسى يعادل ١٦ كيلوغراما تقريبا . المعرب .

آخر الدنيا ، واذا شيء طري دافىء يحتويني ويغطيني مثل لحاف الريش وصوت لا مثيل لحنانه يهتف :

– يا حفيدى ، يا حبيبى !

احسست بالاطمئنان والثقة يتغلغلان فى اعماق روحى ، فالتصقت بجسد جدتى الكبير الدافىء .

ولكننى لم البث ان رأيتنى من جديد يملؤنى الضجة والصرير والرعشة الخفيفة التى ترافق الحركة : لقد استانفت القبيلة المسير . ومنذ ذلك الحين لم تعد السنة التى قضيتها على الارض الراسخة تبدو لى الا حلما قصيرا خادعا .

فى الصباح تفحصتُ جدتى . كان وجهها أسمر املس ، كما لو انه طلى بطبقة من الميناء ، وعيناها تشبهان الكرز ، وشعرها الابيض تتخلله خصلة سوداء مثل الفحم . ولكن هذا الشعر الابيض لم يكن يضفى عليها الكبر . . . شحمتا الاذنين وحدهما اللتان كانتا تنبئان عن ان جدتى سلخت سنوات طويلة وراءها . كانتا ذابلتين متدليتين . وثقبا القرطين يشبهان شقين صنعا بالسكين .

وكان فى العربة ، ما خلا اسرتنا وجدتى ، سلفة امى ورضيع لها عمره سنة ، وزوجها الذى يقود الخيل – طوال الرحلة لم اكن ارى الا بروزين حادين لعظمتى ظهره من تحت قميص قطنى وردى – وبيتيا اخوامى الاصغر . كان هذا مراهقا فى حوالى الخامسة عشرة ، فى جسم راشد ذى يدين وقدمين كبيرتين ووجه مشع بالطيبة وانف اقعى .

لما اكتشف وجودى فى العربة زحف نحوى وسألنى هل احسن التدخين ، فاجبته :

– لا .

– عندك ساعة ؟

فاجبت بالنفى من جديد .

فقال بيتيا ضاحكا فى احتقار :

– ويزعم هذا انه غجرى !

وسألته بدورى :

– وانت ، هل عندك ساعة ؟

– بسلسلة ؟

– نعم .

فاعترف بيتيا متنهدا :

– لا ، ليس عندى بسلسلة .

– ودون سلسلة ؟

فاجاب فى حزن افقدنى الرغبة فى السخرية منه :

– ولا دون سلسلة .

ولكن بيتيا لم يقدر سماحتى . فعبس ولم يعد يكلمنى . لم يحزنى ذلك ابدا . كانت جدتى تلح على ان اناديه «يا خالى» ولكننى كنت اجد من المحنق مناداة غلام بـ«يا خالى» .

كان مضربنا مؤلفا من غجر مبيضين . كان الغجر ينقسمون حسب مهنهم الى ثلاث فئات كبيرة : الاولى فئة الغجر التجار ، الذين كانوا يبيعون الخيول ويشترونها ويقودون من مقاطعة الى اخرى قطعانا كاملة ويربحون مبالغ ضخمة من المال . هؤلاء هم «البارقالى» ، الغجر الاثرياء . وعلى النقيض من هؤلاء يأتى «الزليدارى» ، الذين يمتهنون الشحاذة والسرقة والاحتيال وكذلك الشعوذة . فاذا خطر فى بال ارملة صبية ان تستميل اليها قلب فتى فى مقتبل العمر و«تسحره» وجدت فى قبيلتنا عددا غير قليل من الاخصائيين البارعين فى هذا الشأن . واخيرا تأتى الفئة الثالثة التى تضم الغجر الصناع او «المبيضين» الذين يبيضون القدور ويصنعون المذارى ويسودون طناجر الصلب ويلحمون الطاسات .

اظن ان مبيضينا لم يكونوا يأنفون فى الطريق وسائل كسب الرزق الاخرى . فقد سحرنا اكثر من فتى لحساب ارامل صبايا سود الحواجب . . وجلبنا اكثر من علة وشفينا من اخرى ونهبنا اكثر من بستان ونفضنا اكثر من شجرة كرز . وكفّرنا عن ذنوبنا هذه بمعانات الطريق .

كانت عرباتنا تسير فوق ارض مخربة ، وكنا نمر بضياع وقرى محروقة ، ومصانع ومعامل مهدمة . ونجتاز

محطات كبيرة للسكة الحديدية فنرى على خطوط التخزين قوافل طويلة تصرخ طالبة افساح الطريق .

وكنا نتقدم فى ارض قفراء ، مذرور فوقها غبار من الفحم ، حيث تنغرز بقايا المنجم المخروطية بمثلثاتها السوداء فى زرقة السماء الصافية ، حيث الآليات الصدئة التى تنتصب فوق آبار المناجم المغمورة لم تعد الا ملجأ للزرازير والغربان .

وخلّفنا وراءنا لاجئين تعساء يسيرون الى الامام على غير هدى . كان الناس يمشون ويقعون ويموتون على الطرق . واما نحن فقد كنا نتقدم الى الجنوب ، لا نبالى بمصائب الآخرين ، ولا نابه لاى شىء لا يمس حياتنا المتشردة .

كانت معارك الحرب الاهلية تهدر حولنا ولكننا لم نلتق قط بوحدات عسكرية . وكان اميلكا ، على ما يبدو ، يعرف كيف يقود مخيمنا . مرة واحدة اضطرنا للوقوف عند المزلقان قطار لم ارَ له فى عمرى مثيلا - بيت من الفولاذ على عجل ، مكشر عن فوهات المدافع - كان يتجه وئيدا نحو الغرب ، وكان يقف على الفسحة المدرعة رجال بالبسة مدنية خصورهم مشدودة باحزمة . كنت استطيع ان اميز بوضوح وجوههم المكدودة الصارمة ، وايديهم المعروقة المشدودة على البنادق .

حملقت بملء عينى فى هذا القطار العجيب واذا برعب يتملكنى فجاة . وقضى الرعب فىّ على الفضول فدسست وجهى فى تنورة جدتى ، ولم ارفع راسى الا حينما هدأت انفاس القطار الفولاذى اللاهثة فى البعيد .

ولقد احرقت السآمة التى كنت ارزح تحتها طوال فترة الترحال ، احرقت فى ذاكرتى كما الحامض تفاصيل هذه الرحلة الطويلة . ويعود كل شىء الى الوضوح بصورة مدهشة منذ اللحظة التى بدأت عجلات عرباتنا تغرز فى رمال المحافظة السابقة «تاووريا» * .

* تسمى الآن مقاطعة القرم . **المعرب** .

واذكر انى اخرجت راسى من تحت غطاء العربة ولبثت مدهوشا . كانت تشع ، فى السماء البيضاء ، شمس خريفية حارة ، تبرق على بقايا الغصون فوق جذوع الصنوبر على حين ان الارض كانت مكسوة بالثلج ، وقفزت على الارض فغصت حتى الرسغ فى ثلج حار جاف فيه محار بنفسجى مذهب يخطف الابصار . وهرعت نحو جدتى .

- ستى ، ثلج !

فاجابت جدتى :

- لا يا حبيبى ليس هذا ثلجا ، هذه ملاّحات ، ملح مخلوط بالرمل .

فلم اصدقها . الملح انما يشترى فى الدكاكين . واى احمق سيبعثر على الارض بضاعة تسوى مالا ؟ لا شك فى انه ثلج ، ولكنه صيفى وليس شتويا ، ولكم اتمنى ان اراه يسقط من السماء !

كانت عربتنا لا تكاد تتحرك . وسمعنا صيحات السائق المبحوحة واليائسة وصرير النير وهسيس الرمل . ظلت العربة تتارجح من جهة الى اخرى ، ولكن الصنوبرة العوجاء التى تلوح منذ زمان بعيد قرب عربتنا لم تكن تتزحزح قيد انملة . وكان الرجال وفى ايديهم الرفوش قد هرعوا يخلصون العربات الغارقة فى الرمل . كانوا يقطعون الاغصان ويقذفونها تحت العجلات . . . ولكن هيهات ! كانت العربات تغوص فى الرمل اكثر فاكثر . وكان الثلج الخداع ، مثل مستنقع رخو ، يبدو كانه يمتص مخيمنا . وتوقفنا فى مكاننا لا نتزحزح . .

العجز يولد الغضب . فى هذه اللحظة الصعبة تذكرت زوجة عمى ، سلفة امى ، ان امى وزوجها وانا دخلاء على المخيم . ومن صياحها وزعيقها امكن ان نفهم اننا نعتبر مصدر الشر كله ، فنحن الذين اخترعنا هذه الرمال المهلكة ، ولولانا لبلغ المخيم الارض الموعودة منذ زمان بعيد .

كانت سلفة امى امرأة صبية ، تلبس على الطريقة الغجرية ، ثيابا ذات الوان فاقعة ؛ تنورة حمراء ، وسترة

زرقاء ذات حواش من فرو الكلب ، وشريط ملون في العنق ، ومنديل رأس حريري . لقد بقيت ، اثناء المسير ، غريبة عن كل ما يحيطها ، لا تعنى الا بابنها ، ذلك الكائن الصغير العاري . كانت ترضعه وهي تضغط اصبعها على الثدي حتى يسيل الحليب قويا ، وفي هذه الاثناء تكز على شفتيها الرقيقتين ويرتسم على وجهها تعبير العذاب والهيمان . كانت تلف ابنها في خرق ثم لا تلبث ان تفكه كي تقبّل مؤخرته الحمراء المتغضنة ، وتقذفه في الهواء عاليا مشفعة ذلك بصرخات رعب وفرح ، وتطعمه من فمها عصيدة ما كما يطعم الحمام صغاره .

الآن ، نسيت للمرة الاولى طفلها . كان مضطجعا على ظهره عاريا وبطنه المكتنز باد وهو يحرك في آن اصابع يديه ورجليه ، وبدا كانما يصغي في دهشة مرحة الى صيحات امه .

وقالت جدتي مرددة :

– اسكتي اسكتي يا بنتي .

ولكن المراة لم تهدأ .

ولبثت امي جالسة من غير ان تفوه بكلمة ، وقد ضغطت يديها بين ركبتيها الهزيلتين وكانها لا تسمع لعنات سلفتها . ثم نهضت ، وبنفس الصمت قذفت الصرة التي تحوي اسمالنا الى الارض . فاقترب زوج امي ، والعرق الممتزج بالقطران يغطيه . لقد سمع كيف شتمتنا امراة عمي فلم يسال عن شيء . ومد لي ذراعيه وانزلني من العربة . ثم نزلت في اثرنا جدتي وهي تتنهد بصوت خافت . ثم قفز من بعدها الخال بيتيا تاركا قبعته اللباد الممزقة ذات الحوافي الواسعة تسقط معه .

لم يستبقنا احد . ان الغجر نادرا ما يغفرون الاهانة التي تمس القرابة . لقد كانت زوجة عمي تستخدم حقها ولكننا ايضا ما كنا قادرين على ان نتصرف تصرفا آخر .

الا اميلكا ، القصير الثقيل ، الاشبه بالدب ، فقد قرقع بلسانه وردد مرتين :

– شر ! . . شر ! . .

ولما اوشكنا ان نرحل اعطت سلفة امي ابنها ثديها ، كان شيئا لم يحدث ، وهي تدمدم فوقه بصوت ناغم .

لما وصلنا الى الطريق الكبرى عقد الراشدون مجلسا عائليا . الى اين نذهب ؟ لم يكن لدينا لا عربة ولا خيل ، سيرا على الاقدام لا نستطيع المضي بعيدا . واما السفر في القطار فيحتاج مالا . ولم نكن نملك ما يكفي لتذكرتين . وهذا ما قر عليه القرار : ان ياخذ زوج امي وامي القطار الى قرية ايغورليتسكايا حيث يقطن اهل زوج امي . واما نحن الآخرون ، جدتي والخال بيتيا وانا ، فعلينا ان نذهب سيرا الى العم سيدور الذي يعيش على بعد مئة وثمانين كيلومترا من هنا على الاكثر . وما ان يستقر بابويّ المقام حتى ياتيا لياخذانا .

ورحلا ، فجعلنا نشيعهما بانظارنا طويلا . بادئ الامر انمحى زول امي كانما تبدد في الفضاء ثم غيب الافق جسد زوج امي الضخم . ولكنني ظللت ، وقتا طويلا ، ارى طيف البقعة اللامعة لصرة الثياب الضخمة ، التي يحملها زوج امي على ظهره ، يخفق على الطريق ثم غاب هو ايضا .

كان طريقنا يمر عبر بلاد غنية . وكان الناس الاغنياء ياكلون خبزا ابيض والشطائر والحلوى دون ان يخطر لهم في بال ان يخبئوا كسرة من الخبز الابيض ليومهم الاسود . . . كانوا يطعمون بفتاتهم الخنازير فظفرنا نحن ايضا بنصيبنا .

وبعثوا بي اشحذ فكنت اروي قصة مؤسية اخترعتها لي جدتي مدعيا انني يتيم الابوين . كانت هذه الكذبة مكروهة ، لا لانني امقت الكذب بعامة ، لا ولكن لان الكلام على موت ابويّ كان يبدو لي فالا سيئا . ولكن الجوع كافر . . . كنت احيانا اجمع من كسر الخبز وقطع الشطائر والفطائر ما يملأ كمي كله ، ولكنني غالبا ما اعود خالي الكم والمعدة ، فتغضب جدتي وتقول انني غجري رديء ما دمت اجهل كيف اكسب ود الناس . وكان هذا يحزنني لكنني لم اعرف سبب

فشلي المطرد . كنت اختار دوما اكثر المنازل غنىً واشد الناس اكتنازا وخيرهم غذاءً ، ظانا ان من كان رزقه رغدا انما يعطي الفقراء مختارا . فاذا طردوني خيل اليّ انني اخطات فطرقت باب فقير عوضا عن غني .

وقع لي هذا الحادث في اليوم الرابع او الخامس من مسيرنا . كانت الامسية هادئة حتى ليخيل اليّ انى اسمع اهتزاز ذيل ابي قصادة الذي ينط على الطريق . خبت السماء الزرقاء النقية وفي الغرب وحده اشعلتها حمرة المغيب الحادة . كان قرص الشمس يلمع خلف غيمة بنفسجية ، مثل قطعة من المعدن في الجمر . وتذكرت انطون ميخايلو وكل حياتنا المرحة آنذاك ، فبدا لي الطريق خاويا لحد الرعب ، موحشا . وركضت الحق جدتي واتشبث بتنورتها . قالت :

– تعبت يا كوليا !

قالت بغضب لانها لم تكن قادرة على مساعدتي .

واضافت :

– جدتك عجوز ومع ذلك ليست تعبة ، كلا ولا خالك بيتيا .

– انتما كبيران واما انا فصغير !

– في الثامنة لا يكون الانسان صغيرا . لقد عرف جدك ، في الثامنة من عمره ، كيف يسرق حصانا .

لذت بالصمت ، يسحقني عجزي . وانعطف الطريق بنا فجاة الى شعب مغطى بالغبيراء . وانكشفت لنا وهدة عريضة في شق واسع بين الادغال يقطعها شريط طريق طينية احمر تصعد سدا ترابيا فوق اخدود طيني ، ولا تلبث بعد ذلك ان تصب في شارع قرية كبيرة ، عند قدمي الجرف ، تحتنا تماما كانت ترتص خيام مختلفة الالوان ، وعربات عصيها مرفوعة الى السماء ، والخيول المقيدة ترعى : كان ذلك مخيم غجر .

كانت اشعة الشمس الغاربة التي تخترق الدغل تنعكس انعكاساتها الاخيرة على المع ما في المخيم : على الخيام الملونة ،

على قصب السروج المكومة قرب الخيام ، على الشيلان والعقود والاقراط التي تحملها النسوة اللواتي يسعين قرب نيران المضرب .

كانت جدتنا ذكية ماكرة ! لقد قادتنا دون ان يبدو عليها شيء ، مباشرة الى مخيم ! . اخذت اضحك واصفق بيدي ، واقتلع الخال بيتيا من راسه قبعته الممزقة ، التي تشبه عش غراب ، والقى بها في الفضاء .

ولكن الجدة لم تقاسمنا فرحنا . كانت تنظر الى المخيم عند قدميها وتهزّ راسها ثم امسكتنا ، خالي وانا ، من يدينا قائلة :

– فلنرحل . هنا ليس حسنا !

ولكننا قبل ان نخطو خطوة برزت من وراء الدغل قامة غجري مسن باسقة تسد علينا الطريق . كان رشيقا ، متين البنيان يلبس بنطلونا فضفاضا ، اسود ، وحذاء لدنا من جلد الماعز وصدرية مخملية انيقة ، تتلوى من تحتها سلسلة ساعة فضية . وكانت خصلات بيضاء جعداء جدا ، تؤطر وجها بارز العظام ذا انف صقري . لقد رشق خلف اذنه غصنا من الغبيراء تذكر اثمارها البرتقالية بللآلئ . وكان في يده ورق لعب وسخ .

وحيانا الغجري في ادب وسالنا من نكون ؟ من اين نحن قادمون ؟ لماذا لم ندنُ ، حينما راينا المخيم من النار ؟ لماذا يلوح علينا الخوف من ابناء جلدتنا ؟

لغة الغجر لا حد لغناها بالنبرات الساحرة : الشريرة والطيبة ، الضاحكة والمدهوشة ، المادحة والمهددة ، المسترحمة والآمرة . وليست النبرة وحدها ولكن ترتيب الكلمات والضغط على المخارج والطقطقة الخفيفة من اللسان ، كل هذا قادر على ان يعطي ابسط الكلمات معانيَ مختلفة دفينة . وحتى نحن ، الاطفال ، كنا نملك فن هذا النوع من الحوار . وليس عجيبا انني انا ابن الثامنة تبينت في اقوال الغجري المسن الحفية سخرية مصبوغة بالتهديد .

وسالت جدتي وصدرها المشدود بالشال يرتفع :

— هذا مخيم بارو شيرو ، أليس كذلك ؟
فأجاب الغجرى وهو يعبث بسلسلة ساعته :
— وحتى لو كان ، فماذا ؟ هـل اعترض بارو شيرو سبيلك ؟ ان بارو شيرو انسان بسيط يجب ان يكون لديه ضيوف وهو سعيد باستقبالهم . اذهبى الى مخيمنا يا عزيزتى تحلوا رحبا وسعة !
وعلى النقيض من كلماته الودية الغجرية ومضت سخرية مشؤومة من عينيه القريبتين من انفه .
للغجر قواعد جامدة يشكل خرقها جرما . مثال ذلك انك لا تملك رفضا لدعوة لطيفة الى الجلوس قرب النار . ومع ذلك فقد احسست ، من الطريقة التى شدت جدتى بها على يدى ، اننا بسبيل الهروب حالا .
وسمعنا وراءنا هسيس اغصان تزاح . وخرج غجريان آخران من الدغل يتمطيان وقـد قطعا علينا خط الرجعة . كانا ، على الاغلب ، يلعبان القمار هناك . . .
وارخت جدتى اصابعها وتركت يدى . والقت راسها على صدرها من غير ان تنطق بكلمة وكأنها تعترف بما لهؤلاء الناس عليها من سلطة .
فى مخيم بارو شيرو استقبلنا فى حفاوة . قدم الينا برغل مطبوخ بالحليب ، وظفرنا ، الخال بيتيا وانا ، كل بتفاحة كبيرة . ولم تمد جدتى يدها الى الطعام . كانت تجلس على الارض تلف ذراعيها حول ركبتيها ، وتهز راسها دون انقطاع فتصدم اقراطها المعدنية المستديرة خديها . ثم قدم علينا غجر من الشبان ، وبين الضحك والمزاح اخذوا الخال بيتيا معهم . فى هذه اللحظة رايت جدتى ترفع يدها الى راسها الذى يتارجح واقتلعت فى بطء خصلة من شعرها الابيض والقتها فى العشب وعلى وجهها تعبير عزلة مستغرقة .
ولكن علىّ ان اقطع سياق قصتى لكى ابين ما هو مخيم بارو شيرو .
للغجر «برقهم اللاسلكى» الخاص فاذا التقى غجرى آخر

على الطريق سرعان ما يروحان يتبادلان الاسئلة : من اى مخيم انت ، من اين تأتى والى اين تذهب ، من صادفك فى طريقك ، اتعلم ايـن يضرب المخيم «الازرق» ، والمخيم «الاسود» ، او فى اية منطقة يتجول اميلكا ؟ . . وسواء كنت تعرف الانسان الذى تصادف او لا ، سواء كان صديقك او عدوك ، فعليك ان تجيب بكل امانة عن كل الاسئلة . واكثر ما يهم الغجر هى الطرق التى تتبعها مختلف المخيمات . وهنا يجب عليك ان تحيط سائلك علما لا بما تعلم انت نفسك فحسب وانما بمعلوماتك من المصادر الثالثة والرابعة ايضا .
بمقتضى هذا «البرق اللاسلكى» كانت جدتى تعرف اننا لا نستطيع فى هذه الاصقاع ان نعثر على مخيم الا هذا المخيم الذى لا يدرى احد له وجهة ، والذى يأتى لا احد يدرى من اين والذى يذهب لا احد يعلم الى اين ، وباختصار : مخيم الاشقياء المخيف ، مخيم بارو شيرو : الراس الكبير .
فى ذلك العهد كان يتسكع فى الاسواق والقرى عدد عديد من الغجر المنفردين الذين هجروا ، لهذا السبب او ذاك ، مخيمهم الذى ولدوا فيه . هذا لانه كان ضحية حب تعيس وذاك لانه اساء التصرف نحو مخيمه فطرد منه ، والآخر خرج من السجن ، بعد قضاء مدة عقوبته بما سرق من خيول ، ولما يستطع العثور على جماعته . . . لقد جرت العادة فى الماضى ان يسمى الناس الغجر متشردين . ولما كانوا خلال قرون مديدة ، يطردون ويضطهدون ، محرومين من قطعة الارض الصغيرة تقلهم والسقف المكين يظلهم فقد اصبحوا متشردين رغم انفهم . ونحن انفسنا لم نكن نحب هذه الكلمة ، ولا نطلقها الا على الغجر المنفردين ، الذين انقطعت اسبابهم بذويهم . كان بارو شيرو يجتذب هؤلاء المتشردين الى مخيمه المؤلف من عدة اسر تصل بينها صلات القربى ومن زوجاته العديدات . فاذا اجتذب بارو شيرو خمسة او ستة من هؤلاء زجهم فى «عمل» — هكذا كانت تسمى سرقة الخيول — وكان هو نفسه ، تصحبه حاشية ،

يقصد سكان القرية الاثرياء ويقول لهم : «نحن غجر ولسنا لصوصا ، ليس كل الغجر لصوصا . ونود ان تعرفوا ذلك . غدا سيأتيكم غجر ارذال لكي يسرقوا خيولكم فاقبضوا عليهم وعاقبوهم كما ينبغي» . وكان الفلاحون القوزاق ، وهم أناس حذرون ، يجيبون عادة : «أتريـدون ان تقبضوا حلوانا ؟ انزعوا هذا من ذهنكم . كل الغجر من طينـة واحدة» . — «نحن لا نطلب منكم شيئا ما لم تمسكوا بهؤلاء اللصوص . ولكن اذا امسكتموهم كافاتمونا . أنتم ثلاثمئة بيت ، اذن ، ثلاثمئة مرة نصف روبل من الفضـة وهذا ما يكفل لمخيمنا العيش شهرا» .

ويذهبون . حتى اذا مـا ازف اليوم والساعة المحددة بعثوا ، لاجل «العمل» بالشبان الذيـن يجهلون كل شيء ويذهب هؤلاء فلا يعودون . لقد كان سكان القرى القوزاقية وحشيين في انتقامهم . يقتلون اللصوص بالفؤوس والمذارى والهراوات ، ويدفنونهم في حفرة واحدة . ويجمع بارو شيرو الجزية . ولم يكن الفلاحون ليظهروا شحا . فكانوا ، فضـلا عن المبلغ المتفق عليه يعطون كمية مـن اللحم والبيض والطحين وكذلك بعض الالبسة . فاذا جاء الليل يرحل مخيم الاشقياء ، وغالبا ما يسوق امامه قطيع الخيل الذي كلـف الشبان المساكين الذين ارسلهم بارو شيرو حياتهم .

وكان اتباع بارو شيرو يعرفون كيف يحفظون السر . وبطبيعة الحال كان سكان القرى هم ايضا يلزمون الصمت . وهكذا فان الغجر ، وهم على علم بأن جرائم ترتكب فـي المخيم وبأن عددا عديدا من الشبان الذين جاءوا مـن خارج المخيم قد لاقوا حتفهم ، ما كانوا قادرين علـى ان يفهموا على وجه اليقين من اين يعيش مخيم بارو شيرو .

لقد عرفت هذا كله بعد ذلك بزمان طويل . . .

لا شك في انى كنت ارى قلق جدتى وحزنها ، ولكـن مخيم بارو شيرو ابهجنى . اذكر الليلة الاولى . كانت السماء تتلألأ بالنجوم . وانا متمدد على فراش دافئ لين لم يتسن لى ابدا ان انام على مثل هذا الفراش الجيد . مرتبة سميكة

من الريش وغطاء ليس ممزقا تقريبا ، وتحت راسى مخدة من التبن . وانقر على بطنى المحشو بعصيدة بالحليب ، انه قاس كالكرة . وتراودنى رغبة فى الضحك . ولكن جدتى جالسة قربى ، لا تنام ، واثر النار التى تخمد يسقط على وجههـا الذى يلمع فيه شيء . واحزر انها دموع فاشعر بالنفور مـن النظر الى جدتـي . واحول عينى وانظر الى أعلى . السماء مرصعة بالنجوم اللامعة ، التى تتململ وتتغامز هى ايضا فى مرح . واقول فى نفسى انه سيكون عندنا منـذ الآن عصيدة بالحليب وسرير دافئ كل يوم . وانام على هذه الافكار .

لم تخب آمالى . كنـا نطعم العصيدة بالحليب والخبز الابيض وما مـن احد يبعث بى للشحاذة فـى القرى حيث الكلاب شرسة والناس اشد شراسة من كلابهم . كنا ، الغجر الصغار وانا ، نقوم بالعاب مسلية .

كنا نجتمع فى حلبة امام النار ونلعب لعبة بيع الخيول الوهمية . نضرب يدا بيد كمـا يفعل تجار الخيل ، نبلّ اصابعنا ونعيد طويلا عد اوراق الملبس ، التى تمثل الاوراق النقدية ، ونتشاجر ، ونطالب بزيادة ونشرب «حلاوة الصفقة» من علبة صدئة للمحفوظات ثم نروح نترنح مثل السكارى ، ونعود الى خيامنا ، وكل يتخيل انه ربح فى الصفقة على حين ان الآخرين خسروا . وقصارى القول انها كانت لعبة غجرية حقيقية . ولم يكن الكبار ينهروننا او يشتموننا مدعين اننا نتسكع بلا عمل . واحيانا كان الغجرى الشيخ الانيق — يد الرئيس اليمنى — ياتى لزيارة سوق خيلنا ويشجعنا تشجيعا ابويا . شيء واحد بدا لى غريبا : لم يكن النهار الغارب يودع هنا بالغناء والرقص على عادة الغجر . فى مخيم بارو شيرو لا يسمع الانسان الموسيقى . . .

لم تكن ترى الخال بيتيا الا مـن بعيد . ذات يوم جاء قبيل العشاء فى بدلة غجرية سوداء وصدرية من المخمـل المطرز ، متانقا غريبا ، تكـاد لا تعرف فيه بيتيانا القديم . لقد تحقق الحلم الذى كان يداعب خياله منـذ زمان بعيد : سلسلة ساعة تمتد عبر بطنه من جيب الى آخر . صحيح ان

فى نهاية السلسلة كانت تتدلى علبة ساعة فارغـــة (كان الغجر يسمون هذا «ساعة دون احشاء») ، ولكن هـذا الامر لا اهمية له : لم يكن الغجر فى حاجة للساعـــة كي يعرفوا الوقت . كان بيتيا ينتعل حذاء انيقا ، ضيق الطرف ، مثـل منقار الاوز ، لامع الرقبة . هكـــذا قدم بيتيا نفسه لنا . واحسست فجأة انه من السهل علىّ الآن ان اناديه بـ«خالى» .

ولكن منظر بيتيا لم يبهج جدتى . اخذتها رجفة وركعت على ركبتيها :

— لنرحل من هنا ، لنرحــل يا صقرى الصغير . . . سيهلكونك !

لم يجب بيتيا بشيء . سحب من جيب بنطلونه حفنة من القطع النقدية وراح يخشخش بها تحت انفى .

رجوته ان يعطينى قطعة صغيرة ولكنـــه شرح لى ان انفاق المال ممنوع . ان بارو شيرو هو نفسه ينظر كل مساء ما اذا كانت القطع كلها موجودة .

لما سمعت جدتى اسم بارو شيرو اخذت تبصق وتنزع شعرها وتلقيه ، خصلات ، على الارض . وطافت على شفتى بيتيا ابتسامة راضية راثيـــة ، ابتسامة انسان نشوان من السعادة ، وسحب ساعته «التى لا احشاء لها» ، ونظر فـــى لوحتها من الورق المقوى وابتعد وهو يتمخطر .

كانت حوالينا نسوة كثيرات ولكنهن مضين يشتغلن فى امورهن كان شيئا لم يحدث . ولم تهدأ جدتى فاخجلنى ذلك جدا . توسلت اليها : «كفى يا ستى» — ورحت اجمع حزم شعرها حتى لا تبعثرها الريح فى شتى ارجاء المخيم .

فى هذه اللحظة برزت امامنا قامة انسان لا مثيل لهـا عجيبة لا ترى مثلها الا فى الاحلام . كان جذعه القوى وكتفاه العريضتان . لا تكـــاد تثبت عـــلى ساقيه القصيرتيـن الملتويتين . ولكن ذراعيه الطويلتين الشعراوين اللتيـــن تمسان الارض كانتا بمثابة عكازتين له .

واكثر ما يحمل على الدهشة فـــى هذا القزم الجبار هو راسه . ضخم كالقدر مكسو بشعر قاس اجعد ، ذو فكيـن

شاسعين بارزين وانف امسح مكسور ، كان يخيل انه غائص فى الصدر والكتفين . . . وعيناه الصغيرتان الفاتحتا اللون تبرقان فى وقبيهما العميقين . وكانت احدى اذنيه اكبر مـن الاخرى ، حادة ، طويلة ، يشدها الى الاسفل قرط ثقيل .

وبغريزة الطفل التى لا تخطئ حزرت حالا انه هو بارو شيرو . كان يشد على غليون بين اسنانه ، غليون فى مثل اسطورته يمثل راسه نفسه ، منحوت من الرخفة فى براعة فائقة .

ونفث بارو شيرو سحابة دخان وسحب غليونه من فمه وقال بضع كلمات مبتسرة لجدتى فى صوت ابـح خافت . وبدا وكان الكلمات تخرج من انفه الامسح المنسحق . القت جدتى نظرة على بارو شيرو وارتمت امامه دافنة وجهها فـى العشب . وابتعد الآخر ظالعا على ساقيه القصيرتين .

فى ذلك اليوم ، عرف الناس ان فتياننا سيذهبون فـى «عمل» .

فى المساء اخذت الريح تعصف . واشرعة الخيام تصفق فى ضجة ، والعربات تصر كانما تتهيأ لرحلة طويلة ، ولهيب النيران لا يرتفع ، بل تنسحب السنته على الارض وتلحس العشب . كان فتياننا قد ذهبوا ، وصمت المخيم فى ترقب .

وللمرة الاولى احسست هنا انى منزعج قلق . وتوسلت الى جدتى :

—لنرحل ، لنرحل من هنا يا ستى !

فاجابت جدتى وهى لا تكف عن البكاء :

— كيف تريد ان نهجر بيتيانا ؟

شعرت على شفتى بدموعها الباردة المالحة .

ونمت فى مكانى قرب النار . وتملكنى الخوف فى منامى ايضا ، فاخذت انادى جدتى ولكنها لا تجيب ، ربما كنـت ادعوها فى الحلم فقط .

ومزق الصمت الليلى صراخ مخيف . واستيقظـــت . كان انسان مدمى ، ممزق ، يتلوى قرب النار ، صائحا : «قتلونا قتلونا . . . الفلاحون قتلونا . . .» وعلى خده ترتعش خثارة

مستديرة من الدم ، جلاتينية ، هى عينه التى سالت من محجرها .

ثم دوت صرخة اخرى ، حادة ، ملتاعة ، صرخة حيوان جريح جرحا قاتلا . كانت جدتى هى التى تصرخ . اندفعت نحو الجريح وامسكت به من قميصه .

وجمجم الآخر منتحبا :

— قتلوا ابنك !

وأحاط به الغجر الشيوخ ومضوا به .

ودبت الحركة فى المخيم كله . كانوا يلفون الخيام ، ويفكون الخيول من عقالها ويقذفون بالاطفال النائمين الى العربات . والخيول المرعوبة تنخر وتحمحم فتقفز بالقوة الى العربات ، والشتائم المقذعة تدوى فى سعار ، والسيور والحياصات تشد .

فى هذه اللحظة ظهر بارو شيرو امام النار . وقف مباعداً ساقيه القصيرتين ، يشعل غليونه ، فى هدوء ، بفحمة اخذها من المجمرة .

ولست ادرى كيف ظهر خنجر بحدين فى يد جدتى . كانت تمسك الخنجر بيدها المدلاة والمشدودة حتى الارتعاش . وما هى الا خطوتان انزلقتهما حتى دنت من بارو شيرو ورفعت ذراعها فوق كتفه اليسرى ووثبت وثبة اشترك فيها جسدها اشتراكا اثقل وقع الضربة وضربت المجرم فى وسط وجهه الشنيع . فى آخر لحظة حمى بارو شيرو نفسه بيده ، فشق الخنجر حاجبه ومزق قبضته . وسقط غليون الرئيس فى العشب . واما هو فقد ضرب بعظام اصابعه الجريحة جدتى فى صدرها . كانت الضربة رهيبة ولكن جدتى حتى لم تترنح . هاجمت قاتل ابنها من جديد ، فهرع غجريان شديدان يصدانها ، ونجحا فى نزع سلاحها ولكنهما عجزا عن الامساك بها .

لم يسبق لى ان رايت جدتى على مثل هذه الفظاعة والجمال . كان شعرها الابيض قد تناثر حول وجهها الأسمر الذى عاد اليه صباه وغدا قاسيا ، وعيناها تشتعلان

ضراوةً . وفى حركة وحش مرنة ، انتزعت نفسها من ايدى الغجريين وانشبت اظافرها فى عينى بارو شيرو . وهرع الغجرى المسن ، الذى استدرجنا الى هذا المخيم ، يمد يد العون لزعيمه . زلق ذراعه تحت ذقن جدتى ودفع ركبته فى ظهرها وانتزعها من بارو شيرو . وصاح بالغجر الآخرين :

— كتفوها !

وقذف جدتى على الارض ، ثم اخذ بارو شيرو من تحت ابطيه وجره فى جهد .

وما هى لحظة حتى اقفر كل شىء . قبل بضع دقائق كان الناس هنا ، فى غدو ورواح ، والخيول تصهل وتشب فى سيورها ، ومعركة ضارية بين ثلاثة رجال وامرأة سلبتها الفجيعة رشدها ، وفجأة يحل الخواء ، كان مخيم الاشقياء ذاب فى الليل ذوبانا . ومن الاعلى ، كانما من غيمة قاتمة اشبه بدخان راكد ، تناهى وقع حوافر جياد وصرير عجلات وقرقعة سياط . ثم انمحت هذه الاصوات هى ايضا ، ولم يبق الا الليل والريح وبقايا النار وجدتى الملقاة على الارض شبه ميتة .

وهبت الريح طوال ما بقى من الليل فى جنون . كانت تعصف باثواب جدتى وقميصى ولكنها لا تدع للنار ان تخمد بما تقذفه اليها من الزاد : قطع من الورق والقش والعشب الجاف . كنت اتوسل الى جدتى ان تفتح عينيها . ولكنها لم تستجب لى ، لم تكن تصنع الا ان تختلج . ثم هدات الريح وهبت برودة قارسة قبيل الفجر ، فتبينت العشب المهروس والخرق الملونة ، وحلة مثقوبة ، وعلبة المحفوظات الصدئة التى كنا نشرب «حلاوة الصفقة» منها ونحن نلعب لعبة تجار الخيل ، وعلى بعد يسير ، ابصرت غليون بارو شيرو الذى سقط منه حينما ضربته جدتى بالخنجر . والتقطت الغليون وبصقت على وجه المجرم الحقير . بصقت مثنى وثلاث وانا اقول : «لاجل بيتيا ، لاجل جدتى ، لاجلى» . وشتمته بكل الكلمات البذيئة التى كنت اعرفها ، ولكننى لم اسحق الغليون تحت قدمى ، لا ولم اقذفه الى النار . ساعدنى

احساس لاشعوري بالجمال كان يحيا في روحي الصبي ان افصل الاصل عن المثال . . .

— ماء . . .

كان هذا صوت جدتي .

دسست الغليون في عبي واخذت علبة المحفوظات ثم عدوت الى اقرب بركة ولكن ، لما اردت ان أسقي جدتي همت بجسمها على نحو اخرق وسقطت الى الخلف من جديد . وطوال ذاك الوقت كانت ذراعاها لا تزالان مكتوفتين . وحللت العقدة القوية في جهد جهيد وقذفت الزنار الصوفي في النار . وسرعان ما اشتعل واحترق . خيل الي انني احرقت اساس مصائبنا كلها ثم ادنيت من جديد علبة المحفوظات من شفتي جدتي .

— يا حفيدي ، يا ولدي ، هذا الماء لا يشرب . تسبح فيه حشرات سيئة .

ومع ذلك شربت هذا الماء السيىء وشربت من بعد مرات كثيرة خلال النهار لانه لم يكن ماء آخر قريب بينما كان الظمأ يعذبها . ويظهر ان هذا الماء هو الذي امرضها .

لم يكن لدينا ما ناكله . وفيما حولنا تبعثرت حزم من القش وحب الشوفان المنتثر من المخالي وقشور بطاطس . اضرمت نارا وحاولت ان اشوي هذه القشور بعد ضمها في عود طري ، ولكنها سرعان ما تفحمت .

وقالت جدتي :

— اذهب الى القرية . فلا بد ان فيها ناسا طيبين . . .

وذهبت ، كانت القرية قريبة منا . تجاوزت تلة التراب فوجدتني امام الدار الاولى . وخرجت ربة الدار على قرع الباب . فطلبت اليها كسرة من الخبز في صوت تند عنه شكاة دفعت الدموع الى عينيها . قالت :

— يا وباه ما اصغره . . . ادخل ، ادخل . اين اهلك يا صغيري المسكين ؟

لم اكن انتظر مثل هذا السؤال ، ولم اعرف ماذا اختلق فقلت اسمي .

فرددت المراة اسمي وهي تعطيني ملعقة وتتهيأ لكي تدفع اليّ بصحفة من حساء الكرنب يتصاعد منها البخار :

— آ ، انت ابن ناروجني ، ولكن اي ناروجني ؟ باناس او غريتسكو ؟

كان جليا ان اناسا يكنون بنفس كنيتي يقطنون في الضواحي المجاورة . لو كنت اكبر سنا وخبرة لقدرت على الافادة من هذا التوافق . ولكنني لذت بالصمت . وتابعت المراة دون ان تدع الصحفة من يديها اسئلتها :

— كيف حال اختك يا ولدي الصغير ؟

اجبت :

— انا ما لي اخت .

— اذن فانت ابن باناس ، كيف حال جدك ؟ الا يزال حيا هذا الشيخ الطيب ؟

— انا ما لي جد .

— مهلاً اذن انت لست من اسرة ناروجني .

وغضبت المراة ، وانتزعت الملعقة من بين يدي وطردتني الى الخارج .

مشيت طويلا في الزقاق المقفر من غير ان اجرؤ على قرع الابواب . كانت قرية يقطنها كولاك اغنياء ، ولكن كان لها فقراؤها ايضا . وما لبثت ان وصلت الى الطرف الآخر من القرية حيث اخذت المنازل ، شيئا فشيئا ، تغدو اشد انخفاضا والاسيجة اقل علوا والدخان المنطلق من المداخن هزيلا شفافا . وكان من عادة الغجر الا يمدوا اليد الى الفقراء ابدا . فعلى الرغم من كونهم ميالين الى ابتزاز المال فليسوا بالشحاذين بل باعة ، مهما تكن البضاعة : خيول او حلل او اغنيات او قراءة للطالع والفقراء شارون سيئون ، ولذا كان الغجر يولون وجوههم شطر المنازل الغنية . وانا ، الغجري الصغير ، لما شممت رائحة البؤس هممت بالنكوص على عقبي حينما نادتني امراة .

كانت تنورتها البالية من نسيج خشن ، لا تكاد تستقر على وركيها الامسحين . وكان في فمها ثقب اسود ، اذ

تنقصها عدة اسنان . وانطلقت اقوال غير مفهومـــة من هذا النقب فخيل اليّ انها شتائـــم . وددت ان امضى فى سبيلي ولكن المرأة صرخت فى قوة حملتنى على الوقوف . كانت عند قدميها سلة خضرة ، اخرجت منها كرنبة صغيرة وبسطتهـــا لى . كنت اخشى الاقتراب . فهذه المرأة ذات الثياب الرثة لا توحى اليّ بالثقة . حينئذ دفعتْ بالكرنبة دفعـــا هينـــا فتدحرجت نحوى . «تريد ان تستدرجنى ، من كل بد . . .» على انى اظهرت انى اشد حيلة منها ، فاختطفت الكرنبة فى سرعة واطلقت ساقى للريح .

سخنت الكرنبة على النار طويلا ورحت اقرضها . ولـــم تاكل جدتى . كانت تطلب الى الماء فقط فاحمله اليها .

ومر يوم عـــلى هذه الحال ، وليلة ، ثم يوم وليلـــة آخران .

لم تنهض جدتى ، بل ولا تكـــاد تتحرك . كان جسمها الملىء الكبير قد تغضن ، وانتشرت زرقة غريبة فى وجههـــا البرونزى وسودت شفتيهـــا المطبقتين المهزولتين . وظلت عيناها مفتوحتين دوما ولكن بدا كانها لا ترى ، او انها تبصر غير ما كنت ابصره انـــا . ونادت بيتيا عدة مرات : لعلها كانت ترى ابنها . . .

مرة واحدة فقط رفعت رأسها الصغيـــر الملبّد الشعر وقرطاها لاصقان بخديها وغمغمت بصوت لامبالاة فيه ، كما لو كانت تردد شيئا محفوظاً من غير ان تسمـــع كلماتها ذاتها :

— اذهب اطلب صدقة . لا بد ان فى الدنيا اناســـا طيبين . . .

ولم اجرؤ على عصيانها ، فذهبت . لم اتعلم من لقائى بالمرأة العجفاء التى اعطتنى الكرنبة شيئا . فتوجهت الى الاغنياء من جديد . ودخلت منزلا كان يجلس فيه الى المائدة رجـــل سمين ، بقميص نوم حمالتاه تغيبان فى الشحم المكتنز .

وبدات الاسئلة كالعادة : من انا ومن اين انا آتٍ . ولكنى هذه المرة لم ادع احداً ياخذنى على غرة . اجبتـــه

بالاحدوثة التى اطعمتنا طوال الطريق . واصغى اليّ الرجل حتى النهاية ثم قال ضاحكا :

— تكذب ببراعة . مات ابواك من مرض فى البطن ؟ يا لك من خبيث ! ولكنـــك لا تحسن الكذب . انت ابن سارق خيول ، ابن لص . لقد دفنوهم جميعا فى مقطع الطين .

وامسكنى من اذنى وقرصنى قرصة مؤلمة . ثم دعا اولاده كى يريهم كيف يقتص ابوهم من غجرى قذر صغير . ولكنه سرعان ما تعب وسلمنى لاولاده .

— اعطوه علقة لا ينساها .

وسحبنى الاولاد وهم يجودون علي ركلا ورفسا . ولما وصلوا الى فناء المنزل اطلقـــوا الكلاب . عدوت الى الخارج ولكن الكلاب ما اسرع ان لحقت بى . تذكرت حينئذ ان ليس امامى الا مخرج واحد : ان استلقـــى على الارض ولا آتى بحركة . وتمددت على الارض . كنت ارى من خلال اجفانى المواربة كلابا ضخمة ذات السنة ورديـــة مبللة . وقلت فى نفسى : اذا اخذت تمزقنى قدمت لها حنجرتى حتى لا اتالم طويلا . ولكن الكلاب دارت حولى ، شممتنى ثم ابتعدت فى لامبالاة مشرعة اذنابها . واستنتجت ان الكلاب هنا خير من الناس .

لم اعد امضى لاستجداء الخبز . ولم يبق لى الا شىء واحد : ان اصون النار ان تنطفئ . ما افظع ان تخمد النار ! ان ظلمات كثيفة تلفك بين طياتها من كل جانب ويخيل اليك انك نصف ميت . ولكن قبسا مهما يكن ضئيلا ، يتمشى على الفحم ، قادر على ان ينفى عنك الاحساس بانك مهجور بائس .

قبل المساء ، حينما يعود الناس بالحيوانات من الحظيرة المكشوفة الواقعة على بعد نصف كيلومتر ، كنت اجمع جلة البقر التى اذا جفت اثناء النهار اشتعلت بصورة لا بأس بها . ولكننى كنت عاجزا عن ان احمل مقدارا كبيرا فى آن فترتب علي ان أقوم بحوالى عشرة مشاوير اذا اردت ان ادخر مؤونة وقود ليلة كاملة . وخطر فى بالى ان اسرق السياج الخشبى

الذى يحيط بالحظيرة . كان متهرئا واوتاده لا تكاد تنغرز فى الارض . ولما هبط الليل ذهبت الى هناك .

يبدو أننى بالغت فى تقدير قوتى . كان وتد الزاوية النخر والعطن ينثنى ويتذبذب ولكنه لا يسقط . فاسندت ظهرى اليه وجعلت اهزه كما تهز شجرة تفاح فى بستان ، واركله دون جدوى . . .

فى داخل الحظيرة كانت جلة جافة تبدو مثل بقع بيضاء . قلت فى نفسى : «ليذهب هذا السياج الى جهنم . الاحسن ان اجمع جلة ملء قميصى . قد يكفى هذا نصف ليلة . . .» ومع ذلك مضيت فى هز الوتد فى عناد .

كان الصمت مخيما ، ولكنه لم يكن مثل صمت السهوب المطلق ، بل كان يتولد من اصوات رتيبة صماء .

وكانت ورائى ادغال البرقوق الشائك المتشحة بالسواد ، وخشخشت اوراقه الخريفية التى دب فيها الجفاف مثل صفائح معدنية ، وصرّت الاغصان الناشفة وهى تحتك بعضها ببعض ، وكان شخصا لا يُرى يشحذ منجلا صدئا .

كانت رعشة تخترق فقارى لكل صوت يصدر عن هذا المسن غير المنظور . كنت اشد عنقى حتى الايلام كى لا انظر صوب الادغال . ولكن ، لما هوى الوتد على حين غرة ، وانهار فى انين اصم لم اعد اطيق صبرا وادرت راسى .

فوق كتلة الاوراق التى زادتهـــا الظلمات كثافة برزت اغصان جافة ، بعضها حاد مثل الخناجر والآخر مزدوج يشبه المذارى . فبدت لى كاسلحة فلاحين قد نصبوا كمينا . وتمثل ذهنى المجزرة الوحشية التى راح شبابنا ضحيتها تمثلا صاعقا ، فأطلقت صيحة واسلمت ساقى للريح .

كانت الريح تعصف فى اذنى وتخفق فى ثنيات قميصى ، فخيل الي انى اسمع دوي مطاردة ، ولهاث جماعة تريد ان تقتص منى ولن تلبث ان تدركنى .

اندفعت بادئ الامر الى الحقول ، ثم انعطفت بحدة وعدوت نحو نارنا . وما ان مس الوهج الاحمر المنبعث من النار قدمى حتى تبخر الخوف غير تارك فى نفسى اثرا . كنت فى بيتى ،

فليس مسكن الانسان سقفا واربعة جدران ، ولكنه المكان الذى لا يحس فيه نفسه وحيدا فى مواجهة العالم كله . فوجود كائن حبيب ، وضوء نار ودفئها جعل من مزقة سهب مكشوفة مسكنا لى .

فى تلك اللحظة تذكرت انى رجعت دونما وقود . ووجبت العودة . ولكن ، اترانى اجد الشجاعة لذلك ! لو ان جدتى شجعتنى على الاقل ، لو انها وبختنى ! اقتربت منها وركعت قربها واخذت يدها .

— اسمعى يا ستى . . .

احسست ان بردا غريبا يتسرب من يدها ويمر فى يدى . لمست وجهها وعنقها ، هززتها من كتفها ، فى لطف بادئ الامر ، فى حذر ثم فى ضراوة فظة .

— افيقى ، يا ستى . . .

ولم ترد جدتى علي .

احسست احساسا غامضا ان هذه الدميـــــة المتجلدة ، الخرساء ، المتيبسة التى تشبه جدتى ، ليست اياها ابدا ، وان جدتى الحقيقية بطيبتها وعنايتها ودعابها وضعفها وغضبها انما هجرتنى ، واختفت . . . فوجدتنى فريسة لوعة قاتلة ، اصرخ :

— يا ستى يا ستى ، اين انت ؟

وركضت نحو القرية . لماذا ؟ لست ادرى . قد اكون انما انصعت الى الغريزة التى تدفع الانسان ، فى الفواجع ، الى ان يجتمع بالناس ولكن ، لما وجدتنى بين المنازل الغافية ، التى تستحم فى ضوء القمر ، فتبدو نوافذها وكأنما كساها الجليد ، فهمت فجأة ان احدا هنا لا يهمه موت غجرية عجوز فى السهب القريب .

شعرت فجأة بانى منهوك ، فتراميت عنـــد قدمى سياج ونمت . وايقظنى البرد الواخز . كان الفجر قد طلع ، ومعه هبط ضباب كثيف على الارض مثل بخار يتصاعد من قدر حليب يغلى ، وبين طياته الكثيفة اختفى العالم المحيط كله ، الا الكنيسة ، بقبابها وناقوسها ، فكانت معلقة فوق الضباب .

لم تكن هذه الكتلة الحليبيـــــة جامدة . كانت تتلوى وتتململ ، وبقع ضاربة الى الحمرة تظهر ثم تذوب . وسمعت ضجة غريبة ، مثل وقع خطى جمهور غفير . وفجـأة انقلبت سحابة من الضباب الى راس مفلطح لثور ذى قرنين اسودين ، لامعين ، املسين ، حادين مثل سكينتين ، ثم بدا عنق كثيف له لغد سمين : ثور عملاق مر من قربى ، وهــو ينفخ فى وجهى انفاسه الحارة . لكننى حتى لم اتزحزح . كنت اعرف آنئذ ان غجريا صغيرا على هذه الارض الشريرة قد تتراءى له اشياء من الغرابة بحيث يحسن به الا يصدق حتى عينيه .

وراحت البقع الحمراء فى الضباب تتسع وتكبر وتفسح المجال لبقرات حمراء من ابقار خولموغورى ذات الوبر الرطب والقرون المتباعدة ، وسمعت اصوات نساء ولفح سوط راع وقرقعته .

لم اعد اميز بين الحقيقة والسراب الذى تبدعـــه مخيلتى واوهامى ، ومع ذلك فقد كان ما اراه قطيعا يسوقه الراعى . والتصقت بظهرى الى السيـــاج ، لان الحيوانـــات كادت تطؤنى . . .

وعدت الى الحقل فى اثر القطيع . وتبدد الضباب سريعـــا مترسبا فى اعماق الحفر والاخاديد .

وتقدمت فى وجل نحو المكان الذى كانت جدتى مسجاة فيه . كانت عيناها مفتوحتين ، ونظرتها كانما تقول : كيف تركتنى وحيدة وسط الليل ؟ فخنقنى الخجل ، وتقدمت ، منكس الراس ، فى خطوات وئيدة ، واخذت جدتى من يدها . كانت متجمـــدة ثقيلـــة . وبدا لي ان جدتـــى قد ماتت مرة اخرى بالنسبة لي . فانكفات على الارض وانخرطت فى البكاء ، واهرقت كل ما فى عينى ، عينى الطفل الذى كنته من دموع قرب جثمان جدتى .

فى هذه الاثناء بدأ ينتشر صباح صحو . وعلى الطريق كانت تمر ، كل لحظة ، عربات موسوقة بالبطيخ وبالذرة وبعباد الشمس . فاذا حاذتنا توقفت ودنا السائق فغمرنـــا ظله ، ويبقى هنيهة صامتا ثم يسأل :

— من هذه ؟

— جدتى .

وتتبع الجواب «آ — ا» مديدة . ثم يسوط الرجل رجله بعرق صفصاف يستخدمه فى الهش على حصانه ، ويعود الى عربته . ثم «حا» كسلانة وصرير لا يقل كسلا ينبعث من العربة التى تبدا التحرك ثم يخمد انين العجلات رويدا رويدا .

احنقتنى لامبالاة هؤلاء الناس . فغدوت منذ ذلك الحين ، اذا سألنى احد «من هذه ؟» اجبت «لا احد» . ويخيم صمت ، تتبعه لحظة تفكير ثم صوت غليظ : «جرو ذئب» . ويمضى الرجل فى حال سبيله . قد اكون انما اشبه حقا وصدقا ، جرو ذئب يكشر عن انيابه . ولكن المؤسف اننى لم اكن قادرا الا على الهمر وما بى قدرة على العض .

فى منتصف النهار حملت عربة رجالا بدينين ذوى أهمية ، حزرت انهم السلطات المحلية . ولبثوا هنيهة ينظرون الينا من غير ان يسألونى شيئا . ثم قال احدهم :

— يجب ان يقبرها غالوشكا فى مقطع الطين .

وسأل آخر :

— والولد ؟ الى أين ؟

— الولد ؟ الى الملجا .

ما هذه المصيبة ايضا ؟ لم اكن اعلم ما معنى ملجأ ، ولكننى ما كنت انتظر خيرا من ناس هذه الناحية .

وذهبوا فبقيت وحدى من جديد . وتعود عجلات العربات الى الصرير . وبين حين وآخر كان يغمرنا ظل رجل فاسمع السؤال الممل يمليه فضول كسول : «من هذه ؟» والزم الصمت فينسحب الظل راضيا عن صمتى رضا الآخرين عن جوابى .

وبدات الشمس دافئة ثم اخذت تلتهب مذهبة يدى جدتى ووجهها ، ثم بردت ، واخيرا امست كرة بلون التوت وغاصت هناك فى آخر الدنيا . وجاء المساء ومعه الخوف .

حاولت ان ابكى ولكن دموعـى كانت قد نضبت . وكان الالم كانه حبس فى صدرى ، واردت ان اجعل له مخرجا . فطفقت اصرخ .

— سد حلقك ! — قالها فجاة صوت غليظ كانما ينبعث

من برميل . وسكتُ لتوى . واذا انسان مثل المسمار منتصب فوقى . كان من الهزال الى درجة انه لا يعكس ظلا ، فكانت اشعة الشمس الغاربة تنزلق حول قامته العجفاء . كان محجراه الغائران يصنعان بقعتين سوداوين على وجهه الاسمر الطويل . قال :

– تفطسون ، وانا علىَّ دفنكم !

كانت تفوح منه رائحة الفودكا . يظهر انه هو غالوشكا الذى ذكرته السلطات .

قرب الطريق كانت تقف عربة ، تشبه تابوتا دون غطاء مما يستعمل فى نقل الروث . وانحنى غالوشكا فرفع جسد جدتى ورماه فى العربة ، وادار نحوى وجهه الذى يشبه وجوه العميان وقذفنى بكلمة موجزة :

– اصعد !

وذهبنا فى اتجاه مقطع الطين . كان راس جدتى يصطدم بصندوق العربـــة فزلقت يدى على الجانب لكى اخفف من الصدمات .

– ش – اش – ش ، يا ابليس .

ووقفت العربة على شفا جرف طينى . كيف ننقل جثمان جدتى الى اسفل ؟ امرنى غالوشكا بالنزول . واعتمد بكتفه على العربة فامالها فوق الجرف ، فسقطت جثة جدتى فى الهوة . اصطدمت بالنتوءات البارزة وتواثبت ثم انزلقت على الطين الرخو . واخيرا سمعت صوتاً اشبـــه بالطرطشة . وقذف غالوشكا رفشه فى الهوة وامرنى ان اتبعه .

لما بلغت قاع الهوة كان قد حفر حفرة قليلة العمق . فى القاع كانت الظلمة اقل كثافة مما توقعت . كان نور متحرك آت لست ادرى من اين يرتعش هناك . وقد اتاح لى ان اميز جثة جدتى التى كانت مسجاة ووجهها الى الارض ، وقامة غالوشكا الباسقة وكان آنئذ يشد يديه على الرفش . فى الاعلى ، على حافة الجرف ، لاح الحصان وحجمه لا يعدو حجم كلب صغير . وقال غالوشكا وهو يحفر الارض كارها :

– اسمع ، هل سأعمل بدلاً منك ؟

كان التراب رخوا . جعلت آخذه حفنات واغطى جدتى فى ترفق وحذر . واما غالوشكا الذى اوهنه الكحول فقد كان يحفر فى رخاوة . كان الصمت مخيما . وفجأة سمعنا من قلب الصمت صرير العربة . لم يعد شبح الحصان الصغير يبدو عند قمة الجرف . وعوى غالوشكا :

– ش – ش – ش !

واطلق سبابا ومد لى الرفش .

– حينما تنتهى من دفنهـــا احمل الرفش حالا الى منزل تسيبولنكو ، البيت الثانى من مدخل القرية .

وراح يتسلق فى سرعة ولما بلغ منتصف الطريق التفت الىَّ صائحا :

– اذا ضيعت الرفش اقتلعت لك رأسك !

وزحف جسده الطويل على سفح الجرف ثم غاب وراء نتوء .

ورحت اردم قبر جدتى . ها هى ذى آخر ضربة رفش . ولكن طرف تنورتها يظهر من تحت كتـــل التربة الخصبة ، فاستره برفش ثم بآخر . ويخيل الىَّ ان هذا كل ما فى الامر . لا : كانت قدم جدتى التى تنتعل حذاء باليا تبرز من الارض . انا اعرف العد حتى ثمانية، واقذف ثمانية رفوش نحو هذه الناحية . ويختفى الحذاء ، ولكن عند قدمى تماما كان يتمدد منديل راس من الصوف لا يغطى التراب الا بعضه . واقذف رفوشا ، اقذف واقذف ، وكلما جهدت جاءت النتيجة سيئة ، كانما تخرج جدتى من تحت الارض . هـــا هى ذى يدها ذات الاصابع المقوسة ، وها هى ذى خصلتها البيضاء تخرج .

لم يكن فى ذلك شىء خارق ؛ كل ما فى الامر انى لم اكن قويا بما يكفى لردم الحفرة كما يجب . وقد تبلّد عقلى من التعب والجوع والوحشة فما كنت اصنع الا ان انقل التراب من مطرح الى آخر . فى ذلك الوقت لم افهم ذلك ، كنت اظن ان جدتى لا تريد ان الحدها ، فتركت الرفش وصعدت . كانت الظلمة مخيمة . فى الغرب فقط كانت السماء غارقة فى حمرة قانية كانما صب عليها هناك دلو من الدم .

الى ايـن اذهب ؟ االى القريـــة حيث ينتظرنى الضرب

وتمزقنى الكلاب ؟ لا . ابدا . ثم ، انى تركت الرفش فى قاع الهوة ، ولم يكن لى حيل لكى انزل من جديد وآخذه . وقد قال غالوشكا انه مقتلع راسى . . . قصدت السهب . . . مشيت طويلا واذا انـــا امام بيدر قش . افقت مع الصباح على شيء يخزنى فى جسدى كله ، كان القش والسنابـــل الفارغة قد وخزتنى من راسى الى قدمى . نزعت قميصى ونظفت جسمى ونفضت ثيابى ، حينئذ رأيت غليون بارو شيرو الذى سقط عند قدمى . . . لقد بقى طوال الوقت على صدرى ومع ذلـــك نسيته تماما . اثار وجه بارو شيرو الكريه فى نفسى اشمئزازا جعلنى اضرب الغليون بقدمى ضربة رمته بعيدا منى .

ومع ذلك فما كنت قادرا على التخلى عن هذه التحفة . اخذته من جديد ومسحته بطرف قميصى وتذكرت فى تلـــك اللحظة كلمات زوج امى . كان يقول ان التبغ يسكت الجوع . وحشوت الغليـــون بتبن القمح ورحت «ادخن» . كنت انفخ الغليون فى مهارة فيتطاير منه التبن كانه سحابات الدخان . ولكن هذا التدخين احدث فيّ عكس ما كنت اتوقع ، ذلك لان رائحة الخبز الخفيفة التى تند عن التبن ايقظت فيّ جوعـــا وحشيا . ودسست الغليون فى عبى وجررت نفسى الى قرية اخرى تقع على بعد خمسة كيلومترات من موضعى ذلك .

كانت انغام النواقيس المهيبة تنتشر فى الفضاء . كان اليوم يوم الاحد . والناس يتقاطرون خيوطا دقيقة نحو مدخل كنيسة صغيرة بيضاء ، برج ناقوسها ازرق سماوى ، تنتصب على رابية فى وسط القرية .

سلكت شارعا مقفرا تموج فيه روائح الطعام اللذيذة . لم يكن السكان كلهم فى الكنيســـة فربات البيوت يعملن فى شؤونهن : كنّ يخبزن الفطائـــر والشطائر والرقاق و«سد الحنك» من اجل مائدة الاحد . لا ، ما كان عليّ ان اسلك هذا الشارع وانا على مثل ذلك الجوع . كنت حينا اشم العبـــق الكثيف المنبعث من فطير الحنطة السوداء ، الثقيل ، الدسم ، القادر على ان يحشو المعدة جيدا ، وحينا آخر كان منخراى يلتهمان رائحة فطائر الجبن ذات الحموضـــة الخفيفة . هذه

الفطائر ، يجب قذفها من يد الى يد ثم دفعها بعد ذلك فى الفم . . . ثم ان بخار الفطائر المقلية بالزبدة لاحقنى زمنـــا طويلا . وتخلصت منه حينما تعلقت فى عالم آخر ، عالم الطيوب التى تنبعث من فطير الكرنب ، هذه الفطائر الصغيرة المذهبة التى تجعلها خفتها الفائقة تذوب تحت اللسان ذوبانا .

ولم اعد اطيق هذا العذاب ، فدنوت من نوافـــذ منزل تضوع منه الرائحة المغرية الى حد لايطاق المنبعثة من الفطائر المقلية . كانت ربة البيت مشمرة عن تنورتها منهمكة امام الفرن المشتعل وذراعاها العاريتان فى غدو ورواح تحركان الشوك الكبيرة والمقابض . فجاة لمحت على كرسى عال ، قريبا جدا من النافذة ، صحفة ملأى بالفطائر الخارجة من الفرن وقد رش عليها الطحين .

اختبـــأت خلف النافـــذة . أيكلف الاغنيـــاء كثيرا ان يعطوا ولدا صغيرا جائعا فطيرة صغيرة ؟ ولكننى لم اجرؤ على الشحاذة : قد تغضب أو ، انكى من هذا ، قد تطلق كلابها . لما مالت ربة البيت الى الفرن بكل جذعها لتخرج منه قدرا ، اخذت فطيرة ودسستها فى صدرى ، ولكنهـــا احرقتنى فوضعتها تحت ابطى .

ايفتقر هؤلاء الناس الاغنياء اذا اخذ غجرى صغير منهم فطيرة اخرى ؟ ذهلت عن كل مقتضيات الحذر ، فخرجت من خلف النافذة واخذت فطيرة ثانية ، ثم ثالثة . . ولما مددت ذراعى كى آخذ الرابعة التفتت ربة البيت بغتة وضربتنى بجناح الاوزة الذى يستعمل للتكنيس امام الفرن . كانت فيه عظمة ثقيلة جعلتنى الضربة أتسمّر فى مكانى . وخرجت ربة البيت بقفزة واحدة ، حمراء ، متوهجة تشبه هى ذاتها الفطائر التى كانت تقليها ، وقبضت على قبتى وسحبتنى .

فى هذه الاثناء امتلات الشوارع بالناس . كان القداس قد انتهى ، وعاد القرويون الذين تذوقوا النعمة الالهية الى بيوتهم لكى يتلذذوا بالمآكل الارضية . لم يصرفهم شيء عن الاهتمام بشخصى المسكين ، لا الصلوات التى رفعوهـــا الى السماء ، ولا الاحساس المسبق بلذة الماكولات الوفيرة التى

تنتظرهم . كانوا يصغون ، منتبهين ، الى شروح ربة البيت الصارخة ، ثم يمضون فى سبيلهم ، وقد ازدادوا ايمانا بعدالة الخالق الذى خصهم باطايب الماكول والمشروب وخصنى بتحمل العقاب .

وزاد فضول القرويين الحفى المراة الصياحة غضبا . وبلغ جرمى مبلغا فظيعا . فانا ما نهبتها وكدت احولها الى شحاذة فحسب بل كنت احاول ان اضرم النـــار فى المنزل واسرق الخيل . . . ولم يعن احد بما اذا كان ولد فى الثامنة من عمره قادرا على ان يحقق بطولات من هذا النوع .

واخيرا دخلنا منزلا مترفاً ، الاسرة فيه متحلقة حول مائدة مثقلة بالاطعمة الفاخرة . ودفعتنى المراة الى الامام اخذت تشرح لهم جرمى فى صوت عال . واضافت ان من العبث ضرب الغجر ضربا مبرحا ، يجب قتلهم عن بكرة ابيهم . . .

خيل الي انى اعرف رب البيت الذى تخاطبه المراة . رأيت هذا الوجه السمين من قبل ، هذين الشاربين كانهما مطليان بشحم الخنزير ، هاتين العينين الزيتيتين . اليس هو الذى بعث بغالوشكا ؟ ولكن هذه قرية اخرى . كان واضحا ان كل هذه الاشداق الشبعة متشابهة .

وسحب الملعقة من فمه وقربها من عينيه ثم لحسهـــا واراحها على المائدة . قال للمرأة :

— عودي الى فرنك يا غوربينا ، سنرسل الولد الى الملجا .

وذهبت المراة غير راضية على ما خيل اليّ . كانت تامل دون ريب ان تنزل بى عقوبة اشد قسوة . واستنتجت ان الملجا ليس افظع ما يقدر هؤلاء الناس السريعون الى العقاب على اختراعه .

ومضت الاسرة تحشو نفسها بالغداء . تذكرت الفطائر التى عرفت كيف احافظ عليها ، فسحبتها من قميصى وهممت بالاكل ، واذا رب البيت ينهض عن المائدة دون ان ينطق بكلمة وينتزع الفطائر من يدى ويقذف بها فى وعاء القمامة . ومسح يديه ببنطلونه وعاد الى المائدة .

لما فرغت الاسرة اخيرا من الغداء صرّح لى بأنهـــم سياخذوننى الى الحبس .

واحتججت خجلان بأنى وددت لو اخذونى الى الملجا . فلم يرد علىّ احـــد . اخذنى السيد من كتفى وفتلنى ثم ضربنى بركبته فى اسفل ظهرى والقى بى خارج الغرفة . واستخدم الطريقة ذاتها لكى يقودنى الى الفناء . ووصلنا الى مبنى مصمت يشبه العنبر . تحت سقيفته كانت نافذتان صغيرتان عليهما قضبان .

وفتش السيد فى جيب سرواله الفضفاض واخرج حزمة مفاتيح فتح بأحدها الزنزانة . وبعد ان دفعنى الى داخلها اقفل الباب بالمفتاح وذهب على مهـــل . وخف وقع اقدامه ثم غاب تماما .

كان اسم المكان الذى احتجزونى فيــــه يجعلنى اخاف امراً مشؤوما . وجدتنى فى محـــل عادي ولكنـــه فارغ ، وعلى الارض كانت حزم من القش متناثرة . وفى اشعة الشمس التى تتسلل من النافذتين الصغيرتين يدوّم الغبار .

ولم تمض لحظة حتى اكتشفت انى لست النزيل الوحيد فى هذا السجن . فى احدى الزوايا كان ينام فتى طويل يبدو انه فى حوالى السابعـــــة عشرة من عمره ، وقد اندس فى القش . كان ممددا وذراعاه على وجهه . لم اكن ارى الا شفتيه اللتين تزحف عليهما ذبابة ، وذقنه المغطى بالنمش . كانت الذبابة تدغدغه فيحرك شفتيه فى نومه على نحو مضحك . ونفخت على الذبابة . فانتفخت مثل تنورة سيدة غنية تعصف بهـــا الريح ، ولكنها لم تغادر موقعهـــا . عندئذ حركت يدى فوق وجهه ، ولكن الذبابة بقيت على عنادها ، فاخذتنى الحماسة فصدمت يدى وجه الفتى فى قسوة . واذا هو يستيقظ حالا ويجلس القرفصاء ناظرا اليّ بعينين محملقتين .

تراجعت : كان شعر الفتى احمر ناريا ، الى حد لا يتصور ، ووجهه مزروع بالنمش المتعدد الاشكال والالوان بصورة لم ار لها فى حياتى مثيلا : فعلى ارضية مذهبة من البقع الصغيرة التى تكون حقلا متجانسا كانت بقـــع اخرى صغيرة ايضا ، اكثر

قتامة ، كما لو انك رششت قطرانا من خلال منخل ناعم جدا . كانت هذه الزركشة تمنعك من ان تميز سماته . ولم اكتشف الا فيما بعد ، حينما ألفت منظره ، ان له انفا مستقيما فيــه انحناء خفيف ، وجبهة عالية ذات نتوئين ، وعينين خضراوين ضاربتين الى الحمرة بسبب رموشه الحمراء والكثة جدا .

ولكننى لم ارَ كل هذا الا فيما بعد . فى اللحظة الاولى لبثت مبهورا كانى حدقت فى الشمس . فى الايام الاخيرة قيض لى ان ارى من حين لآخر اناســا ذوى منظر مدهش : بارو شيرو ، غالوشكا . . . هذا ايضا كان شيئا فريدا فى نوعه . وكانت نفسى منهوكة امام هذا النوع من الانفعالات القوية . واذا هى توهنها هذه العجيبة الجديدة من عجائب الطبيعة .

— إى ، قل ، أتعجبك فيزيائى ؟

هكذا سالنى الفتى وهو يتمطى مبتسما .

لم اكن اعلم ما معنى كلمة «فيزياء» ولكننى تكهنت بما يسالنى ، فاومات اليه بنعم من رأسى . فقال بغرور :

— وكيف لا ؟ لا يرى الانسان هذا كل يوم يا صاحبى .

واومات بنعم أخرى .

— من انت ؟ بلطجى ؟

وددت لو وافقت من جديد ولكننى خشيت ان اتورط فى خطأ فقلت فى غير كبير ثقة :

— ل — لا .

واستدار ثم اخذ كسرة من الخبز الاسود ووعاء فيه لبن . وبعد ان نفخ الذبابات والغبار التى سقطت فيه حمل الوعاء الى شفتيه . فى هذه اللحظة وقع بصره مصادفة عليّ ، ويبدو انه لاحظ فى عينى بريق الجوع . فازاح الوعاء عن فمه وبعد ان بحث عند رأسه سحب من القش طاسة كبيرة من المعدن الابيض وامال عليها الوعاء وافرغ نصفه ثم نظر اليّ متسائلا ، وافرغ نصف ما بقى ، ومضت لحظة افرغ بعدها الوعاء كله ونقر على قعره . وقال وهو يشير الى الطاسة والخبز :

— كل يا فتى ، كل .

فلما رآنى لا أسرع الى الانصياع اضاف :

— انا لست جائعا . هنا لا يبخلون بالمأكل .

لم يقل الحقيقة . تحققت من ذلك حينما احضروا لنـا العشاء : وعاء من الحليب وكسرة من الخبز لكل . لم يكن هذا كافيا حتى لطفل فكيف بفتى ضخم مثل جاري .

ولكننى فى تلك اللحظة صدقت كلامه ، فاكلت كل الخبز وشربت كل اللبن . كان يضحك فرحا ، ملء حنجرته ، وهو يرى اللبن الحامض ينقط على ذقنى ويسيل على قميصى . ثم فجأة توقف عن الضحك وقال فى رثاء :

— كم انت جائع !

وفتح قلبى لهذا الانسان المجهول ، اول انسان بدا لى طيبا نحوي عن صدق . ولم يعد منظره الخارجى يرهقنى . على العكس . كان يسليني ان انظر فى وجهه المزركش وخصلاته النحاسية اللون .

رويت له قصتى كلها ، فجعل يصغى وحاجباه المرسومان رسما جيدا يقطبان قرب انفه . ولما انهيت قصتى قال :

— فى هذا العمر الغض ورايتَ كل هذا ! أهكذا يعامل طفل ؟ !

واطبق قبضته مهددا شخصا غير منظور وغمغم :

— آه ، الاوغاد ، الاوغاد . . .

وبعد ان فكرت قليلا فهمت ان هتفته الاخيرة كانت موجهة الى كل اولئك الذين كانوا اشرارا نحوى وشجعنى ذلك فسألته فيم وجوده فى الزنزانة . فاجاب صديقى الجديد فى هدوء :

— قتلت وغدا من الاوغاد .

— ق — قتلت ؟ !

— اترى يا فتى ، كنت اشتغل فى هذه النواحى صبى مزرعة ، عند كولاك ، افعى لا اراك اللـــه ! ذات يوم دخلت المخزن لآخذ مسحاة . فى هذه اللحظة بالضبط كان المعلم يحاسب غابوتشكا ، صبية المزرعـــة ، وهى طفلة فى حوالى الثالثة عشرة من عمرها . كانت هى التى تقوم بشغل المنزل كله : تغسل الارض ، تكسر الحطب ، ترعى الاوز ، تجلـب الماء . . . وهو يخدعها . كانت تبكى ، المسكينة ، وتتوسل

اليه ان يدفع اليها ما لها بذمته . واما هو . . . هو . . . هذا الحيوان النتن فقد اراد ايضا ان يلوثها . قال لها «ادفع لك اذا انت . . .» عموما انت اصغر من ان تفهم هذه القذارات .

ولكنى انا ، الغجرى الصغير ، فهمت جيدا ما لم يفصح عنه صديقى .

— كانت الطفلة هناك ، ترتعش مثل ورقة تعصف بها ريح الخريف ، تستر وجهها براحتيها الصغيرتين . قلت وانا اصر بأسنانى : «اذهب يا فيدور فاسيلييفتش ، اذهب اذا كنت تريد السلامة» . وهو ايضا كان مسعورا من الغضب ، فهجم عليّ . اخذت وزنة من الحديد يستعملهـــا فى وزن القمح وناولته على يافوخه . . .

— قتلته ؟

— لا ، كان قويا . لم يفطس ولكنـــه بقى مسمرا فى السرير .

— وانت ، وضعوك فى الحبس ؟

— لا ، لم تحزر . لم يسمح بذلك . كان شيطانا شرها شحيحا . اتفهم ؟ كان يهمـــه الربح اكثر من اى شىء آخر ، فاجبرنى على العمل بلقمتى . وشقيت كثيرا قبل ان يفطس . فلما فطس زجونى هنا . ولن يلبثوا ان ينقلونى الى سجن حقيقى .

انهى جملته الاخيرة فى شبه افتخار .

— الست خائفا ؟

— ومم اخاف ؟ ساهرب .

— والى اين تهرب ؟

— الحكاية بسيطة جدا . حينما يسوقوننى الى الحبس اهرب وانضم الى الفرسان الحمر . واروح معهم فنقطع بالسيوف رؤوس الكولاك كلهم والاغنياء .

— ولكن من يسمح لك بهذا ؟

— من يسمح لى به ؟ انا لن اطلب الاذن من احد . سآخذ سيفا مسنونا وانط فوق حصان سريع وهات يا ضرب !

ووثب على قدميه ، وعيناه تشعان وهجاً وطفق يضرب الهواء بسيفه المتخيل ، مطلقا صيحات ما . وسألت :

— ومن هم هؤلاء الفرسان الحمر ؟

فانقطع فجاة عن الحركة وحملق فى كانما افلتت منى كلمة فاضحة البلاهة . وما هى الا دقائق حتى تيسر له ان يسبر قاع جهلى .

ان ما كان يعلمه اى ولد فى مثل سنى لم يبرح منزله ، سواء على شاطئ بحيرة بايكال او فى ابعد قرية على الفولغا ، كنت اجهلـــه انـــا ، الغجرى الصغير الذى قطعت آلاف الكيلومترات . وللمرة الاولى علمت منه ما هى ثورة اكتوبر والحرب الاهلية والجيش الاحمر .

هذا بينما كنت قد رأيت آثار المعارك القريبة ، وشممت رائحة القرى التى شبت فيهـــا الحرائق . . . رائحة الحرب الحادة ، واخيرا فقد سبق لى ان سمعت عدة مرات كلمـــة «حرب» . كل هذا صحيح . ولكننى كنت اتوهم ان «الحرب» حادث من نوع العاصفة او الاعصار .

وافهمتنى احاديث صديقى الجديد ، الحارة ، المشوشة والحماسية المقنعة ، افهمتنى على شكل جديد ما سبق لى ان رايته وعشته .

فهمت ان الناس لا ينقسمون الى غجر وهم الابرار ، وكل الآخرين وهم الاشرار . اولم أرَ فى مخيم بارو شيرو غجرا اشقياء ساقوا بابناء جلدتهم ذاتهم الى الموت ؟ لقد رأيت ناسا طيبين بين الاوكرانيين والروس ، منهم عمال المناجم الذين لم يبخلوا علينا قط بالصدقة حينما كنا نمر بأرضهم التى سوّدها الفحم ، والمرأة التى اوشكت ان تجبرنى على اخـــذ الكرنبة ، واخيرا هذا الفتى الاحمر الذى تنازل لى عن غذائه واخذ بيدى مشجعا فى حنان . كل هؤلاء الناس الاجواد الذين لم يسألونى لقاء ما قدمت ايديهم من خير عوضا — لا ضرب مندل ، ولا غناء ، ولا رواية اكاذيب تثير الرثاء — كلهم فقراء . اذن فالعالم لا ينقسم الى غجر ولا غجر ، وانمـــا الى اغنياء وفقراء . ولاول مرة فى حياتى وعيت اخوة الفقراء . وكذلك

فهمت ان الفقراء ثاروا على الاغنياء . ولكن هؤلاء لا يريدون ان يتزحزحوا عن سلطتهم فنهضوا لمحاربة الفقراء . ومهما يصنع الاغنياء فانهم لا محالة هالكون .

وبعد ذلك حينما أويت للنوم رحت أتصور المستقبل الرائع الذى سيكون للغجر اذا قيض للفقراء ان ينتصروا . رايتنى اسرق فطيرة صغيرة فلا يضربنى احد على يدى ، وربة البيت تبتسم لى حنونا وتهددنى باصبعها . لا احد يطرد الغجر ، واينما يحلوا يروا الحفاوة ، تقدم اليهم الاعطيات السخية ، وحتى اذا حدث وساق مخيم معه خيل الآخرين ، لم يلق الا مرحمة وطيبة وغفرانا .

ولكن صديقى الأحمر الذى رويت له احلامى صباح اليوم التالى انفجر ضاحكا :

– يا لك من جاهل ، لن يسرق احد حينئذ احداً ، سنكون نحن السادة على الارض . فهل يسرق الانسان نفسه ؟

هذا الكلام كان غير واضح لى ، ولكن لم يتح لى ان استمع الى ايضاحات لان الباب فتح على مصراعيه . ظننت انهم حملوا الينا غذاءنا . لا ، لقد اقبلوا فى طلب صديقى .

بُهت . لم استشعر عمرى مثل هذا الانقباض الغريب فى القلب . حينما فقدت جدتى كان الخوف على نفسى هو الذى يسد على السبل . واما الآن . . . الآن كنت اتعذب من اجل رفيقى . ولاول مرة عرفت ان حبنا لحياة انسان آخر قد يكون اقوى من حبنا لحياتنا نحن .

ووضع يديه الكبيرتين القويتين على كتفيّ :

– وهكذا يا اخى ، انا ذاهب ابحث عن حقيقتى . وانت اياك ان تستسلم ، قاوم ، عض على اسنانك وقاوم . ان حقيقتك انت آتية ايضا ، من كل بد . هيا وداعا .

وانحنى واسند خده الى خدى .

لذت بالصمت ، عاجزا ان اعبر عن العاطفة التى تملكتنى بهذه القوة غير المفهومة .

وكان قد اصبح قرب الباب حينما تذكرت الكنز الوحيد الذى املك – غليون بارو شيرو . هرعت اليه .

– هاك ، خذ !

فصاح متعجبا وهو يتامل الغليون مشغوفا :

– اوه ، اوه ! يا لها من سحنة !

– هذا بارو شيرو . . .

– آ . اذن فهو هكذا ، هذا الحبوب ! هذه تحفة قيمة تستطيع ان تبيعها اذا اصابك عسر . ستظفر حتما بثمن ممتاز .

– لا ، هذا لك . . . أنا ، لك . . .

هكذا كنت اتمتم وقد نسيت فجأة كل الكلمات الروسية التى اعرفها .

– لا ، ماذا تقول ! . . .

وصبغت وجهه الحمرة حتى غدا له لون شعره ، وقال :

– انا لا ادخن ، يا صغيرى .

ثم اضاف هامسا :

– حسن ، شكرا يا أخىّ . . .

وفتش نفسه ، جس جيوبه آملا عبثا ان يقدم اليّ هدية هو ايضا . وتنهد ثم ابتسم ودسّ الغليون فى جيبه .

وصاح صوت كسول :

– ماذا ، سننتظر طويلا ؟

– وداعا يا أخىّ ! . . .

ورايت لآخر مرة شعلة شعره الحمراء ، وصفق الباب وخيل اليّ ان ضوءا انطفأ فى الحبس .

تمددت على القش حيث لا يزال الاثر الغائر الذى صنعه جسده فيه دافئا ، واستسلمت لحزن جديد ، لم اعرف له مثيلا من قبل . . .

وعشت فى القرية قرابة شهر اعمل مياوما عند الرجل الذى وضعنى فى الحبس . ولكننى لم انجح فى ان اتسقط شيئا من اخبار صديقى . ثم ان امى عثرت عليّ فذهبت صحبتها . . .

ساروى ، ذات يوم ، كيف وجدت الحقيقة التى كلمنى عليها الفتى الأحمر . لم اجدها انا وحدى بل قبيلتى المتشردة كلها . لم تسلك من اجل هذه الحقيقة سبيلا مستقيمة واحدة

بل مسالك المخيمات المتشابكة المختلطة، وغالبا ما كنا نتخبط في اثرنا ذاته، هذا الأثر الذى لا يفضى الى شىء كما نعلم.

كانت النيران الشاحبة المشعشعة فى السهب تضىء سبيلنا التى تمر بغابات وتقطع انهارا، عبر آكام ووديان، متحاشية المدن والقرى، والضواحى. وقد يظهر غجر فرادى فى المدن والقرى، ولكن المخيم كان يتحاشاها جميعا. ومع ذلك، فان النور العظيم الذى اضاء البلاد السوفييتية كلها لم يدعنا نتحاشى حقيقتنا.

وجدناها فى قلب مقاطعة سمولنسك، فى اول مزرعة تعاونية غجرية. وساقص عليكم كيف ولد عند الغجر حس الوطن، حس المكان والادراك بأن الارض التى وطئناها طوال سنين عديدة باقدامنا وخددناها بعجلات عرباتنا دون ان نبالى بها، انما هى المطعمة الساقية، ينبوع الحياة والسعادة.

فى ذلك الحين لم تكن حياتى تختلف فى شىء عن حياة اى فتى قروى. انهيت دراستى فى المدرسة الابتدائية، وقد اوفدتنى المزرعة، بما اظهرته من استعداد للتمثيل، الى مدرسة درامية، كما كانت توفد الرفاق الذين هم فى سنى لكى يصبحوا مهندسين زراعيين واطباء وخبراء فى الحيوانات واطباء بيطريين.

وعشية الحرب كنت قد اصبحت ممثلا فى احد مسارح العاصمة وفى نيسان ١٩٤٢، العهد الذى اعود الى سرد قصتى ابتداء منه، كنت فى رتبة رقيب اول فى طاقم رشاشات.

كانت وحدتنا تشغل خطا دفاعيا على ضفة نهر كبير فى الشمال، وكانت وراءنا مدينة الثورة العظمى * وامامنا جزيرة صغيرة يحتلها العدو.

واطلقنا على هذه القطعة من اليابسة التى تبدو وكانما لحمت بالجليد لحما، اسم «جزيرة الشيطان» وسماها

* المقصود هنا نهر نيفا ومدينة لينينجراد. **المعرب**.

خصمنا «الملعونة». وكانت هذه الجزيرة تضايقنا جدا، لان نارها لم تكن تنال خطنا الامامى وحده بل الخطوط الخلفية القريبة ايضا، وكانت سببا فى انقطاع مطرد يصيب مؤننا وذخائرنا بين حين وآخر، وفشلت محاولتان قمنا بهما لزحزحة الهتلريين عنها. وعرفنا، فيما بعد، سبب هذا الصمود. كانت القيادة الالمانية تعطى الجنود، الذين يتحملون البقاء فى هذه الجزيرة خمسة عشر يوما على التوالى، اجازة اضافية يقضونها فى الوطن. وكان الاقلون هم الذين يظفرون بهذه الاجازة، غير ان الامل يقوى من قلوب الجنود...

كنا ننتظر امرا جديدا لانتزاع الجزيرة. ولم تكن القيادة على عجل من امرها اذ مضت تكدس الذخائر. واخيرا أزف الموعد. خلال ساعتين كاملتين كنت ترى نافورات الثلج والتراب وقطع القرميد المكسر، وحطام الخشب والمعدن تتطاير فوق الجزيرة. ولكن، ما ان وضعنا اقدامنا على الجليد حتى استقبلنا العدو بنار من نيران الجحيم. وعلى الرغم من هذا، فقد انتزعنا، هذه المرة، «جزيرة الشيطان»، مهاجمين.

ومنح كثير من الجنود والضباط الذين اشتركوا فى هذه المعارك اوسمة وميداليات.

وقد جرت حفلة توزيع الاوسمة فى قبو ثكنة قديمة اتخذتها اركان فرقتنا مقرا. هناك رأيت، للمرة الاولى عن قرب بعض قادتنا الكبار ومن بينهم قائد مدفعية الجبهة، الجنرال المجيد (ى) الذى اعرب لنا عن عرفانه فادركنا ان ما فعلناه كان مهما لا من اجل وحدتنا وحدها، وكتيبتنا وفرقتنا بل من اجل الجبهة كلها، من اجل المدينة العظيمة.

لما انهى الجنرال (ى) خطابه انتحى جانبا واخرج من جيبه غليونا. وحشاه، وهو يمهد التبغ بابهامه على مهل ثم اشعله فى تلذذ ونفث فى الفضاء سحابة صغيرة زرقاء ومع ارتفاع هذه السحابة انطلقت نفسى حالمة.

كانت طفولتى الرهيبة، المهانة البائسة، الغالية مع

ذلك ، تنظر اليَّ بعينى بارو شيرو الاسطوريتين ، كان الجنرال (ى) يمسك بغليون بارو شيرو ، غليونى الذى كنت اهديته للفتى الأحمر . كنت على يقين من انه لا يوجد فى العالم كله غليون آخر ، شبيـــه بهذا . كان طرفة فريدة صنعتها يد فنان ، بناء على طلب من رئيس مخيم الاشقياء الذى اراد تخليد وجهه الغريب المرعب .

ولكن كيف وقع هذا الغليون بين يدى الجنرال ؟ كنت احدق فيه تحديقا ملحا . كانت عمرة الجنرال تتيح رؤية فوديه الفضيين ، أما صورته الجانبية التى تبدو كأنما نقشت على ميدالية ، فلا تشبه الفتى الذى صادفته فى طفولتى ولا سيما ان بشرة وجهه التى لوحتها شمس الشتاء وريحه كانت نظيفة تماما . وقد يكون الزمان قادرا على تبديل الملامح واحالة لون الشعر ، ولكنه أعجز من ان يطفئ الى هذا الحد الوان هذا الوجه الفريد فى نوعه ! فهمت بطلان فرضياتى جميعا : اى صلة بين هذا الجنرال المشهور وذلك العامل الزراعى الذى اعطانى فى سجن القرية كسرة من الخبز ووعاء من اللبن الحامض ؟ ولكن هذا كله لم يخفف من رغبتى فى معرفة السبيل التى سلكها الغليون حتى وقع فى يد الجنرال .

واحسست ، فى قوة جديدة ، الى اى حد يعز علي هذا الصديق البعيد الذى كان اول من كشف لى عن طيبة العالم الاوسع واضاء روحى الطفلية بحلـم عن الحقيقــة الانسانية الكبيرة . هذا الغليون قد يتيح لى ان اعلم ما جرى له ؟ ولكن هل كنت استطيع ، انا الرقيب الأول ، ان اسأل جنرالا : «ايهـــا الرفيق الجنرال ، من أين لك هذا الغليون ؟ . . .»

لما عدت الى وحدتى لاحظ رفاقى علي امارات الفكر ، وكما يحدث فى مثل هذه الاحوال ، طفقوا يتكهنون شتى انواع التكهنات حولى . وسألنى الملازم غريتسنكو ، قائد فصيلتنا ، متلطفا :

— فيم انت حزين يا رفيقى ، لماذا انت كئيب ؟

سبق لى ، ذات ليلة من ليالى لينينغراد البيضاء ، ان

رويت لرفاقى قصة طفولتى المتشردة . وهكذا لم يكلفنى شرح حالى لقائدى كثيرا من الكلام . قال غريتسنكو :

— المسالـــة جدية . يجب ان ترى الجنرال . لا تهزّ راسك . ساهيئ لك ذلك بنفسى .

لـم يواتنى الحظ ، فقد ترك الجنرال (ى) ، فى نفس الليلة ، الفرقـة . ثم دارت رحى معارك قاسية وظننت انى لن اعلم شيئا عن مصير الغليون ابدا . ولكن ذات يوم ، وقد كففت عن الانتظـــار ، هرع غريتسنكو الى مخبئنـــا وقال لى :

— استعد يـا ناروجنى . سنذهب لمقابلـة الرفيق الجنرال . لقد دبّر لنا مرافقه ذلك . . .

— كيف هذا ، حالا ؟

هكذا سالته مرتاعا . لم اكن اتصور ان اتقدم من الجنرال فى هذا الهندام . كنا قد خرجنا لتونا من معركة وكنت ابعد الناس عن الاناقة . . .

ونظر غريتسنكو فى ساعته :

— سيكون اللقاء فى الساعة السابعة عشرة تماما . معك ساعة تقريبا .

وساعدنى رفاقى فى اصلاح شأنى . احضرنـــا ثلجا نظفنا به بنطلون وسترة واحد منا كانا أقل رثاثة ، وتركناهما يجفان على النار بينما رحت احلق ذقنى واصبغ جزمتى . ثم وضعت بطانة ياقة نظيفة ولبست ثيابى وهى لا تزال رطبة . وثبت غريتسنكو بنفسه وسام «النجمة الحمراء» على صدرى .

. . . كان الجنرال (ى) يجلس على مقعد امام منضدة ريفية غاصة بالخرائط والاوراق ، ويقرأ فى كتاب . كنت ارى الفرق الدقيق الذى يفصـــل من الجنب شعره الابيض المسرح . وفى يده اليسرى كان الغليون مطفأ ، وبدا كأن عينى بارو شيرو الصغيرتين تحاولان ان تفكا رموز الاشارات المصطلحة فى الخريطة العسكرية التى تستريح عليهـا يد الجنرال .

بدا لى اننى ارتكبت اثمـــا بتعكير هدوء هذا الانسان

السادر . وفي صوت خافت غير واثق جعلت انطق بالعبارات العسكرية التقليدية . واغلق الجنرال كتابه ووضعه جانبا . قال وهو يدس يده في جيبه ، في حركة معتادة ، ليخرج كيس التبغ :

– ابسط امرك أيها الرفيق الرقيب الاول .

كنت ارقب حركاته مأخوذا . لاحظت ان طرف الغليون كان جديدا . لا بد ان هذا الغليون عانى الكثير ولكنه ، بعامة ، معتني به ، كان في حال حسنة جدا وحوافيه ناعمة لم يقرضها التبغ . ونفخ الجنرال الغليون ونفضه قبل ان يشعله . ثم قدح قداحته وعب الدخان عميقا .

– هيا ، ما بالك . . . ماذا تنتظر ؟

تخلل صوته اللامبالي نوع من نفاد الصبر .

كنت افتش عن الكلمات حتى اهب سؤالي شكلا رقيقا مهذبا ، ولكنني لم اجد شيئا فقلت في لهوجة ادهشتني انا نفسي :

– ايها الرفيق الجنرال ، من اين اتاك هذا الغليون ؟

ورفع رموشه البيضاء ذات النهايات الضاربة الى الصفرة واخرج الغليون من فمه . كنت احس ، من الطريقة التي ينظر اليّ بها ، انه يفتش عني في ذاكرته لكي يكشف عن السبب في سؤالي الغريب . ولكن يبدو ان جهوده كانت عبثا . واطفأ غليونه بابهامه الخشنة وقال لي في لهجة لا تخلو من جفاف :

– ولكن لماذا تريد ان تعرف ذلك ؟

لذت بالصمت اذ اصبحت عاجزا فجأة امام اللغز الذي طرحته عليّ الحياة . ولما لم يسمع مني جوابا ، وحتى دون ان يلاحظ ذلك ، مضى يتأمل الغليون بهذه النظرة التي ينظر بها الانسان الى اشيائه الاليفة التي تخفي في طياتها حدة الذكريات البعيدة وقال ، مفكرا ، كأنه يتحدث الى نفسه :

– لهذا الغليون قصة طويلة . . .

ورددت انا مثل الصدى :

– اجل . . . اجل . . . قصة طويلة . . .

ورماني الجنرال بنظرة جديدة . سددها اليّ كما يسدد قناص على الهدف .

– منذ زمان بعيد ، قدم اليّ غجري صغير مسكين هذا الغليون هدية . . .

– قرب تشوباروفسكايا . . . في حبس القرية . . .

أصابني ما يشبه الدوار . وقمت بخطوة الى الامام بصورة غريزية .

وانّ المقعد ، ونهض الجنرال بحدة وراء منضدته . غاض الدم من وجهه فكأنما أخذ معه طبقة السمرة البنية ، فظهرت على بشرته الشاحبة بقع النمش الصغيرة الحمراء واضحة بينة .

وهتف الجنرال :

– يا أخي . . .



البلوطة الشتوية

طمس الثلـــج الذى سقط ليلاً معالـم الدرب الضيق المؤدى من «اوفاروفكا» الى المدرسة ، فلم يعد من الممكن تخمين اتجاهه الا بالظل الضعيف المتقطع على الغطاء الثلجى الباهــر . وسارت المدرّسة تنقل بحذر قدمها ذات الحذاء الصغير المحلى بالفراء وهى على استعداد لسحبها على التو اذا ما خدعها الثلج .

كانت المسافة الى المدرسة لا تزيد على نصف كيلومتر ، فاكتفت المدرسة بالقاء معطفها الفرو القصير على كتفيها ، وغطت رأسها بمنديل صوفى خفيف . وكان الصقيع شديدا ، وعلاوة على ذلك هبت الريـح وراحت تنزع الثلج الطازج من فوق الأرض وتهيله عليها من راسها الى قدميها . بيد ان هذا كلـــه كان يعجب المدرسة ذات الأربعة والعشرين عاما . كان يعجبها ان الصقيع يقرص انفها وخديهـــا ، وان الريح تنفذ الى ما تحت معطفها فتلسع جسدها ببرودتها .

وحينما كانت تدير وجهها لتتقى الريح ترى خلفها الآثار الكثيرة لحذائها المدبب ، التى تشبه آثار حيوان ما ، فكان هذا ايضا يعجبها .

كان هذا اليوم المنعش العامر بالضوء من ايام يناير يوقظ فيها الافكـــار البهيجة عن الحياة وعن النفس . لقد جاءت الى هنـــا منذ عامين فقط بعد التخرج مباشرة ، وعلى الفور اكتسبت شهرة المدرس الماهر الخبير للغة الروسية . واصبحت معروفـــة وتحظى بالتقدير فى كل مكان . فى اوفاروفكا وفى كوزمينكى وفى تشورنى يار وفى بلدة عمال استخراج الفحم النباتى وفى مزرعة الخيول ، وكانوا يخاطبونها احتراما باسمها واسم ابيها : آنّا فاسيليفنا .

من الاتجاه المقابل سار نحوهـــا شخص عبر الحقل . وفكرت آنّا فاسيليفنا برهبة مرحة : «ماذا لو لم يشأ ان يفسح لى الطريق ؟ الدرب لا يتسـع لاثنين ، ولو خطوت جانبا فساغوص فى الثلج فورا» . ولكنها كانت تعرف بينها وبين نفسها انه لا يوجد فى الناحية كلها شخص يمكنه الا يفسح الطريق لمدرسة اوفاروفكا .

وتحاذيا . كان ذلك فرولوف ، المراقب بمزرعة الخيول . ورفع فرولوف عمرتـــه فوق رأس قوى قصير الشعر وحيا :

– صباح الخير يا آنّا فاسيليفنا !

– دعك من هذا ، البس عمرتك حالاً ، الصقيع شديد !

وربما كان فرولوف نفســـه يريد أن يدفن راسه فى عمرته بسرعة ، لكنـــه تباطأ الآن عمداً ، رغبة منه فى ان يظهر لها انه لا يأبه بالصقيع . وكان معطفه القصير من فرو الخراف مشدودا جيدا على جسده الممشوق الخفيف ، وفى يده سوط رقيق اشبه بثعبان ، كان يضرب به على حذائه اللباد الأبيض ، المثنى تحت الركبتين .

وسألها فرولوف باحترام :

– كيف ابنى ليوشا . . الا يتشاقى ؟

فاجابت آنّا فاسيليفنا بوعى منها لخبرتها التربوية :

– طبعا يتشاقى . جميع الاولاد الطبيعيين يتشاقون . المهم الا يتجاوز ذلك الحدود .

وضحك فرولوف ضحكة قصيرة :

– ليوشا ابني وديع ، مثل ابيه تماما !

وتنحى عن الطريق ، فغاص فى الثلج حتى ركبتيه ، واصبحت قامته بطول قامة تلميذ فى الصف الخامس . واومات له آنا فاسيليفنا بتسامح ، ومضت فى طريقها . . .

كان مبنى المدرسة ذو الطابقين والنوافذ العريضة التى زخرف الجليد زجاجها يقع قرب طريق السيارات ، خلف سور منخفض . وكان الثلج من المبنى حتى الطريق متورداً بفعل انعكاسات الجدران الحمراء . وقد شيدت المدرسة على الطريق بعيدا قليلا عن اوفاروفكا لأن التلاميذ كانوا يأتونها من الناحية كلها : من القرى المجاورة ، ومن بلدة مزرعة الخيول ، ومن مصنع عمال النفط ، ومن بلدة عمال استخراج الفحم النباتى البعيدة . والآن تتقاطر نحو بوابة المدرسة من كلا جانبى الطريق جداول صغيرة من القلنسوات ومناديل الرأس والعمرات والطواقى والبرانس .

– مرحبا يا آنا فاسيليفنا .

كانت هذه التحية تتردد كل ثانية ، تارة رنانة واضحة ، وتارة مكتومة لا تكاد تسمع من تحت التلافيع والمناديل الملفوفة حتى الأعين .

وكان الدرس الاول اليوم لآنا فاسيليفنا فى الصف الخامس الأول . وقبل ان يسكت الجرس الثاقب الرنين معلناً بداية الدروس دخلت آنا فاسيليفنا الصف . ونهض التلاميذ معاً وحيوها ، ثم جلسوا فى اماكنهم . ولم يستتب السكون على الفور ، اذ صفقت ادراج المقاعد وصرّت الأرائك ، وزفر أحدهم بصوت عال ، وهو يودع ، فيما يبدو ، مزاج الصباح الصافى .

– اليوم سنواصل شرح أقسام الكلام . . .

سكن الصف حتى بات مسموعا صوت شاحنة ثقيلة تزحف على الطريق وعجلاتها تدور على الفاضى .

وتذكرت آنا فاسيليفنا كيف تملكها الاضطراب قبل الدرس الأول فى العام الماضى مثل تلميذة قبيل الامتحان ، وراحت تردد فى سرها : «الاسم هو ذلك القسم من اقسام الكلام . . . الاسم هو ذلك القسم من اقسام الكلام . . .» ، كما تذكرت ذلك الخوف المضحك الذى عذبها : وماذا لو انهم لم يفهموا مع ذلك ؟ . .

ابتسمت آنا فاسيليفنا لذكرياتها ، وسوت الدبوس فى حزمة شعرها الثقيلة ، وبدأت تقول بصوت هادئ منتظم ، وهى تشعر بهدوئها وكأنه الدفء يتسرب فى جسدها كله :

– الاسم هو ذلك القسم من اقسام الكلام الذى يدل على ذات . والذات فى النحو هى ما يمكن السؤال عنه بـ : ما هذا او من هذا . مثلاً : «من هذا ؟» – «تلميذ» او «ما هذا ؟» – «كتاب» . . .

– ممكن أدخل ؟

فى الباب الموارب وقف صبى صغير ، فى حذاء لباد قديم لمعت عليه حبات الجليد الذائبة . كان وجهه المستدير الذى الهبه الصقيع يشتعل بالحمرة ، كأنما طلي بالبنجر ، بينما بدا حاجباه أشيبين تحت القطرات المتجمدة البيضاء .

– مرة ثانية تتأخر يا سافوشكين ؟

كانت آنا فاسيليفنا ، كمعظم المدرسات الشابات ، تفضل ان تبدو صارمة ، لكن سؤالها تردد الآن كشكاية تقريبا . . .

اعتبر سافوشكين سؤال المدرسة اذناً بدخول الصف فاسرع يمرق الى مكانه . ورأت آنا فاسيليفنا الصبى وهو يدس كيسه المشمع فى الدرج ويسأل جاره عن شيء ما دون ان يحول وجهه نحوه ، لا بد انه يسأل : ماذا تشرح المدرسة ؟

استاءت آنا فاسيليفنا من تأخر سافوشكين كحادث مزعج افسد عليها النهار الذى بدأ بداية موفقة . وكانت مدرسة الجغرافيا ، تلك العجوز الصغيرة الجافة الشبيهة بفراشة ليلية ، قد اشتكت اليها من تأخر سافوشكين . وعموما فقد كانت كثيرة الشكوى ، تارة من الصخب فى

الصف ، وتارة من عدم انتبـــاه التلاميذ . وقالت العجوز متنهدة : «ما أصعب دروس الصباح الأولى !» . فقالت آنّا فاسيليفنا آنذاك في سرها بثقة في النفس : «نعم ، صعبة على من لا يعرف كيف يسيطر على التلاميذ ويجعـل الدرس شيقا» ، واقترحت عليها أن تتبادلا مواعيد الدروس . وها هي الآن تشعر بنفسها مذنبة في حق العجوز التي كانت نافذة البصيرة بمـــا يكفي لكي لا ترى في عرض آنّا فاسيليفنا المهذب تحديا او تأنيبا .

وقالت آنّا فاسيليفنا مخاطبةً التلاميذ :

– كل شيء، مفهوم ؟

فاجاب الاطفال في صوت واحد :

– مفهوم . . مفهوم . .

– حسنا ، اذن هاتوا امثلة .

ساد سكون مطبق لبضع ثوان ، ثم قال أحدهم بنبرة غير واثقة :

– قطة .

– صح .

قالت آنّا فاسيليفنـا وتذكرت على الفور انه في العام الماضي ايضا كانت «القطة» أول مثال يذكر . وهنا تدفقوا كالطوفان :

– نافذة ! طاولة ! منزل ! طريق !

وراحت آنّا فاسيليفنا تردد : صح ، صح . . .

كان الصف يمور بالفرح . وادهشت آنّا فاسيليفنا تلك الفرحة التي كان الاطفال يذكرون بها اسماء الاشياء المعروفة لديهم ، وكأنما يتعرفون عليهـــا في دلالتها الجديدة غير العادية . وراحت دائرة الامثلة تتسع ، لكن الاولاد ظلوا في الدقائق الاولى لا يخرجون عن نطاق الاشيـــاء الاكثر قربا وملامسة : عجلة . . جرار . . بئر . . عش . . .

ومن المقعد الخلفي ، حيث يجلس فاسياتكا البدين تردد صوت رفيع لحوح :

– مسمار . . مسمار . . مسمار . .

وها هو أحدهم يقول بصوت متردد :

– مدينة .

فأمّنت آنّا فاسيليفنا مستحسنة :

– مدينة . . هذا حسن !

وعلى الفور تدافعت صيحات :

– شارع . . مترو . . ترام . . فيلم . . .

فقالت آنّا فاسيليفنا :

– كفى ، أرى أنكم فهمتم .

سكتت الأصوات عن غير رغبة ، ما عدا فاسياتكا البدين ، فقد ظل يدمدم «مسماره» الذي لـم يحظ بالقبول . وفجأة نهض سافوشكين من مقعده ، وكأنما استيقظ من النوم ، وصاح بصوت رنان :

– بلوطة شتوية !

وضحك الأطفال .

فدقت آنّا فاسيليفنا براحتها على الطاولة قائلة :

– صمتا !

– بلوطة شتوية !

ردد سافوشكين وهو لا يلاحظ ضحك رفاقه أو صيحة المدرسة . قال ذلك بلهجة مختلفة عن لهجة الأولاد الآخرين . انطلقت الكلمات من قلبه كاعتراف ، كسرٍ بهيج لم يكن قلبه المترع قادرا على كتمانه .

وقالت آنّا فاسيليفنا بانزعاج لم تقو على اخفائه وهي لا تدرك سبب انفعاله الغريب :

– ولماذا شتوية ؟ بلوطة وكفى .

– بلوطة وكفى – لا شيء ! البلوطـة الشتوية – هذا هو الاسم !

– اجلس يـــا سافوشكين ، هذه نتيجـــة التأخير . «البلوطة» اسم ، امـــا «الشتوية» فهذا ما لم ندرسه بعد . تفضل بالمرور عليّ في غرفة المدرسين اثنـــاء الفسحة الكبيرة .

وضحك احدهم في المقعد الخلفي ضحكة خافتة وقال :

– تلك هى البلوطة الشتوية !

وجلس سافوشكين وهو يبتسم لأفكار ما طافت بذهنه دون ان تؤثر فيه ابدا كلمات المدرسة المتوعدة . وفكرت آنّا فاسيليفنا فى نفسها : «صبى صعب» .

واستمر الدرس .

– اجلس . . – قالت آنّا فاسيليفنا لسافوشكين عندما دخل غرفة المدرسين .

وجلس الصبى باستمتاع فى المقعد الليّن واهتز عدة مرات على زنبركاته .

– هلا اوضحت لى لماذا تتأخر دائما ؟

– انا نفسى لا اعرف يا آنّا فاسيليفنا – وباعد بين يديه كما يفعل الكبار – اننى اخرج قبل الدرس بساعة كاملة .

ما أصعب الوصول الى الحقيقة فى اتفه الأمور ! كثير من الاولاد يسكنون أبعد كثيرا من سافوشكين ، ومع ذلك لا يتفق ايّ منهم اكثر من ساعة فى الطريق .

– هل تسكن فى كوزمينكى ؟

– لا ، بجوار المصح .

– ثم لا تخجل من ان تقول انك تخرج قبل الموعد بساعة ؟ من المصح الى طريق السيارات حوالى خمس عشرة دقيقة ، ومن الطريق الى المدرسة نصف ساعة لا اكثر .

قال سافوشكين بلهجة من ادهشته هذه المسألة :

– انا لا أسير عبر طريق السيارات . انا اتبع طريقا مختصرا ، عبر الغابة طوّالي .

فصححته آنّا فاسيليفنا بحكم العادة :

– «على طول» وليس «طوالى» .

شعرت بالاضطراب والأسى كما هى الحال دائما عندما تواجه بكذب الاطفال . ولزمت الصمت مؤمّلة ان يقول سافوشكين : «سامحينى يا آنّا فاسيليفنا ، استغرقت فى اللعب بكرات الثلج مع الأولاد» أو شيئا من هذا القبيل ، بسيطا ، لا مكر فيه . لكنه ظل يتطلع اليها بعينين رماديتين

واسعتين ، وكأنما نظرته تقول : «ها قد استوضحنا الأمور ، فماذا تريدين بعد منى ؟»

– هذا مؤسف يا سافوشكين ، مؤسف جدا ! سيكون عليّ ان اتحدث مع والديك .

فقال سافوشكين مبتسما :

– ليس عندى سوى أمي يا آنّا فاسيليفنا .

احمرّ وجه آنّا فاسيليفنا قليلا . وتذكرت ام سافوشكين ، «منظفة الحمامات» كما كان يدعوها ابنها . كانت تعمل فى مستوصف المياه المعدنية التابع للمصح . امراة نحيلة ، مرهقة ، بيدين بيضاوين ورخوتين من اثر المياه الساخنة وكأنهما من قماش . كانت وحدها ، بدون زوجها الذى استشهد فى الحرب الوطنية ، تربى وتعول ثلاثة اطفال غير كوليا * .

الواضح ان لدى ام سافوشكين ما يكفى من الهموم .

– سيكون عليّ أن اذهب الى والدتك .

– تعالي يا آنّا فاسيليفنا ، ستكون امي مسرورة جدا !

– للاسف ليس لدي ما يسرها . هل أمك تعمل صباحا ؟

– كلا ، تعمل فى الوردية الثانية ، من الساعة الثالثة .

– عظيم . انا افرغ فى الثانية . بعد الدروس تصحبنى اليها . . .

كان الدرب الذى قاد سافوشكين المدّرسة عبره يبدأ بعد فناء المدرسة الخلفى مباشرة . وما ان دلفا الى الغابة والتأمت اغصان الشوح الثقيلة المحملة بالثلج خلف ظهريهما ، حتى انتقلا على الفور الى عالم آخر مسحور تلفه السكينة والصمت . كانت طيور العقعق والغربان وهى تطير من شجرة الى شجرة تهز الغصون وتطيح بالاكواز ، واحيانا تمس باجنحتها الغصون الجافة الهشة فتكسرها . ولكن شيئا لم يكن يلد الاصوات هنا .

* كوليا تدليل من الاسم الكامل : نيكولاى ، وهو اسم الصبى ، اما «سافوشكين» فهو لقبه . **المعرب** .

كان البياض يكسو كل شيء . وفى الأعالي فحسب يحيط السواد بقمم البتولا الباكية الشاهقة التى تلفحها الريح ، وتبدو الغصون الدقيقة وكأنها مرسومة بالحبر الصينى على صفحة السماء الزرقاء .

كان الدرب يسير بحذاء غدير ، تارة موازيا له ، ومتابعا فى انصياع جميع تعرجات المجرى ، وتارة اخرى يصعد عاليا ويمضى ملتويا فوق الجرف الحاد .

وكانت الاشجـــار تنفرج أحيانا ، كاشفة عن فسحات مشمسة مرحة تملؤهـــا آثار الأرانب التى تشبه سلسلة ساعة . وظهرت آثـــار كبيرة ، على صورة ثلاث وريقات لحيوان ما كبير الحجم . وكانت الآثار تتجه الى قلب الغابة ، إلى الدغل الكثيف .

- ابو القرون مر من هنـــا . . . - قال سافوشكين وكأنما يتحدث عن صديق طيب عندما راى آنّا فاسيليفنا تهتم بهذه الآثار . واضاف ردا على نظرة القتها المدرسة نحو اعماق الغابة - لا تخافى ، الأيل حيوان وديع .

وسالته آنّا فاسيليفنا بحماسة :

- وهل رايته ؟

- الأيل نفسه ؟ حيا ؟ - وتنهد سافوشكين - لا ، لم تسنح فرصة . لكنى رايت جوزه .

- ماذا ؟

- بعره . - قال سافوشكين على استحياء .

ومرق الدرب من تحت قوس صفصافة محنية ، وانحدر من جديد نحو الغدير . وفى بعض الاماكن كان الغدير مغطى بلحاف ثلجى سميك ، وفى اماكن اخرى متشحا بدرع جليدية نقية ، واحيانا وسط الجليد والثلج كانت تحدق المياه الحية بعين قاتمة شريرة .

وسالت آنّا فاسيليفنا :

- ولماذا لم يتجمد كله ؟

- لان فيه ينابيع دافئة . انظرى ، اترين هذه النافورة ؟

انحنت آنّا فاسيليفنا فوق الحفرة فرأت خيطا دقيقـــا

يتصاعد ممتدا من القاع . وقبل ان يصل إلى سطح المياه يتفجر فقاعات صغيـــرة . وكانت هذه الساق الدقيقة ذات الفقاعات أشبه بزهرة سوسن الوادي .

وقال سافوشكين بتحمس :

- ما اكثر هذه الينابيع هنـــا ! الغدير حى حتى تحت الثلج .

وازاح الثلـــج فظهرت من تحته مياه سوداء كالقطران ولكنها صافية شفافة .

ولاحظت آنّا فاسيليفنا ان الثلج اذ يسقط فى المـاء لا يذوب ، بل يتكاثف بسرعـــة ، ويتعلق فى الماء خيوطا خضراء رخوة كالأعشاب المائية . واعجبها ذلك لدرجة انها راحت تهيل الثلج فى الماء بطرف حذائها وتفرح عندما تتشكل من كتلة ثلج كبيرة أشكال غريبة التكوين . واستهوتهـــا اللعبة فلم تلاحظ على الفور ان سافوشكين سبقها مبتعدا ، وجلس ينتظرها فوق غصن متفرع عال مدلى فوق الغدير . ولحقت آنّا فاسيليفنا بسافوشكين . فى هذا المكان تلاشى تاثير الينابيع الدافئة ، فكان الغدير مغطى كله بغشاء جليدى رقيق . وعلى سطحه المرمرى تراقصت ظلال خفيفة سريعة .

- انظر ، ما ارق الجليد هنا ، حتى ان التيار يظهر .

- ماذا تقولين يا آنّا فاسيليفنـــا ! انا الذى حركت الغصن فتراقصت الظلال .

ولم تحر آنّا فاسيليفنا جوابـــا . يبدو انه من الأفضل لها هنا ، فى الغابة ، أن تلزم الصمت .

وعاد سافوشكين يسير أمام المدرسة منحنيا قليلا وهو يتفحص المكان حوله بانتباه .

وراحت الغابة تقودهما ابعد فابعد عبر طرقهـــا المعقدة الملتوية . وبدا انه لن تكون هنـــاك نهاية لهذه الاشجار وهذه الاكوام الثلجية ، وهذا السكون ، وهذا الغسق الذى تتخلله اشعة الشمس .

وعلى غير انتظار ضوت عن بعد فرجة زرقـــاء دخانية . وحلت غابة خفيفة محل الغيضة ، واصبح المكان رحبا ومنعشا .

وها هي الفرجة تصبح في الأمام فتحة عريضة غارقة في ضوء الشمس ، ولمع هناك شيء ما وبرق ناشراً نجوما جليدية .

دار الدرب ملتفا حول خميلة بندق ، وبعدها على الفور تراجعت اشجار الغابة في جميع الانحاء . وفي وسط الفسحة انتصبت بلوطة ضخمة ومهيبة كالمعبد ، في ثياب بيضاء براقة . وبدا كان الاشجار تراجعت في احترام ، لكي تمكن شقيقتها الكبرى من الانطلاق بكل قواها . وامتدت غصونها السفلية فوق الفسحة كالخيمة . وامتلأت تجاعيد لحائها العميقة بالثلج ، فبدا جذعها الغليظ الذي يبلغ محيطه ثلاثة ابواع ، وكانما قد خيط بخيوط فضية . ولم تكن اوراقها التي جفت في الخريف قد تساقطت تقريبا ، فتغطت البلوطة حتى قمتها باوراق مغلفة بالثلج .

– اذن فها هي ذي البلوطة الشتوية !

تقدمت آنا فاسيليفنا بوجل نحو البلوطة ، فهز حارس الغابة الجبار السمح احد غصونه هزاً خفيفاً مرحبا بها .

لم يكن سافوشكين يدري بما يجيش في نفس المدرسة وهو يسعى هناك اسفل البلوطة ، ويتعامل دون كلفة مع صديقه القديم .

– انظري يا آنا فاسيليفنا !

ونزع بجهد كتلة ثلجية ملتصقة من اسفلها بالطين وببقايا عشب متحلل . وهناك في الحفرة استقرت كرة مغطاة باوراق شجر عطنة ، رقيقة كخيوط العنكبوت . واطلت من بين الأوراق اطراف إبر حادة ، فادركت آنا فاسيليفنا أن ذاك قنفذ .

– انظر كيف تغطى !

وغطى سافوشكين القنفذ بلحافه البسيط بعناية . ثم حفر الثلج عند جذر آخر ، فظهرت مغارة صغيرة للغاية تتدلى من سقفها خيوط جليدية كالهداب . وهناك استقرت ضفدعة بنية اللون ، كانها صنعت من الكرتون ، وبدا جلدها المشدود بقسوة على هيكلها وكانه مطلي باللك . ولمس سافوشكين الضفدعة فلم تحرك ساكنا .

فضحك سافوشكين قائلاً :

– تتظاهر بانها ميتة ، ولكن ما ان تدفئها الشمس حتى تهب قافزة !

ومضى يجول بآنا فاسيليفنا في عالمه الصغير . وكانت قاعدة البلوطة ماوى لكثير من السكان الآخرين : الخنافس والأبراص والهوام . كان بعضها يختبئ تحت الجذور ، والبعض الآخر ينحشر في شقوق اللحاء . وكانت تغالب الشتاء في سبات عميق وقد هزلت حتى بدت وكانها خاوية من الداخل . كانت هذه الشجرة القوية المترعة بالحياة تجمع حولها كل هذا الدفء الحي ، حتى ان الدواب المسكينة ما كانت لتجد لنفسها مسكنا أفضل . وكانت آنا فاسيليفنا تجيل النظر باهتمام فرح في الحياة الخفية للغابة ، المجهولة لها حينما سمعت هتاف سافوشكين المنفعل :

– اوه ، تاخرنا ولن نجد ماما في البيت !

واسرعت آنا فاسيليفنا بالنظر في ساعتها . . كانت الساعة الثالثة والربع . واحست وكانما وقعت في فخ ، وسالت في سرها البلوطة ان تغفر لها لجوءها الى تخابث انساني صغير وقالت :

– هكذا يا سافوشكين ، ان هذا لا يعني سوى ان الطريق القصير ليس بعد هو أسلم الطرق ، سيكون عليك ان تسير عبر طريق السيارات .

ولم يرد سافوشكين بشيء بل اطرق راسه فقط .

«يا إلهي – فكرت آنا فاسيليفنا بعد ذلك بالم – أهناك اعتراف بالعجز أوضح من ذلك ؟» . وتذكرت درس اليوم وجميع دروسها الأخرى . . كم كانت تتحدث بفقر وجفاف وبرودة عن الكلمة ، عن اللغة ، عن ذلك الذي بدونه يصبح الانسان اخرس امام العالم وعاجزا عن الاحساس – عن لغة الوطن ، الطازجة ، الجميلة ، الغنية كغنى الحياة وجمالها .

وكانت تعتبر نفسها مدرسة ماهرة ! ربما لم تخط خطوة واحدة على ذلك الدرب الذي لا تكفيه حياة انسان كاملة . ثم اين هو هذا الدرب ؟ ليس العثور عليه سهلاً ولا بسيطا

كالعثور على مفتاح الصندوق المسحور . ولكنها في تلك الفرحة غير المفهومة لها ، والتي كان الأولاد يصيحون بها كلمات «جرار» ، «بئر» ، «عش» لمحت بصورة مبهمة أول بارقة .

— طيب يا سافوشكين ، شكرا لك على هذه النزهة . بالطبع تستطيع السير من هذا الطريق أيضا .

— الشكر لك يا آنّا فاسيليفنا !

وتضرج سافوشكين . فقد اراد ان يقول للمدرسة أنه لن يتأخر بعد اليوم أبداً ، لكنه خشي الا يبر بوعده . ورفع ياقة سترته ، واغمد رأسه أعمق في الطاقية ، وقال :

— سأوصلك .

— لا داعي يا سافوشكين ، سأعود وحدي .

نظر الى المدرسة في شك ، ثم التقط من الأرض عوداً وكسر طرفه الأعوج ، وناوله لآنّا فاسيليفنا .

— اذا اعترضك أبو القرون اضربيه على ظهره وسيهرب فوراً . ولكن الافضل ان تلوحي مهددة ، فهذا يكفيه ! والا فقد يغضب ويهجر الغابة نهائيا .

— حسنا يا سافوشكين ، لن اضربه .

بعد ان ابتعدت آنّا فاسيليفنا قليلا ، التفتت لتلقى نظرة اخيرة على البلوطة ، البيضاء المتوردة في حمرة الشفق ، فرأت عند قاعدتها شبحا صغيرا أسود : لم يكن سافوشكين قد انصرف ، وظل من بعيد يحرس مدرسته ، وفجأة أدركت آنّا فاسيليفنا ان أروع ما في هذه الغابة ليس البلوطة الشتوية ، بل ذلك الانسان الصغير ، في حذائه اللباد البالي وثيابه الفقيرة المرتقة ، ابن الجندي الشهيد في سبيل الوطن و«منظفة الحمامات» ، ذلك المواطن المدهش والملغز للغد الآتي .

ولوحت له بيدها ، ومضت ببطء على الدرب المتعرج .



العريس

من العجوز التي نقلته بالقارب عبر نهر «برا» عرف فورونوف أن العثور على صياد مرشد في «بودسفياتيي» مسألة صعبة . كانت عجوزا طويلة ، ممشوقة ، ذات ساقين قويتين في حذاء مشمع برقبة قصيرة ، وسترة سميكة بلون الكاكي تلف باحكام كتفيها العريضتين المستديرتين ، ورغم ان الوقت صيف فقد كان رأسها مغطى بطاقية شتوية عسكرية تحجب شعرها الأشيب . وعندما كانت تحول وجهها الصغير المجعد عن فورونوف وهي تدفع القارب بالعود ، كان يتملاها بسرور . لقد راف الزمن بقوامها ، بيد أنه شوّه يديها ، فاصبحت اصابعها ملتوية كالخطاطيف ، مبقعة ، اما وجهها المليء بالتجاعيد فقد حافظ الزمن فيه على عينين سوداوين لامعتين ببياض مائل الى الزرقة . ومضت العجوز تقول باقبال على الكلام ، بينما تتلاعب عيناها الحيتان اللتان لم ينطفئ نورهما :

– تأخرت قليلا . قبل موسم الصيد بيومين لن تجد هنا صيادا مرشداً ، فما بالك ونحن فى عز الموسم ! صحيح ، كانت الأمور فى الماضى أسهل . أما الآن فالبعض قد هجر هذا الأمر تماما ، لأن العمل فى الكلخوز أجدى . . خذ عندك مثلاً ابنى الأصغر فاسكا . . وهناك من التحق بوظيفة فى الحكومة . افضل الصيادين المرشدين يعملون الآن فى حماية البحيرة . خذ عندك مثلاً أناتولى ايفانوفتش ، ابنى الاكبر . . . لكنكم هناك فى موسكو لم تسمعوا بذلك فى الغالب . . . – لم تكن نبرة الاحتقار الخفيف التى ترددت فى عبارتها الأخيرة ، موجهة إلى شهرة ابنها المحدودة التى لم تصل الى موسكو ، بل الى جهل فورونوف .

وقال فورونوف معارضا :

– كيف لم نسمع ، أنا سمعت اكثر من مرة عن أناتولى ايفانوفتش كأحسن صياد يعتمد عليه فى هذا المجال .

فقالت العجوز بلهجة ادانة :

– ما اقل ما تعرفون فى موسكو عن ميشورا * ! أتظنون أنه ليس لدى أناتولى ايفانوفتش ما يفعله سوى مرافقة الضيوف القادمين من العاصمة ؟ انه يحمى ناحيتنا !

وسألها فورونوف :

– بماذا تنصحينني اذن ؟

كان فورونوف يعشق الصيد ، وكان يتميز بالصبر والبصر الحاد والذراع الراسخة ، لكنه لم يكن صيادا حقيقيا ، وعلاوة على ذلك كانت هذه اول مرة يأتى فيها الى ميشورا .

فأجابت العجوز وهى توجه القارب الخفيف بمهارة فى خط مائل ضد الموج :

– ليس عندى ما أنصحك به . كل ما استطيع ان اقول : حاول أن تقنع أحداً من الشيوخ ، فهم على المعاش ،

* منطقة سهلية فى وسط روسيا تشتهر ببحيراتها وانهارها وغاباتها الجميلة وبأماكن الصيد والمحميات الطبيعية . **المعرب** .

ثم انهم يحبون هذا العمل . وان كنت لا اظن انك ستجد احداً منهم .

احتك القارب الخفيف بقعر النهر وتوقف بحدة قبل الشاطئ بثلاثة او اربعة امتار . فلملمت العجوز ذيل ثوبها من امام والقت باحدى ساقيها من فوق حافة القارب ، ثم بالساق الأخرى ، وناءت بصدرها على مؤخرة القارب ودفعته الى الشاطئ .

ترنح فورونوف من صلابة الشاطئ الراسخة . واخرج من جيبه ورقة بعشرة روبلات ومدها للعجوز .

– خذ الباقى – قالت العجوز واضافت رداً على حركة احتجاج صدرت عنه – النظام عندنا هكذا . العبور – ورقة بخمسة ، المبيت – ورقة بثلاثة ، الصياد الدليل – ورقة بخمسة وعشرين فى اليوم * . . . اسمع ، جرب ان تدق باب ذلك البيت . اسأل عن الجد ، ربما استطعت اقناعه . . .

شكرها فورونوف ومضى على الشاطئ الكثبانى نحو المنزل المذكور .

فتحت له الباب عجوز تشبه تلك التى نقلته عبر النهر الى حد غريب : قوام شاب ووجه صغير مجعد بخرزتى عينين سوداوين حيتين . وكانت ملابسها مثل ملابس تلك العجوز ايضا : سترة ثقيلة بلون الكاكى ، وحذاء مشمع برقبة قصيرة ، وطاقية شتوية عسكرية عليها اثر النجمة المنزوعة منها . وقال فورونوف لنفسه مبتسما : «يبدو ان العجائز هنا يخضن حربا خاصة بهن» .

قالت العجوز :

– كلا يا بنى ، الجد لن يذهب ، انه مريض . بالأمس جاء من البحيرة الكبرى يجر ساقيه جراً .

ومع ذلك سمحت لفورونوف بدخول البيت ، حيث كان رب الدار المريض ممددا على وسائد عالية ومغطى بكوم من

* بعد الاصلاح النقدى فى عام ١٩٦١ اصبح الروبل القديم يساوى ١٠ كوبيكات والعشرة روبلات تساوى روبلاً . الخ . **المعرب** .

معاطف جلود الخراف . كان الجد نفسه مختفيا ولم يظهر منه الا طرف لحية مدببة يميل الى الصفرة من أثر التدخين .

وقال فوروونوف :

– واذا دفعت أجراً حسنا ؟

– اتسمعين يا أم ؟ هه ؟ – تردد صوت ضعيف من اعماق الفراش ، بينما ارتعش طرف اللحية الأشيب .

فصاحت الزوجة :

– اسكت ! البخار طالع من فمه ويريد أن يذهب ! – وقالت لفوروونوف بصرامة – ها أنت ترى اننا لن نفيدك ايها الرفيق العزيز .

فسألها فوروونوف بالحاح :

– وأين اذن اجد صيادا دليلاً ؟

فقالت العجوز بغضب :

– أين تجد اذا لم يكن هناك احد . لا يوجد وانتهينا !

لو ان هذا الحديث دار منذ عدة سنوات لانتهت عند هذا الحد رحلة صيد فوروونوف فى ميشورا قبل أن تبدأ . كان يميل فى السابق الى التهويل من شأن القوى المضادة فى الحياة ، وكانت كل عقبة ، ولو تافهة ، تبدو له مستحيلة التذليل . ولكن مع الزمن تولدت لديه ثقة سعيدة بأنه لا توجد فى الحياة مشاكل تستعصى على الحل ، وأن الالحاح الهادئ والواعى قادر على اجتياح اى عقبة . وسألها بصوت يكاد يكون مرحاً :

– وأين اذن اجد صيادا دليلا مع ذلك ؟

رمشت العجوز برموشها القليلة فى ذعر .

– وأين يا بنى تجده ؟ – قالت هذه المرة لا بغضب ، بل بارتباك .

فقال فوروونوف :

– ها أنذا اسألك .

طافت العجوز بنظراتها يمنة ويسرة ، كانما كان من الممكن ان يوجد هذا الصياد بالفعل فى مكان ما قريب ، الأمر الذى يعرفه عن يقين هذا الرجل القادم من موسكو .

– لا أدرى ماذا اقول لك . . ربما استطعت اقناع العريس ؟

فتناهى من تحت كوم المعاطف :

– هيهات ان يذهب العريس !

فاجاب فوروونوف بدلا من العجوز :

– سيذهب . وأين يسكن ؟

فاوضحت العجوز :

– آخر بيت الى اليسار من بيتنا . اذهب اليه يا بنى ، فربما استطعت اقناعه . ولكنه ترك عنه الصيد منذ ان تزوج .

ومن جديد تناهى من تحت المعاطف :

– لن يذهب . لن يترك زوجته !

وسأل فوروونوف :

– وما اسمه ، هذا العريس ؟

فاجابت العجوز :

– اسمه فاسكا * ، وهل له اسم آخر ؟

– لن يذهب . . – تناهى الى سمع فوروونوف وهو فى المدخل ، فاعتبر ان صمود العريس امام اغراء الكسب السهل من الصيد هو من بين معالم ميشورا التى يعتز بها السكان المحليون .

نسى فوروونوف ان يسأل على اى من جانبى الشارع تقع دار فاسكا . فاختار من بين البيتين الأخيرين ذلك البيت الذى بدا انظف ، واستقر فوق سطحه ديك حديدى ، ووضعت على نوافذه مصاريع من الخشب المحفور ، مطلية حديثا بلون ابيض . ففى بيت لطيف كهذا البيت الذى يطمح ان يبدو انيقا ينبغى للعرسان ان يعيشوا . دفع فوروونوف الباب فدلف الى مدخل كبير معتم ، تفوح منه رائحة عجل وفراش قش عطن وزبل دجاج . واختلطت بروائح المداخل المعتادة هذه رائحة لاذعة قليلا ومثيرة للحم بط برى تسلل اليه

* تصغير دارج من الاسم الكامل : فاسيلي . **المعرب** .

بعض العفن . ففي وسط المدخل تدلى من لفة حبال عنقود محترم من البُرك والحَذَف * بحزم حشائش محشـــورة فى مؤخراتها . فقال فوروونوف لنفسه : «اذا فهو لم يهجر الصيد تماما» . ونهض شاب متموج الخصلات ، عريض المنكبين ، فى سروال ركوب وقميص ابيض مشمـــر الكمين – وكان جاثياً ينجر بالفاس جذعا ما – وسأل فوروونوف عمن يريد .

فأجابه فوروونوف :

– اريدك انت .

اغمد الشاب الفـــأس فى الجذع ودلف الى الدار فى المقدمة ، وتبعه فوروونوف . وتنحى فوروونوف عند البـاب مفسحا الطريق لامرأة صغيرة الجسم تحمل فى يديها قدراً ممتلئة .

كانت دار العريس من الداخل بهيجة مثلما من الخارج . فرن مطلى حديثا بالجير ، وجدران مكسوة بورق مزركش ، وافاريز النوافذ غاصة بأصص الزهور ، وكثرة من الصور المنزوعة من مجلة «أوجونيوك» ** تغطـــى الجدران . وفى الركن بوفيه بمفرش من الدانتللا وعليـــه كوب من زجاج ملون رخيص ، ومحارتان بحريتـــان كبيرتان ثقيلتان من النوع الذى «يسمـــع فيه صخب البحر» ، واطار مكتبى به صور ، فى وسطها ، كما هى العادة ، صورة العروسين .

على الدكة المجاورة للباب جلست عجوز فى سترة ثقيلة وحذاء مشمع برقبة قصيرة ، فقرر فوروونوف انها من ضروريات بيوت ميشورا على ما يبدو . ولكنه سرعان مـــا تعرف فى العجوز على تلك المرأة التى نقلتـــه بالقارب عبر النهر ، فخمن انها أم العريس فاسكا . وعلى الدكة الاخرى المجاورة للنافذة جلست امرأة شابـــة فى منديل راس منسدل على كتفيها . وشد صدرهـــا الكبير الممتلئ تحت ثقله قماش البلوزة الخفيف .

* انواع من البط البرى . **المعرب** .

** اوجونيوك (القبس) – مجلة اسبوعية مصورة واسعـــة الانتشار . **المعرب** .

وتوجه فوروونوف نحوها بالحديث :

– فى الحقيقـــة انني اقصدك أنت . . . أتسمحيـــن لسيدك بالذهاب معى ؟

القت المرأة على فوروونوف نظرة مندهشة ، وغضـــت طرفها . كانت عيناها جميلتين جاحظتين زرقاوي البياض .

فقال فاسكا بسخرية رقيقة :

– ليس لديها سيد بعد ! انها أختى .

عض فوروونوف على شفته استياء من نفسه ، فقد كان ينبغى ان يخمن انها ليست ربة الدار . لقد كانت جالسة فى تكلف كما يجلس الضيوف القرويون ، وعلاوة على ذلك كانت تشبه اخاها شبها مذهلاً : الشعر الكستنائى المتموج ذاته ، والسمـــرة المتوردة فى الوجـــه ، ونفس العينين الساجيتين الزرقاوى البياضا . وسأل فوروونوف مخاطبا فاسكا :

– وأنت ، ماذا تقول فى اقتراحى ؟

– لا داعى لذهابه ! . . كله لعب عيال ! – صدر هذا عن تلك المرأة الصغيرة التى التقى بها فوروونوف عنـــد الباب . كانت واقفة على العتبة ، يقصر راسها عن عارضة الباب المنخفض بمسافة كبيرة ، وقد ضمـــت القدر الخاوية إلى فخذها . ولاحظ فوروونوف بينه وبين نفسه بخيبة امل ان زوجة فاسكا الجميل الشابـــة هذه تخلو من الجمال . فهى قصيرة القامة ، بوجه صغير لا ملاحة فيه ، غاص بالنمش ، وعينين بلون زجاجات الشراب . وعلاوة على ذلك لم تكن العروس شابة كالعرائس ، اذ كانت فى الغالب قد تجاوزت الخامسة والعشرين . كانت ترتدى فستانـــا عتيقا ، ضيقا وقصيرا ، وتضع فى قدميها مداساً باليا بلا كعوب . لكنها بدت قوية الشخصية ، فلم يدهش فوروونوف عندما ابتسم فاسكا فقط وباعد بين يديه رداً على ملاحظة زوجته الحادة .

واستدار فوروونوف نحو العجوز قائلاً :

– هلا ساندتنى انت يا جدتى بحق سابق المعرفة !

فاجابت أم فاسكا :

– أنا لست السيدة هنا .

لم يكن فى كلماتها احساس بالاهانة أو التحدى ، بل مجرد اقرار بحقيقة معروفة وعادلة .

الآن أدرك فورونوف ما ينبغى ان يفعله ، فقال مخاطبا زوجة فاسكا :

– هل تسمحين بكلمتين ؟

وخرجا الى المدخل . واوضح فورونوف للمرأة الصغيرة على مهل وباستفاضة انه سيأخذ زوجها لثلاثة او اربعة أيام على الاكثر ، وانه يعرف النظـــم المعمول بها فى ميشورا ، وسيدفع أجرا مجزيا لأنه رجل مشغول ولا يسمح لنفســه بالصيد الا نادرا ومن ثم فلن يبخل . واخيراً فهو ، خلافا عن الصيادين الآخرين من موسكو ، لن يمنع فاسكا من الصيد لنفسه . . .

أصغت اليه المرأة الصغيرة وهى تحرك شفتيها . يبدو انها كانت تحسب فى سرهـــا المبلغ الذى سيحصل عليه زوجها . وقد ارضتها الحسابات ، اذ ابتسمت ولمعت عيناها الزجاجيتان ، ومدت يدها الى فورونوف بحركة حماسية لا تخلو من رشاقة قائلة :

– اتفقنا !

فى كمها المنفتح لاح معصمهـــا المستدير ، الحسن التكوين ، ومرفقها المدور ، فقال فورونوف فى نفسه ، وقد جعله التوفيق متسامحا : ان فيها ثمة شيئا .

وصاحت هى بصوت حازم :

– فاسيلى استعد ! ستذهب مع الرفيق الى الصيد .

– ينبغى ان استاذن المديرة . . .

– ساخبرها انا . هى بنفسها قالت لى من فترة : ما بال جميع الرجال يستاذنون ، مـــا عدا زوجك الذى يبدو كالمربوط . . كما انى اريد تنظيف البيت وغسل الأرضية ، فانت وسخته !

تطلع فاسكا الى زوجته وتنهد ، ويبدو انه غالب شيئا ما فى نفسه ، ثم راح يستعد .

لم يستغرق فى الاستعداد طويلا . وضع قليلا من القش

فى حذائه المطاطى الطويل ، ولف قدميه باشرطة سميكة من قماش الكستور ، ثم شد الحذاء باحكام على ساقيه القويتين . وعبا شريط الطلقات بخراطيش قديمة مسوّدة وتمنطق به . وبعد ذلك شبك فى كيس الظهـــر هياكل طيور مطاطيـــة وخشبية ، وتابع فورونوف بسرور حركاته العريضة المتسمة بالاهمال والدقيقة جدا فى الوقت نفسه . واثناء ذلك كان فاسكا يصفر لحنا ما من بين اسنانه المطبقة وهو لا يشعر ابدا ، فيما يبدو ، بجمال تكوينه الأخاذ .

وقالت زوجته التى كانت تغسل وراء الفرن بلهجة غيرة :

– سعيد بفكاكك من البيت !

فاجاب فاسكا باستعداد :

– اذا شئت لن اذهب !

– لن يذهب ! انظروا الى هذا الثرى !

وافرغ فورونوف كيسه ولم يترك فيه سوى الضروريات التى لا غنى عنهـــا : الخبز والزبد والمعلبات ، وترموس الشاى الثقيل ، والجورب الاضافى والبطانية . وجاء فاسيلى من الفناء بسلة مجدولة كانت فيها بطة طعم * تصيح .

ومضت زوجة فاسيلى معهما لتودعهما . ارتدت سترة من القطيفة مشدودة على الخصر وحذاء عاليا من المطاط فغدت صبية على الفور .

– هاتها . . . – قالت لزوجها واخذت منه البندقية – هل ستذهبان الى البحيرة الكبرى ؟

فاجاب فاسكا :

– الى الصغرى .

قوست حاجبيها دهشة ، فخيل لفورونوف ان ثمة شيئا غير سليم فى المسالة . لقد سمع وهو بعد فى موسكو انه ينبغى الصيد فى البحيرة الكبرى ، فراوده الآن شك بان فاسكا لا يرغب فى الابتعاد كثيرا عن البيت .

فقال فورونوف :

* بطة تربط من ساقها وتوضع فى الماء لجذب البط البرى اليها اثناء الصيد . **المعرب** .

– وربما من الأحسن الذهاب الى الكبرى ؟
فأجاب فاسكا وهو لا ينظر الى فورونوف بل الى زوجته :
– الناس فى الكبرى لا عد لهم .
وتطلع فورونوف هو الآخر الى زوجة فاسكا مؤملاً أن تؤيده . لكنها اكتفت بهز كتفيها النحيلتين وتقدمت بسرعة نحو القارب الذى لاح خلف الاعشاب . الواضح أن زعامتها فى البيت لا تتطاول على دراية زوجها بشئون الصيد .
ولكز فاسيلى فورونوف بكوعه فى رفق وابتسم مومئا الى زوجته : كانت مؤخرة البندقية «التولية» * الطويلة تصطدم بعقبيها .
وقال بشىء من الاعتزاز :
– انا وأخى اناتولى فقط اللذان تودعهما زوجتاهما الى الصيد – ثم استطرد بتفكير – فى الحقيقة هو لا يستطيع تدبير الأمر وحده بسبب عجزه . . .
عندما وصلا إلى القناة كانت زوجة فاسكا قد فكت رباط القارب وفرشته بدريس طازج رطب قليلا ، جمعته من على الشاطئ مباشرة . ووضع فاسيلى الكيس والسلة والبندقيتين فى الزورق وغطاها بسترته المشمع بعناية ، واخرج من تحت الدريس مجذافا يشبه المجرفة .
– اركب ايها الرفيق الصياد ، فانا لا اعرف اسمك واسم ابيك ** .
– اسمى سرجى ايفانوفتش .
واستقر فورونوف فى قاع الزورق بصورة خرقاء . ومن خلف حافة الزورق المدورة لمعت مياه المستنقعات سوداء مثل القطران .
وقال فاسكا لزوجته :
– خلتيك بعافية !
وبحركة قصيرة سريعة شدته من كمه ، وهى تنظر

* نسبة الى مدينة «تولا» المشهورة بصناعة السلاح . **المعرب** .
** تقتضى تقاليد المخاطبة الروسية ان يدعى الشخص باسمه واسم ابيه احتراما . **المعرب** .

الى فورونوف فى عبوس ، والتصقت به بجنبها للحظة ، وضحكت ضحكة قصيرة فى خجل ثم دفعته عنها ، ومضت نحو البيت وهى تسير بين العشب العالى الذى يتجاوز وسطها دون ان تلتفت .
وركز فاسكا المجذف فى الشاطئ وضغط عليه ، فاندفع القارب عبر الطرقة المائية الضيقة وهو يصطدم فى رفق بنتوءات الأرض ويشق بحفيف جاف الاعشاب الحادة ، الشفرية الأوراق ، المطبقة على القناة .
فك فورونوف ياقة القميص . لقد خلف وراء ظهره جميع الهموم والاضطرابات ، وها هو يندفع كالسهم نحو الهدف . كم حدثوه فى موسكو عن مصاعب ميشورا ، وعن تفرد طباع اهلها ، الذين ينبغى على المرء ان يفهمهم حتى يظهروا له جانب اللين والسلاسة ، والا فقد يديرون له جانب العناد المتصلب والجفاء القاسى . وما أسهل ما وجد طريقه هنا وحقق كل ما كان يبغى !
تابع بسرور حركات فاسكا القوية والماهرة بالمجذاف . يبدو ان جسد هذا الشاب القوى ، الذى دب اليه بعض الكسل ، يحس الآن بالفرحة من هذا النشاط . وكان باديا ان عضلاته المفتولة تتلاعب تحت قميصه ، وانه يتنفس بيسر وراحة .
وسرعان ما اخذت القناة تتعرج . واذا كان فورونوف ما يزال يحتفظ بقليل من الارتياب فى ان فاسكا قد اختار البحيرة الصغرى من اجل سهولة الطريق ، فقد تبخر هذا الارتياب الآن تماما . لم يكن الزورق الطويل قادراً على الدوران عند المنعطفات الحادة ، فكان فاسكا قبل كل منعطف يدفع الزورق بكل قوته بالمجذاف الذى حل بالنسبة له محل العود ، فينطلق القارب لينغرز فى لسان الشاطئ . ويقفز فاسكا الى الماء ، فيرفع مؤخرة القارب الثقيلة ويديرها نحو ثنية المنعطف الأخرى ، وبعد ذلك يدفع مقدمة القارب الى الماء . كان القارب ثقيلا جدا ، وعندما أراد فورونوف ان يساعد فاسكا ، لم يسمح له .

ومع ذلك ، وقبل ان يلجـــا نهر «برا» ، حيث فاضت القناة الضيقة على الشاطئ المغطى بالمستنقعات واتسعت وضحلت ، استقر القارب على القاع لا يتزحزح ، فكان على فورونوف أن يهبط منه ليساعد فى انتشاله .

فقال فاسكا بنبرة صراحة :

– لو رأت زوجتى ذلك لنالنى منها الكثير !

– ولم ؟

– لأنها لا تطيق أن ترانى اعجز عن انجاز عمل .

وضحك فاسكا ، اما فورونوف فساله :

– أتحبها ؟

فقال فاسكا بفرح ودهشة :

– وكيف لا احبهـــا ؟ لقد رأيـــت بنفسك اى امراة هى ! . . . ومن اكون انا بالنسبة لها ؟ . . . – وباعد بين يديه .

كان غائصا فى الماء الى ركبتيه ، فى فانلة بحـــارة مشمرة الاكمام . . وعرق الشباب الساخن يتصبب على وجهه الاسمر وعلى رقبته الملوحة المائلة الى السواد وعلى ذراعيه المفتولتين . وبدا وكأن جلده مطلى بطلاء لامع . كان فاسكا حسن الصورة ، وبريئا وساذجا فى مشاعره الى درجة جعلت فورونوف يقول فى نفسه : «آه يا فتى ، انت نفسك تساوى اكثر منها بكثير !» ولكنه بالطبع لم يفصح له عن ذلك ، ومضيا قدما بحذاء شاطئ «برا» المغطى بالغابات .

لم يكن «برا» فى هذا الموضع يشبه النهر ابدا . فقد فاض فاصبح بحيرة عريضة للغاية ، بجزر خضراء مستوية ، وبخلجان تكتنفها اعواد القصب ، لاحت بينها قوارب صيادى الاسماك القائمة . وكانت طيور النورس تمرق فوق صفحة المياه ، وعاليا فى السماء يتهادى البط اسرابا ووحدانا . واندفع صقر كان يحوم قرب السحاب منقضا بسرعة ونعومة على الماء ، فمسه بمخالبه الخطافية ، وارتفع حاملا سمكـــة روش صغيرة بين اظفاره . وفى نفس اللحظـــة انطلق من قمة صنوبرة غراب يطارده . وسرعان ما ادرك الصقر وانتزع

منه الفريسة . وعاد الغراب إلى نقطة حراسته فالتهم الروشة بسرعة ، وراح ينتظر أن يصطاد له الصقر الكادح سمكة أخرى .

وانعطفا من جديد الى قنـــاة أخرى ، بعكس الأولى ، مستقيمة كالسهم . وكانت الطرقة المائية تتســـع احيانا مشكلة دوائر ، اذ كانت القناة تصل ما بين بحيرة وأخرى وسط المستنقعات . وكانت الشواطئ هنا ايضا منخفضة ، ولكن الاغصان النضرة العالية بما يتجاوز قامة الانسان كانت تقترب من الماء مباشرة مختلطة بالخمائل ، لتحيط القناة بنفق معتم داكن الخضرة . وبدا ان الغسق هبط دفعـــة واحدة ، فاعتور القلق فورونوف من ان يتاخروا فتفوتهم فترة الغروب .

ولكن فاسكا قال بثقة :

– سنصل فى الوقت المناسب .

واحيانا كانت طيور البكاسين ودجاج الأرض تمرق فوق راسيهما تماما دون وجل ، ومن تحت ورقة سوداء مسطحة لزنبقة ماء قفز فرخ بط صغير وانطلق هاربا منهم بكل قواه . لم يكن هذا الصغير التعيس يدرى انه ، وقد خرج متأخرا جدا من البيضة ، لن يقدر له ان يصبح بطة كبيرة ، فمضى يحاول بكل قواه انقاذ عمره القصير . أخذ يخفق على الماء بزعانف بائسة لجناحين لم يكتملا ، وهو يفر فى القناة مطلقا صراخا رفيعا ، ومقدمـــة القارب تدركه بين الحين والحين ، حتى انزوى اخيرا فى احد خلجان الشاطئ . وما كاد يختبئ حتى رفرف من وراء الحشائش شيء ما مثيـــرا صخبا ، وفى الفتحة المضيئة بين الخمائل ظهر للحظة خاطفة شبح أسود متناثر لبُركة وفى نفس اللحظة لفح وجـــه فورونوف وهج وردى لعيار نارى . وقبل أن يتلاشى صدى الطلقة هوت البطة فى الخمائل بعد أن رسمت فى سقوطها قوسا مائلا .

لم يذهل فورونوف من مباغتة العيار الذى دوى فوق اذنه تماما ، بقدرما اذهلته تلك السرعة غير البشرية وتلك

المهارة التى ابداها فاسكا . فقد استطاع ان يرمى المجذاف ، ويلتقط البندقية ، ويصوبها بتلك الدقة الخارقة . ولسبب ما خيل لفورونوف ان فاسكا انما أبدى هذه المهارة الآن ايضا من أجل زوجته ، فأحس بالضيق من هذا الشخص المنتشى المتهلل . فبمثل هذه الحماسة الروحية سيردى جميع البط ، ولن يبقى لفورونوف شىء يصطاده اذن . . .

— اسمع يا فاسيلى ، دعنا نتفق : على الاهداف الطائرة كلانا يطلق النار ، وعلى الاهداف الأرضية اطلق انا وحدى .

— تمام يا سيرجى ايفانوفتش — قال فاسكا وهو يرسى القارب الى الشاطئ . وخطا من القارب مباشرة فى الاعشاب العالية . وانضمت الأعشاب خلفه ، وعندما انفرجت ثانية ، ظهر ممسكا فى يده علجوما كبيرا برقبة زمردية — استفتحتنا يا سرجى ايفانوفتش !

فامَّن فورونوف ببرود :

— نعم .

انكشفت البحيرة الصغرى امامهم بغتة . وفى مرآة المياه المستديرة سبحت سحب ورَّدتها حمرة الشفق . وعند الحافة كانت المياه معتمة مكفهرة ، اذ انعكست فيها صفوف اشجار الشوح المرصوصة المحيطة بالبحيرة . ولم يفحص فاسكا البحيرة بنظراته ليختار مكانا افضل ، بل ساق القارب مباشرة نحو جزيرة صغيرة شبه مغمورة بالمياه عند الشاطئ الأيسر للبحيرة المطل على الغروب . وهنا وزع هياكل الطيور ، ووضع على الماء بطة الطعم المرفرفة ، وبعد ذلك غاص بالقارب فى الخمائل .

وسأل :

— هل ترى المكان جيدا يا سرجى ايفانوفتش ؟

فاجاب فورونوف متذمراً :

— انا اراه جيدا ، ولكننا نُرى جيدا من أعلى .

فطمأنه فاسكا :

— لا باس .

استعد فورونوف لفترة انتظار طويلة ، وهو ما يبدا

به عادة اى صيد ، ولكن صوت فاسكا الخافت الهادئ تردد على الفور تقريبا :

— الحذفة الى يمينك يا سرجى ايفانوفتش .

انتفض فورونوف وطاف بنظره على الماء بسرعة . ولكنه لم ير سوى هياكل الطيور وبينها بطة الطعم ، ضخمة للغاية ، تبدو غير طبيعية .

وبنفس الهدوء ارشده فاسكا :

— عند الهيكل الأخير ، الى اليمين .

واطلق فورونوف النار وهو يشعر انه يطلقها على هيكل البطة . وكنس الرش سطح المياه ، واذا باحدى الحذفتين ، اللتين كانتا ساكنتين فى صورة متماثلة ، تهتز فقط ، مديرة جانبها الخشبى المنيع فى بطء ، اما الأخرى فقد استلقت على الماء مادة عنقها ، فكشفت بموتها عن حياة كانت تنبض فيها .

وعندما سبحا نحوها بالزورق ليلتقطاها ، ارتفعت برَكة الى اعلى بعد ان كانت توشك على النزول . واطلق فورونوف النار فهوت البطة الى الماء كالحجر . وبعد ان غاصت فيه ظهرت مرة اخرى على بعد حوالى ثلاثين مترا منهما ، وعلى الفور اجهز عليها فورونوف بعد ان تمكن من تلقيم بندقيته .

فقال فاسكا مستحسناً :

— مضبوط .

ولكن ذلك لم يكن سوى البداية . ونادراً ما كان الحظ يهيئ لفورونوف صيداً موفقا كهذا . فبطلقة واحدة أردى ثلاث حذفات ، ثم اصاب على التوالى بطتين عتيقتين وثالثة كبيرة . كذلك لم يبق فاسكا بلا عمل . فقد اصاب على الطائر ثلاث برَكات ، ولكن واحدة منها جرحت وهربت ، بينما اختفت الثانية بين اعواد القصب فلم يتمكنا من العثور عليها فى عتمة البحيرة .

كانت البحيرة صغيرة ، وقد ازعج اطلاق النار الكثيف البط فتفرق ، ولكن حتى فى لحظة الهدوء التى حلت لم يفارق فورونوف ذلك التوتر السعيد النشوان للاحاسيس ، والذى

بسببه كان يهوى الصيد الى هذا الحد . ولم يعد الى وعيه الا عندما بزغت اول نجمة فى السماء . وانعكست فى مياه البحيرة المعتمة صغيرة نقية براقة .

– حسنا يا فاسيلى ، كفانا اليوم يا أخى ! . . .

واتجها الى القناة ليبيتا هناك . وعلى الفور وجدا مكانا للمبيت : فقرب الماء مباشرة ، غير بعيد عن المصب ، قام كوم عريض مرصوص من الدريس السميك الريان . واخرج فاسكا مقدمة الزورق من الماء وارساها على الشاطئ ، وافرغه من الاكياس ، وراح يعد الفراش ، وهو يسوى بجهد اعواد الدريس المنتفخة التى فاحت منها رائحة المستنقعات الحادة .

ثم تناولا العشاء وشربا الشـــاى من الترموس . وحل الظلام تماما . وامتلأت السماء بالنجوم ، وفوق سور اشجار الشوح البعيدة ظهر جنب القمر الأصفر المتورم . وكان الجو ما يزال دافئا ، ولكن احيانا كانت تهب برودة صاعدة من القناة التى بدات تبرد . وتذكر فورونوف ، وهو يلتهـــم سمك الكراكى بالصلصلة ويبلعه بالشاى الحلو ، تفاصيل صيد اليوم . وكان فاسكا يجيب اجابات مقتضبـــة ، وفى الأغلب يضحك ضحكات قصيرة ، فاعتبر فورونـــوف ذلك خصلة من خصال الصياد المحترف : الا يتحدث عن الصيد الماضى عشية الصيد القادم . وبالتدريج فتر فيه هو نفسه الاحساس بالاثارة ، ولم يعد الحظ الموفق يهزه ، اذ صار فى عداد الاحداث التى مرت واستنفدت غرضها ، ولم يعد بوسعها التاثير على المستقبل .

سرى التعب اللذيذ مضعضعا اطرافه ، واحس بالراحة والطمانينة تغمران روحه .

وتناهى صوت فاسكا :

– سرجى ايفانوفتش ، هل أنت متزوج ؟

– طبعا متزوج . . – اجاب فورونوف وانتبه على الفور الى نبرة ضيق شابت جوابه .

وسأل فاسكا بحذر :

– وهل زوجتك فى موسكو ؟

– كلا ، سافرت الى المصيف .

– وحدها ام مع الأولاد ؟

– ليس لدينا أولاد .

نهض فاسيلى قليلا مرتكزا على كوعـــــه ، وحدق فى فورونوف بعض الوقت ، ثم قال بجدية شديدة :

– وكيف لا تخشى . . من تركها تسافر وحدها ؟

قهقه فورونوف . لم ير فى هذا الاستغراب اى اهانة له . بالعكس ، احس بشعور لذيذ بالمناعة ، اذ كان واثقا من زوجته كل الثقة ، وفوق ذلك لم يكن فى سلوكهـــا ما يقلقه على الاطلاق .

وقال باحساس بالتفوق :

– آه يا عزيزى ، وهل يمكن ان تحمى نفسك من ذلك؟

اكفهر فاسيلى ، ورغم ان فورونوف لم ير وجهـــه فى الظلام ، فقد أحس انه استغرق فى تفكير قلق عابس .

استلقى فورونوف على الدريس الفوّاح بعد ان شرب الشاى . وافاق فاسكا من تفكيره فاقترب منـــــه . وقال بتردد :

– سرجى ايفانوفتش ، الا تخشى المبيت هنا وحدك ؟

فرد فورونوف وهو يكتم السخرية :

– كلا ، وممّ اخاف ؟

كان يدرك ان ما تحرك فى نفس فاسكا لم يكن الغيرة ، بل الشوق الحاد المباغت الى الحبيب ، ذلك الشوق الذى قد يطبق على القلب حتى ولو فى اقصر فراق . ومع ذلك بدا له فاسكا فى هذه اللحظة مضحكا الى حد ما ومثيرا للاشفاق .

– ساطل على البيت طلة سريعـــة . وقبل الفجر اكون هنا ، لا تشك فى هذا !

– هيا ، هيا ، – قال فورونوف ، ولكى يشعر فاسكا بأن الموضوع منتهٍ ، تحول عنه ، وشد ياقة السترة فوق راسه .

سمع كيف دفع فاسكا القارب الى الماء ، اذ احتك قاعه بالحشائش فى صرير ، وأز الرمل الدقيق على لسان الشاطئ

بصوت حاد جاف ، ثم ترددت طرطشة مدوية فتسللت تحت السترة برودة رطبة . وبقبق الماء أمام مقدمة الزورق بصوت متقطع . . لقد رحل فاسكا بالقارب الى زوجتـــه ، وتخيل فوروونوف الطريق الذى كان على فاسكا أن يقطعه عبر قناتين ونهر ، وتذكر كل المنعطفات التى ينبغى عليه ان يجتازها ، مخرجا فيها القارب الى الشاطىء ومحولا اياه الى الثنايـــا الأخرى ، ثم فوق ذلك المياه الضحلة التى لم يتغلبا عليها معاً الا بعد جهـــد . وكل ذلك فى الظلام ، فى برد الليل الرطب . سيستغرق الطريق اربع ساعات على الأقل . اربع ساعات ذهابا ، واربع ساعات إيابا . ولكى يعود فاسكا قبل الفجر فلن يقضى مع زوجته حتى ساعة . فاى مبلغ من القوة تبلغ تلك العاطفة التى دفعته الى هذه الرحلـــة الجهنمية ؟ . . .

زفر فوروونوف وازاح ذيل السترة . وتذكر انـــه هو ايضا ، مرت به مثل هذه الفترة ، حين كان مستعدا للاندفاع الى حيث لا يدرى فى اى ساعة من الليل أو النهار ، عند اول اشارة ، وحتى بدون اشارة . وكان هو ايضا مفعمـــا بذلك القلق الصعب المشبوب ، الذى يســـوق الآن وسط الليل هذا الصياد الشاب عبر الطرقة المائية . ولكنه خاف فجاة على نفسه ، وعلى هدوئه ، وعلى اشياء اخرى لا يعلمها الا الله . وكان يعرف حتى لحظة الانفصال ان كل شىء قابل للاصلاح لو انه فقط وثق باحاسيسه . لكنه قال لنفسه : هكذا افضل ، واهدأ بالاً ، وأسهل . ولكى يقطع على نفسه خط الرجعة تزوج من زوجته الحالية التى كان يعرفها من وقت طويل كانسانة ذكية ، طيبة ، مخلصـــة . واذا كانت حياته تخلو من البهجة ، فإنها تخلو كذلك من الالم ، وهذا ايضا له قيمته . . .

واذا باللقاء مـــع هذا الفتى يثير فى فوروونوف مكامن القلق ، ويدفعه الى تذكر ما لم يكن يحب ان يتذكره . ولكن هذا سينقضى لدى فاسكا ايضا يوماً ما ، وسوف يرى زوجته مثلما يراها هو ، فوروونوف ، على الاقل : امرأة لا تتميز

بشىء ، نمشاء ، نكدة ، متشددة ، غائصة لراسها فى الهموم المنزلية . سيبدو له الصحو مُرّاً على الأرجح . . .

«ماذا دهانى ؟ — قال فوروونوف فى نفسه عابســـا — اقتص من مصيره لمصيرى ؟»

كانت السماء منخفضة بشدة ، ومحشوة بالنجوم الى درجة بدا فيها انها لن تقوى على الامســـاك بها فتهوى متبعثرة . وكانت النجوم تتهاوى بالفعل . فهنا وهناك تساقطت النجوم على الارض احيانا عموديا ، باقواس حادة تارة وعريضة تارة اخرى ، مكتسبة فى سقوطها لونا اخضر فى نقاء البلور . ومن الأرض التى سخنت اثناء النهار انبعثت موجات من البخار الدافىء . وكانت السماء بجميع نجومها تصبح كابية تارة وكانها ابتعدت ، وتارة تتشبع بالبريق فتقترب ، كما لو كانت تتنفس .

استيقظ فوروونوف من لذع برد الفجر القارس . وفى لحظة واحدة كفَّت ملابسه ، وسترته التى كان مغطى بها ، والدريس الكثيف المدعوك تحت جنبه ، والطاقية على رأسه ، كفت جميعا كانما على اتفاق ، عن الاحتفاظ بالدفء المنبعث من جسده ، واصبحت فجاة باردة ، رطبة ، ثقيلة ، عدائية غير مريحة . ونفض فوروونوف كتفيه ، فمنحته الرعشـــة القصيرة المتولدة عن هذه الحركة ، شحنـــة صغيرة من الدفء والحيوية . وهب واقفا وهو يدرك ان الاحساس التالى الذى سيخامره هو الاستياء من غياب فاسيلى . ورأى سماء رمادية ، كما لو كانت مكفهرة ، اما فى الحقيقـــة فكانت صافية ، ولكنها لم تتشبع بعد بالزرقة ، ورأى خيط الفجر الساطع خلف الغابة ، والاعشاب الشيباء من الندى ، ومقدمة القارب الاسود المبللة ، البارزة فوق حافة الشاطىء .

ومضى فوروونوف الى القارب . كان فاسيلى جالساً عند مؤخرته ينظف البط الذى اصطاداه بالأمس .

وصاح فوروونوف :

— مرحبا يا عريس !

ورفع فاسكا نحو فورونوف وجهـــا مائلاً الى الشحوب تحت طبقة سمرة .

– أوه ، كم وبختني زوجتي يا سرجي ايفانوفتش على تركي لك ! – قال بابتسامة فرحة لا تتناسب مع كلماته – قلت لها انك انت الذى أرسلتني . أرجوك لا تكشفنـــــي اذن . . .

– حسنا ، لن اكشفك .

وتطلع فاسكا الى فورونوف بحذر وبنظرة جانبية وقال :

– لا تظن انني لا أثق بها . غير انـــــه داهمتني فجأة كآبة شديدة . . . لا أدرى لماذا خطر لى أنها كان من الممكن ان تختار أحداً غيرى ، وانها كان يمكن ان تكون الآن مع احد آخر . وارهقتني هذه الافكار حتى . . . – وباعد فاسكا بين يديه فى حركته الحائرة المألوفة . ثم هز رأسه المتموج الخصلات فجأة ، وضحك ضحكة قصيرة لخاطر مر فى ذهنه ، ومال قليلا واضاف – اوه ، يا لى من احمق ! . . .

فى عيني فاسكا السوداوين ، ببياضهما الازرق البارز ، تجمد بريق نشوة كاب بعض الشىء .

وقال فورونوف :

– ربما لم تعد قادراً على الصيد الآن ، انهد حيلك !

– ماذا تقول يا سرجي ايفانوفتش ! انا الآن استطيع ان اصنع العجائب ! استطيع ان . . .

قال فاسكا ذلك باخلاص وبساطة شديدين بحيث لم يبق ثمة شكوك : انه يستقى من زوجته الصغيرة المهمومة . . القوة وبهجة الحياة .

ومن جديد تململ الضيق من فاسكا فى نفس فورونوف ، فقد كانت هذه السعادة مثيرة لضجره ، كانت تسحقه وكأنها تذله . وكان مستعدا ان يقول لهذا الفتى انه سياتى الوقت الذى ستنضب فيه هذه العاطفة النهمة وتذبل ، ولكنه بدلا من ذلك ساله بصوت حزين تقريبا :

– ما الذى يجعلك تحبها كل هذا الحب ؟

فقال فاسكا بدهشة ، وكأن هذه الفكرة لم تدر براسه ابداً من قبل :

– وهل يمكن ان تشرح ذلك ؟ من كنت انا بدونها ؟ فاسكا وخلاص ! اما الآن فانا انسان ، زوج . ويمكن القول رب اسرة . ولكن حتى هذا ليس هو المسألة . . .

فضحك فورونوف ضحكة قصيرة وقال :

– مهلاً ، مهلاً . ما زال مبكرا أن تسمى رب أسرة . فهذا الامر مهما كان يتطلب اطفالاً .

فضحك فاسكا بفرحة :

– الاطفال موجودون ! كاتكا وفاسكا ، توام . وهناك ايضا سينكا ، ولكنه ما زال يحبو . عند جدته الآن . . .

فقال فورونوف وقد راوده احساس كريه :

– لا افهم شيئا . منذ كم سنة وانتما متزوجان ؟

– من زمان ، قريبا تمر ست سنوات !

فسأل فورونوف بغلظة :

– فاى عريس أنت بحق الشيطان ؟

فباعد فاسكا بين يديه من جديد :

– هكذا يدعونني ، لست أدرى . . .



الصدى

جزيرة الاحلام ، والشاطىء المقفر ساعـــة القيلولة ، والفتاة المنبثقة من البحر . . . كان هذا منذ ثلاثين عاما الا قليلا !

كنت اجمع قطع الاحجـــار الصغيرة على الشاطئ خارج بلاج المصح . ومنذ مدة قليلة هبت عاصفة ، فزحفت الامواج وهي تفور على الشاطئ حتى وصلت الى جدار المصح الابيض . أما الآن فقد هدأ البحر وعاد الى حدوده ، كاشفا شريحة عريضة من الرمال بلون الشيكولاته ذات بريق أزرق ، يفصلها عن الشاطئ جسر صغير من الحصى . كان هذا الرمل ، الرطب والصلب بحيث لم تكن الآثار تنطبع عليه ، مغطى بحصى يشبه قطع السكر ، وبأحجار خضراء ضاربة الى الزرقة ، وقطع زجاجية كالحلوى الممصوصة ، وبالجمبري الميت ، والاعشاب البحرية المتعفنة التي انبعثت منها رائحة يود حادة . كنت أعرف ان الامواج العالية تقذف الى الشاطئ باحجار كريمة ، ولذا اخذت

بصبر ، وخطوة بعد خطوة ، أفحص الرمل المتبقى والاحجار التى قذف بها البحر لتوه .

وتردد صوت رفيع :

– ايه ، لماذا تربعت على سروالى ؟

ورفعت عينى . وقفت فوق رأسى فتاة صغيرة عارية ، نحيلة بارزة الضلوع ، رفيعة اليدين والساقين . والتف شعرها الطويل المبلل على وجهها ، ولمعت قطرات الماء على جسدها الشاحب الذى لم تلوحه الشمس ، وغطته حبيبات زرقاء من اثر البرد .

وانحنت الفتاة وسحبت من تحتى سروالا مخططا بخطوط صفراء وزرقاء ، ونفضته ، ثم القت به على الاحجار . اما هى فقد طرحت بجسدها على لسان الرمال الذهبية ، واخذت تجرفها نحو جنبيها .

وغمغمت انا بسخط :

– ارتديه على الاقل . . .

فاجابتنى :

– ولماذا ؟ هكذا أفضل لحمام الشمس .

– الا تخجلين ؟

– امى تقول ان هذا لا ينطبق على الصغار ، وهـــى تمنعنى من السباحة فى السروال فهو يسبب الاصابة بالبرد ، وليس لديها وقت لتضيعه علي . . .

وفجأة لمع شيء برقة بين الاحجار القاتمة الخشنة : حصاة دقيقة نقية كدمعة العين ، فأخرجت من عبى علبة السجائر ، والحقت هذه الدمعة بمجموعتى .

– أرنى !

وازاحت الفتاة شعرها المبلل خلف اذنيها كاشفة عن وجه نحيل يغطيه نمش داكن ، وعينين خضراوين كعيون القطط ، وانف اقعى ، وفم ضخم من الاذن الى الاذن ، واخذت تفحص الاحجار .

على طبقة رقيقة من القطن استقرت بضعة أحجار : حجر عقيق صغير بيضاوى ، بلون وردى شفاف ، وعقيق آخر ،

اكبر ، ولكن البحر لم يصقله ولذلك كان عديم الشكل ، أصم لا ينفذ الضوء؛ ومستحجران طريفان ، احدهما على شكل نجمة البحر ، والثاني يحمل أثر سرطان صغير ؛ وحلقة حجرية صغيرة هي «اله الدجاج» ، ثم فخر مجموعتي : حجر التوباز الدخاني ، قبضة من ضباب مذابة في زجاج قاتم .

— هل هذا ما جمعته اليوم ؟

— ماذا تقولين ! بل طوال اقامتي .

— قليل .

— جربي أنت !

— وما الداعي ؟ — وهزت كتفهـــا النحيلة المتسلخة — لكي أزحف طول اليوم في هذا الحر من اجل احجار تافهة !

— انت حمقاء . . حمقاء عارية !

— بل انت الاحمق ، ربما تجمع الطوابع أيضا ؟

فاجبت بتحد :

— حسنا ، أجمعها !

— وعلب السجائر ؟

— كنت اجمعها وانا صغير .

— وماذا تجمع أيضا ؟

— كان عندي سابقا مجموعة من الفراشات . . .

وظننت ان هذا سيعجبها ، ولست أدري لماذا اردت ان يعجبها .

— أف ، يا للقرف !

وقلبت شفتها العليا فأبرزت نابين حادتين بيضاوين .

— كنت تسحق رؤوسها وتغرز في اجسادها الدبابيس ؟

— كلا بتاتا ، بل كنت اقتلها بالبنج .

— مهما يكن فهو مقرف . . انني لا اطيق ان ارى شيئا يقتل .

قلت لها بعد تفكير :

— هل تعرفين ماذا كنت أجمع أيضا ؟ الدراجات . . من مختلف الماركات .

— هكذا !

— اقسم لك . كنت اركض في الشوارع واسأل كـــل صاحب دراجة : «يا عم ، ما هي ماركة دراجتك ؟» فيجيب : «دوكس» او «لاتفيللا» او «أوبـــل» . وهكذا جمعت كـــل الماركات ، ولم ينقصني الا «أندفيلد موديل رويال» . . .

كنت اتكلم بسرعة خشية ان تقاطعني الفتاة بواحدة من سخرياتها ، لكنها كانت تنظر اليّ بجدية واهتمام ، بل كفت حتى عن صب الرمل من قبضتها .

— كنت اركض كل يوم الى ساحة «لوبيانسكايا» ، وكدت ذات مرة اقع تحت عجلات الترام ، ولكني وجدت «أندفيلد رويال» . اتدرين ، ان ماركتها بنفسجية ، وعليها حرف «ر» كبير مكتوب باللاتينية .

قالت الفتاة وهي تضحك بفمها الكبير :

— لا بأس بك . . سأقول لك سرا . . . انني أيضا اجمع . . .

— ماذا ؟

— الصدى . . وقد جمعت منه الكثير . هناك صدى رنان كالزجاج ، وصدى كالنفير النحاسي ، وصدى مثلث الصوت . وهناك ما يتدحرج كحبات البازلاء ، وهناك أيضا . . .

فقاطعتها بغضب :

— كفاك كذبا ! . . .

فسمرت فيّ عيني القطة وقالت :

— استطيع ان أريك ، اذا اردت .

— حسنا ، اريد . .

— ولكني سأريك وحدك ولا احد غيرك . هل سيسمح لك اهلك بالمجيء ؟ علينا ان نصعد الى جبل «السرج الكبير» .

— سيسمحون !

— اذن سنذهب غدا صباحا . أين تسكن ؟

— في شارع بريمورسكايا ، عند البلغار .

— ونحن نسكن عند العمة تاراكانيخا .

— اذن فقد رأيت أمك ! أليست طويلة ، وشعرهـــا أسود ؟

– آه . ولكني لا ارى أمي ابداً .

– ولماذا ؟

– امي تحب الرقص – ونفضت الفتاة شعرها الذى جف وبدا اشهب اللون – هيا نستحم لآخر مرة !

وقفزت واقفة والرمل يغطي جسمها ، وركضت نحو البحر وكعباها الورديان الصغيران يلمعان .

. . . كان صباحا مشمسا ساكنا ولكنه غير حار . والبحر بعد العاصفة ما زال يزفر بردا لا يمكن الشمس من ان تدفئ الجو . وعندما كانت سحابة كثيفة كدخان السجائر تغلف الشمس مطفئة البريق الجنوبي الساطع المنبعث من حصى الطرق والجدران البيضاء والسقوف القرميدية ، كان الافق يكفهر ، كما يحدث قبل حلول جو مضطرب ، ويهب من جهة البحر ، دفعة واحدة ، تيار بارد .

فى البداية تعرج الدرب المؤدى الى «السرج الكبير» عبر تلال غير عالية ، ثم امتد بعد ذلك مستقيما صاعدا الى اعلى خلال حرج كثيف عطر من شجر البندق . وقطعت الدرب قناة ضحلة مفروشة بالاحجار ، كانت مجرى لواحد من تلك السيول الهادرة التى تنحدر من الجبال بعد المطر ، وهى تزمجر وتصلصل على مدى الناحية كلها ، ولكنها تنضب قبل ان تجف قطرات المطر على اوراق البندق .

كنا قد قطعنا شوطا غير قليل من مسيرتنا عندما قررت ان أعرف اسم صاحبتى .

وصحت بالسروال الازرق الاصفر الذى كان يلوح بين اشجار البندق كالفراشة : – اى . . . ما اسمك ؟

وتوقفت الفتاة حتى حاذيتها . فى هذا المكان كانت اشجار البندق اقل كثافة ، وتباعدت فظهر منظر البوغاز وقريتنا ، تلك الحفنة الضئيلة من المنازل الصغيرة . ومد البحر الضخم الرزين مياهه حتى الافق ، ثم أصبحت بعد ذلك خطوطا ضبابية زرقاء عكرة خطت على صفحة السماء الواحد فوق الآخر . اما فى البوغاز فقد تظاهر بانه وديع وصغير ، يلعب

فيمد بحذاء الشاطئ خيطا أبيض لكى يسحبه ، ثم يعود يمده . . .

واجابت الفتاة بتفكير :

– لست أدرى ماذا اقول لك . ان لى اسما أخرق : فيكتورينا ، ولكن الجميع يدعونني فيتكا .

– يمكن أن تسمي فيكا .

– اف ، يا للقرف ! – وأبرزت نابيها الحادتين بالصورة المألوفة .

– ولماذا ؟ ان فيكا تعنى : البازلاء البرية .

– ويسمونها ايضا بازلاء الفئران . أنا لا أطيق الفئران !

– حسنا ، فليكن فيتكا . أما أنا فاسمى سريوجا . أما زال أمامنا طريق طويل ؟

– هل افلست ؟سنمر على كوخ الحطاب ، وبعدها سترى «السرج الكبير» .

ولكنا تعرجنا طويلا عبر حرج البندق ذى الرائحة العسلية الخانقة النفاذة . واخيرا قادنا الدرب الى طريق صخرى تلمع رماله الناعمة كمسحوق السكر ببريق أبيض ، افضى بنا الى نتوء جبلى عريض مائل . وهنا ، وسط بستان المشمش اندس كوخ الحطاب المبنى من الصلصال المحارى .

وما كدنا نقترب من هذا الكوخ المريح حتى مزق السكون نباح مسعور ، وانطلق نحونا كلبان ضخمان مشعثان لونهما ابيض مغبر ، تصلصل سلاسلهما المشدودة الى سلك طويل ، وقفزا فى الهواء ، ولكنهما اخرجا لسانيهما الورديين اذ خنقتهما الاطواق ، ونبحا نباحا أجش ، ثم انهارا على الارض .

وقالت فيتكا بهدوء :

– لا تخف ، لن يصلا الينا .

على بعد نصف خطوة قضقضت انياب الكلبين ، ورايت اشواك الارقطيون فى عرفيهما ، وحشرات القراد بحجم حبة الفول على قصبتيهما الانفية ، الا عيونهما فقد غاصت فى الشعر . والغريب ان احدا لم يخرج من كوخ الحراسة لكى يسكت الكلبين . ولكن بالرغم من تهجمهما وشدهما السلك

لم يستطيعا ان يصلا إلينا . وعندما تأكدت أنا من ذلك شعرت بالسرور يدغدغني . وقادتنا مسيرتنا الى كهوف وصخور تسكنها أصوات غامضة ، ولم يكن ينقص الا الحراس الجبابرة ، تلك التنانين التى تسد طريق الشجعان الى الاسرار . وما هى ذى التنانين ، هذه الكلاب المشعثة التى لا تبدو عيونها ، بحلوقها المفتوحة الحمراء !

وها نحن نتعرج من جديد عبر حرج البندق على درب ضاق حتى أصبح كالخيط . فى هذه المنطقة لم يعد حرج البندق كثيفا كما كان فى السفح ، فقد يبس كثير من الاشجار بينما قرض صرصور الخشب الصغير الاسود اللامع أوراق اشجاره الأخرى ، ولم يترك منها سوى شعيرات كخيوط العنكبوت .

وشعرت بالتعب فسخطت على فيتكا ، بينما سارت هى غير عابئة بشىء ، تخطو بساقيها النحيلتين المستقيمتين كغصنين ، وركبتيها المائلتين قليلا الى الداخل . وفجأة انكشف المكان أمامنا ، فرأيت منحدرا يكسوه عشب بنى قصير ، وفى الامام امتدت الى أعلى صخرة رمادية .

قالت فيتكا بلا مبالاة :

— هذا اصبع الشيطان !

وكلما اقتربنا ازداد النتوء الصخرى الرمادى ارتفاعا ، وبدا وكأنه يكبر بدرجة لا تتناسب واقترابنا منه . وعندما خطونا فوق ظله القاتم البارد أصبح ضخما بصورة مهولة . لم يكن ذلك اصبع الشيطان ، بل برج الشيطان ، كئيبا ، غامضا ، عزيز المنال . وقالت فيتكا وكأنها تقرأ افكارى :

— أتدرى ، لقد حاول اناس كثيرون ان يتسلقوه ، ولكن لم ينجح أحد . بعضهم كان يسقط مهشما ، والبعض الآخر يكسر يديه أو ساقيه . ولكن أحد الفرنسيين تسلقه مع ذلك .

— وكيف استطاع ؟

— هكذا استطاع . . . ولكنه لم يتمكن من الهبوط ، ففقد عقله هناك ، وبعد ذلك مات من الجوع . . . — واضافت بتفكير — ولكنه جدع !

واقتربنا من اصبع الشيطان حتى كدنا نلامسه ، فقالت فيتكا وقد خفضت صوتها :

— هنا . . . — وخطت بضع خطوات الى الخلف ثم صاحت بصوت غير مرتفع :

— سريوجا !

«سريوجا ! . . .» رددها فى أذنى تقريبا صوت ساخر متسلل ، كأنما ولد فى اعماق اصبع الشيطان .

وانتفضت ، وابتعدت لاشعوريا عن الصخرة ، واذا بى اواجه صوتا كالزعقة الرنانة قادما من جهة البحر :

«سريوجا . . .» .

وجمدت فى مكانى ، وهناك فى الاعالى ندت آهة مريرة ملتاعة :

«سريوجا . . .»

فقلت بصوت حبيس : ياللشيطان !

«ياللشيطان» هفهفت فوق اذنى .

«شيطان . . .» هبت من البحر .

«شيطان . . .» ترددت فى الاعالى .

وكان يبدو ان لكل واحد من هؤلاء الساخرين المختفين طبعه الثابت والمرعب بعض الشىء . فالهامس كان شخصا هادئا ماكرا متسللا ، والصوت القادم من البحر كان صاحبه مهرجا باردا ، اما فى الاعالى فقد اختفى منتحب منافق لا عزاء له .

وقالت فيتكا :

— ما بك ؟ صح بشىء ما .

وقاطعت صوتها همسة فى اذنى : «ما بك ؟» ، ورن صوت ساخر : «صح» . . وصوت كأنه من خلال دموع : «بشىء ما» .

وتمالكت نفسى بصعوبة وصحت :

— جزيرة الاحلام !

وسمعت الرد المثلث . . .

ثم صحت وقلت وهمست بمختلف الكلمات . وكانت

آذان الصدى مرهفة للغاية . فقد قلت بعض الكلمات بصوت خافت لدرجة اننى انا نفسى لم اكد أسمعها ، ولكنها وجدت دائما استجابة من الجبل . ولم أعد اشعر بالرعب . وفى كل مرة همس فيها الشخص المتخفى فى اذنى كنت اشعر بالقشعريرة فى عمودى الفقرى ، وعند سماع الصوت المنتحب كان قلبى ينقبض .

وقالت فيتكا :

– وداعا !

وابتعدت عن اصبع الشيطان .

واندفعت خلفها ، ولكن الهمس لحق بى مرددا كلمة الوداع بتسلل ماكر ، وقهقه البحر المترامى ، وتأوه الصوت فى الاعالى :

«وداعا . . .» .

سرنا نحو البحر ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا على نتوء صخرى ممتد فوق هاوية . والى يسارنا ويميننا انتصبت اسنان الجبال ، وتحتنا تثاءبت هوة تغرق فيها النظرة . ولو ان اصبع الشيطان غاص الى اعماق الارض لترك خلفه مثل هذه الفتحة الضخمة المخيفة . وفى اعماق الهوة كانت تبدو صخور مسننة ملساء كانياب عملاق تضربها بشدة مياه البحر القاتمة بلون الحبر . وحلق طائر باسطا جناحيه الساكنين بلا حياة ، ثم راح يسقط ببطء وفى دوائر الى الهاوية .

بدا ان شيئا ما هنا لم يكتمل ، لم تتوازن تلك القوى الرهيبة التى انتزعت من اعماق الارض هذا الاصبع الصخرى العملاق ومزقت جلمود الجبل فحفرت فيه بئرا مهولة ، وحدت قاعه باسنان الصخور ، واجبرت البحر على تمزيق لسانه الرقيق عليها . كان الجلمود الصخرى كله حولنا وتحتنا مزعزعا غير صلب ، فى حالة توتر داخلى مستتر ويطمح الى بلوغ منتهاه . . . وبالطبع لم استطع حينذاك أن أسمى ذلك الاحساس المعذب بالقلق الذى سيطر علىّ وانا على جرف «السرج الكبير» . . .

استلقت فيتكا على بطنها عند حافة الجرف تماما ودعتنى بيدها ان احذو حذوها . فتمددت بجوارها على السطح الصخرى الدافئ الصلب ، فاختفت جاذبية الهوة الساحبة والباعثة للبرودة فى الاطراف ، واصبح التحديق الى أسفل فى غاية السهولة . وانحنت فيتكا فوق الجرف وصاحت :

– أو هو – هو !

لحظة صمت ، ثم دوى كالبوق صوت غليظ مزمجر :

«أو هو – هو – وو . .»

ولم يكن فى هذا الصوت شىء مرعب بالرغم من قوته وغلظته ، اذ يبدو ان ساكن الهاوية كان ماردا طيبا لا يبغى بنا شرا .

وسألته فيتكا :

– من كانت أول حواء ؟

فاجاب المارد ضاحكا بعد تفكير قليل :

«حواء . . .»

قالت فيتكا وهى تنظر الى أسفل :

– اتدرى ، لم يستطع احد ان يهبط من السرج الكبير الى البحر . وقد هبط احدهم مرة الى منتصف المسافة ثم انحصر هناك . . .

وسألتها هازئا :

– ومات من الجوع ؟

– كلا ، لقد أدلوا اليه حبلا وشدوه . . ولكنى اعتقد ان الهبوط ممكن .

– هيا نجرب ؟

– هيا . . – ردت فيتكا بحيوية وبساطة فادركت انها جادة .

فتراجعت مازحا وانا محرج :

– فى مرة أخرى .

– اذن هيا بنا . . . – ثم صاحت فى الهاوية : عليك السلام ! وقفزت واقفة على قدميها .

«سلام . . .» زمجر المارد .

وكنت اود ان اطيل معه الحديث ، لكن فيتكا سحبتني مبتعدة .

اما الصدى الجديد والذى وصفته فيتكا بانه «رنان كالزجاج» فكان يعشش فى شعب ضيق كانه شق سكين ، وكان صوت الصدى رفيعا نفاذا ، وحتى الكلمة التى تلفظ بصوت غليظ ، كانت ترفع حتى تصبح زعقة . والامر المنفر الآخر ان الصدى بعد ان يرد رده الزاعق ، لا يصمت ، بل يواصل طويلا فى شقوقه زعيقه الذى يشبه صرير الفئران .

لم نتوقف طويلا عند هذا الشق ومضينا قدما . كان علينا الآن ان نتسلق فوق منحدر شديد ، يغطيه العشب البنى الصلب والاشواك تارة ، وتارة اخرى يلوح عاريا مصقولا املس . واخيرا وجدنا انفسنا فوق نتوء جبلى تراكمت فوقه كتل صخرية ضخمة . وكانت كل كتلة تشبه شيئا : سفينة او دبابة ، او ثورا ، او راس عملاق اسطورى ، او محاربا مجندلا فى دروعه ، او مدفعا ساحليا مجدوع الفوهة ، او جملا او فم اسد يزار ، واحيانا تشبه اشلاء مارد مبعثرة : انفا معقوفا ومحارة اذن ، وفكا بلحية ، وقبضة هائلة ما زالت على حالها مشدودة ، وقدما عارية ، وجبهة بخصائل شعر مجعد . . .

كانت كل هذه الاحياء المتحجرة ، واجزاء الاحياء ، والمواد المتقمصة لباسا حجريا ، تتبادل فيما بينها الكلمة التى تلفظ وسطها وكانها تتبادل كرة بسرعة خاطفة واختصار حاد ، عاكسة الصوت على جنباتها ، وهنا بالذات كان يسكن الصدى «البازلائى» . . .

اما اغرب صدى فهو ذلك الذى لم تذكر لى فيتكا عنه شيئا . ولم نذهب اليه سيرا على الاقدام ، بل زحفنا على مرتفع شديد الانحدار ، متشبثين بالنتوءات والحشائش الصخرية والنباتات اليابسة . ومن تحت ايدينا وارجلنا تحدرت الاحجار الصغيرة جاذبة خلفها احجارا اكبر ، وترددت وراءنا خشخشة متواصلة . وعندما التفت ، دهشت لضآلة ذلك الارتفاع الذى ادار رؤوسنا حين كنا فوق الجرف .

فمن هذا المكان لم يعد البحر يبدو سطحا مصقولا ، لقد كان بلا نهاية ، لا يحده البصر ، واتحد مع السماء مكونين مجالا واحدا : قبة تسمو فوق الآفاق المرئية كلها . واصبح الشيطان انكمش حتى اصبح مجرد نتوء ، مؤكدا بذلك مدى ارتفاعنا .

وتوقفت فيتكا عند غور نصف دائرى مظلم يفضى الى قلب الجبل . ونظرت الى الداخل ، وعندما اعتادت عيناى الظلمة بعض الشىء رايت كهفا مقوسا تتدلى منه عروق صخرية طويلة كاللحى ، وانبعث من الجدران وميض اخضر واحمر وازرق ، وهب من الكهف عطن السراديب فاشحت بوجهى بحركة لا ارادية .

وصاحت فيتكا وقد دست راسها فى الفتحة :

– السلام عليكم .

وكما لو ان براميل فارغة تصادمت وتاوهت ، تردد تحت عقد الكهف صوت مكتوم : «بئم» وجلجل فى ارجائه ، واخيرا انفلتت الى الخارج آهة خفيفة ، وكأن الجبل لفظ انفاسه .

وتطلعت الى فيتكا بانبهار مقرون بالاحترام . هذه الفتاة النحيلة ، بوجهها المغطى بالنمش وشعرها الكستنائى الاشعث ، ونابيها الحادتين فى زاويتى الفم وعينيها الخضراوين البراقتين . . . بدت لى الآن اسطورية كهذا العالم الغامض الذى قادتنى اليه .

وامرتنى فيتكا :

– هيا ، صح !

فانحنيت و«تاوهت» فى فم الجبل الاسود الصغير ، ومن جديد ترددت هناك آهة وجلجلة ، ثم زفر الجبل فى وجهى بردا عطنا قادما من عالم آخر . وفجاة داهمنى شعور ممض بالوحدة والعجز وسط هذا العالم الصخرى الثقيل ، عالم الجروف والشقوق المسكون بالاصوات الموحشة الغامضة .

فقلت لفيتكا وانا اخفى اضطرابى :

– هيا . هيا نغادر هذا المكان .

كان طريق العودة بالنسبة اليّ احساسا بالسقوط

الانهائي الى أسفل . وعلى هذا الطريق ظهرت بجوارنا من جديد المقبـرة الحجرية واصبع الشيطان وحـرج البندق المريض المقروض وكلبا الحطاب القاقزان بسلاسلهما وقد بح صوتاهما من الاختناق ، وحرج البنـدق الآخر الممتلئ قوة . ثم انتهى سقوطنا فجاة عندمـا بلغنا الاخدود الجاف الذى يتاخم القرية من ناحية الجبال .

وعندما وصلنا الى شارعنا سالتنى فيتكا :

– هه ، الم يكن الامر طريفا ؟

وشعرت من جديد بهدوئي المعتاد ، ولم تعد فيتكا تبدو لى سيدة الارواح الجبلية الاسطورية بل غدت فتاة نحيلـة قبيحة يخلو فمها من عدة اسنان امامية . وامام هـذه الفتاة بالذات أظهرت جبنى !

فقلت بتكاسل :

– طريف . . . ولكن هل تعتبر هذه مجموعة ؟

– الا يهمك الا ما تضعه فى علبة وتدسه في عبك ؟

– كلا ، لماذا . . لكن الصدى يستجيب للجميـع وليس لك وحدك .

ونظرت فيتكا اليّ نظرة غريبة طويلة ، ثم قالت وهى تنفض شعرها :

– فليكن . . اننى لا أبخل بذلك .

ثم اتجهت الى منزلها .

واصبحنا صديقين ، فكنا نتسلق معا جبل «تمروك كايا» وجبل «العرس» . وفى احدى مغاور جبـل العرس وجدنا الصدى النقناق . امـا تمروك كايا باسنانه ومنحدراتـه الضخمة وقمته المشرعة الى السماء فكان مجدبـا تماما من الصدى .

ولم نكن نفترق تقريبا ، وتعودت على أن تسبح فيتكا عارية . لقد كانت أخا ورفيقـا طيبا ، ولم انظر اليها قط كفتاة . وكنت أفهم طبيعة عدم حيائها فهما غامضا : فقـد كانت فيتكا تعتبر نفسها قبيحـة قبحا لا أمل فى اصلاحه . ولم اقابل قط شخصا يعترف بقبحه بمثل هذه البساطة وهذه

الصراحة وهذا الاعتزاز الواضح . فذات مرة كانت تحدثنى عن احدى صديقاتها فى المدرسة ، فقالت بـلا مبالاة : «لا ، انها مشوهة تقريبا ، مثلى تماما» .

وذات مرة كنا نستحم بالقرب من مرفا الصيادين عندما انحدرت من الشاطئ المرتفع عصابة من الصبية . كانـت معرفتى بهم بسيطة ، وفشلت كل محاولاتى الخجولة للتقرب اليهم . ولم يكن هذا أول عام يصطاف فيه هؤلاء الصبية فـى جزيرة الاحلام ، لذلك اعتبروا انفسهم من السكان القدامـى ولم يسمحوا للغرباء بالانضمام الى عصابتهم ، وكان زعيمهم هو ذلك الصبى الطويل القوى المدعو إيجور .

كنت قد خرجت من البحر ووقفت على الشاطئ اجفـف جسدى بالمنشفة بينما واصلـت فيتكا لهوها فى الماء . وترقبت قدوم موجة فقفـزت عاليا وانزلقت على بطنها فوق سيف الموجة ، ولمعت اليتاها الصغيرتان .

رد الصبية على تحيتى بلا اهتمام ، وكانوا على وشـك المرور لو لا ان احدهم ، وكان يرتدى مايوها أحمر ، لاحظ فيتكا فجاة .

– انظروا يا صبيان ، فتاة عارية !

وعلى الفور دب هـرج ومرج . صراخ وصفير وصيحات استهزاء . ولكنى يجب ان اقدر فيتكا حق قدرها ، اذ لـم تعبا بتهور الصبية غير ان هذا زاد النار اشتعـالا . واقترح الصبى ذو المايوه الاحمر أن «يعقصوا رجلى الفتاة الى رأسها» فقوبل الاقتراح بحماسة ، واتجه ذو المايوه الاحمر نحو الماء متهاديا . ولكن فيتكا انحنت بسرعة الوحش وتحسست شيئا فى الماء . وعندما اعتدلت كان فى يدها حجر ثقيل .

– اياك ان تخطو – قالت وقد كشرت عـن نابيها الحادتين – سأهشم سحنتك !

وتوقف الصبى ذو المايوه الاحمر وجس الماء بقدمه :

– بارد . . . – قال الصبى وصارت أذناه أشـد احمرارا من مايوهه – ليس لى رغبة فى النزول . . .

واقترب إيجور وجلس على الرمل علـى حافة الشاطئ ،

ودونما حاجة الى كلام فهم الصبى ذو المايوه الاحمر زعيمه فجلس بجواره ، وتبعهما بقية الصبية ، فشكلوا سلسلة فصلت فيتكا عن الشاطئ حيث ملابسها ومنشفتها .

واختبرت فيتكا صبرهم لمدة طويلة ، فطوراً تتوغل بعيدا فى البحر وطورا تعود الى الوراء ، وتغوص وتعبث بالماء ، ثم جلست بعد ذلك على حجر غائص فى البحر وهى تسحب الامواج نحوها بيديها . ولكن البرد انتصر عليها فى النهاية ، فصاحت :

— سيريوجا . . ناولنى سروالى .

وطوال هذه المدة كنت اجفف جسدى بالمنشفة دون ان الاحظ ذلك . والتهب جسدى من جراء الحك وكانه احترق ، بينما ظللت احكه واحكه وهو جاف وكاننى اريد ان اسلخه . وفى غمار الحيرة البائسة الوضيعة التى داهمتنى ظل يتردد داخلى أمل واحد واضح : ان أبقى بعيدا عن فضيحة فيتكا !

وقال ذو المايوه الاحمر بصوت رفيع هازئ :

— سيريوجا . . ناول سيدتك سروالها !

ودار ايجور مرتكزا على مرفقه وقال متوعدا :

— اياك ان تحاول !

تحذير بلا معنى ، فما كنت لانوى التحرك من مكانى . وأدركت فيتكا عبث انتظار مساعدة منى فخرجت من الماء متقلصة بشكل يدعو للرثاء ، وكمشت جسدها كله فى بطنها النحيل ، ساترة اياه بيديها ، مزرقة اللون مجببة من البرد ، مقلوبة السحنة . وركضت بجنبها نحو سروالها بين ضحك الصبية وصفيرهم ، واصبح الامر الذى لم تكن تلقى له بالا فى اعماق روحها الطاهرة وضيعا ومهينا ومخزيا .

وارتدت ملابسها كيفما اتفق وهى تقفز على احدى قدميها بينما القدم الاخرى لا تدخل فى فتحة السروال ، ثم التقطت منشفتها من الارض وركضت مبتعدة ، وفجاة التفتت الىّ وصرخت :

— جبان . . جبان . . جبان حقير!

من بين جميع الكلمات اختارت فيتكا اكثرها ايذاء واهانة

وظلما . لقد كان عليها أن تفهم أن ما خشيته لم يكن قبضات ايجور ، ولكن يبدو انها ارادت ان تفضحنى تماما أمام الصبية .

ولست أدرى هل كانت هذه احدى نزوات الزعيم الذى لم يشأ أن ينساق وراء القطيع ، أم ان شيئا ما فى فيتكا أثار اهتمام ايجور ، فقد سألنى فجأة ببرودة وثقة :

— اسمع . . ما بها ؟ أهى معتوهة ؟

— طبعا معتوهة — اجبت فاتحا صدرى لهذه الطيبة .

— ولماذا تصاحبها ؟

فقلت لا رغبة فى مدح فيتكا بل لاحمى نفسى :

— صداقتها مسلية ، فهى تجمع الصدى .

— ماذا ؟ — قال ايجور باندهاش .

فافضيت له فى الحال بكل أسرار فيتكا فى دفقة صراحة ممتنة وطيعة .

قال ايجور باعجاب :

— يا سلام ! هذا ثالث صيف اقضيه هنا ، ولم اسمع شيئا من هذا القبيل .

وسألنى الصبى ذو المايوه الاحمر :

— أليست هذه فشرة ؟

— اذا شئتم افرجكم .

— انتهينا — قال ايجور بلهجة السيد فعاد من جديد زعيما — غدا تقودنا الى هناك ! . . .

فى الصباح كانت الدنيا تمطر رذاذا ، ولف الجبال سحاب أبيض مائل الى الزرقة كانه رغوة صابون ، واختلط هدير الجداول والنهيرات الممتلئة مع صخب البحر المكفهر العاصف الذى يشبه لون العشب الجبلى .

غير ان عصابة ايجور قررت ألا تتراجع . وها هو الدرب الذى صار معروفا يتعرج من جديد تحت اقدامنا ، وفى وسطه يجرى جدول أصفر عكر يدفع فى طريقه الحصى . ولم تعد رائحة حرج البندق عسلية حلوة بها طعم مرارة خفيفة ، بل أصبحت عطنة بفعل الاوراق التى سقطت

على الارض وحامضة من جراء التربة الموحلة التى كان يتحلل فيها شيء ما ، باعثا رائحة خمر مختلط بخل . كان السير شاقا والاقدام تتزلق على الارض المبللة والاحجار . . .

وبجوار كوخ الحطاب قوبلنا بنباح كلبى الحراسة العالى المالوف . لكن نباحهما كان يتردد فى الهواء الرطب اكثر نعومة وانخفاضا ، وحتى الكلبان ذاتهما لم يعودا يبدوان رهيبين الى تلك الدرجة بشعرهما المبلل المتهدل . وظهرت عيونهما السوداء كحبات الزيتون .

وها هو حرج البندق المريض الموبوء بصرصور الخشب ، وقد نزع الهواء والمطر وريقاته الضعيفة المثقوبة فوقف عاريا بائسا ، ومن خلاله ظهرت صفحة البحر المكفهرة .

وظل اصبع الشيطان الملفع بالسحاب مختفيا فترة طويلة ، واخيرا لاحت قمته الداكنة فى الاعالى الشاهقة ثم اختفت ، وللحظة خاطفة ظهر جذعه بالكامل ، وفى لحظة ذاب فى الهواء المتصاعد . والغريب ان الريح كانت تهب تجاه البحر ، بينما سحب خفيفة كبخار الزفير جاءت من ناحية البحر ، وانزلقت على الارض وغطتنا بضباب رطب ، ثم اختفت فجاة وتحولت الى ندى استقر على المنحدرات .

واخيرا ظهر اصبع الشيطان من بين السحب الملبدة وسد علينا الطريق .

وقال ايجور دون ان يبتسم :

— هيا ارنا معجزاتك .

— اسمعوا . . . — قلت بنشوة وشعرت بالبرودة المالوفة تسرى فى عمودى الفقرى ، وصنعت من راحتى بوقا حول فمى وصحت :

— او هو — هو !

كان الرد سكونا مطبقا ، لا ذلك الهمس الماكر المتسلل ، ولا الرشة المقهقهة من جهة البحر ، ولا الانين فى الاعالى .

— او — هو — هو ! — صحت مرة اخرى وقد اقتربت

اكثر من اصبع الشيطان ، وكرر الصبية ندائى باصوات متفرقة .

وظل اصبع الشيطان صامتا . وصحنا مرة ومرة دون ان نحظى باية اجابة ! عندئذ اندفعت نحو الهاوية والصبية من ورائى وصرخت بكل ما فى من قوة فى الاعماق المليئة بالابخرة المتصاعدة . غير ان المارد أيضا لم يرد علىّ .

واستولى على الاضطراب ، فركضت من الهاوية الى اصبع الشيطان ، ومن اصبع الشيطان الى الشق الضيق ، ثم ثانية الى الهاوية ثم الى اصبع الشيطان . . . لكن الجبال ظلت صامتة . . .

واخذت اقنع الصبية باستعطاف ان نصعد الى اعلى ، الى المغارة ، فهناك حتما سنسمع الصدى . لكن الصبية وقفوا امامى صامتين صارمين كالجبال ، ثم فتح ايجور شفتيه المضمومتين ليقول كلمة واحدة فحسب :

— ثرثار !

واستدار بحدة وابتعد ، ساحبا العصابة كلها خلفه .

وجرجرت قدمى وراءهم محاولا عبثا ان أفهم كنه ما حدث . لم يكن يهمنى الآن احتقار الصبية لى ، بل أردت فقط ان أعرف سر فشلى . أمن المعقول ان الجبال لا ترد الا على صوت فيتكا ؟ ولكن الجبال جاوبتنى أنا أيضا بكل طاعة عندما كنا معا . لعل فيتكا تملك حقا مفتاحا يمكنها من حبس الاصوات فى كهوف الجبل ؟

وحلت أيام حزينة . لقد فقدت فيتكا . وحتى أمى أدانتنى . وعندما حدثتها عن واقعة الصدى الغامضة رمقتنى بنظرة جفاء طويلة فاحصة وقالت بحزن :

— الامر بسيط . ان الجبال لا ترد الا على الاطهار الشرفاء . . .

وكشفت لى كلماتها عن اشياء كثيرة ما عدا لغز الصدى الجبلى .

ولم تكف الامطار عن الهطول ، وبدا كما لو ان البحر انقسم قسمين : فقد كان فى البوغاز أصفر عكرا من جراء

الرمال التي جرفتها الانهار والسيول ، بينما لمع جسده النظيف فى البعد . وهبت الرياح بلا انقطاع ، فى الصباح تلوّح بملاءة رمادية من الامطار ، وفى الليل — الذى كان دائما صحوا مرصعا بالنجوم البيضاء الدقيقة — تصبح سوداء وجافة ، لانها لا تكشف عن وجهها الا فى السواد : فى الفروع والغصون والجذوع المتارجحة ، وفى الظلال السوداء كالفحم الراكضة على الارض المضاءة .

ولمحت فيتكا عدة مرات . كانت تخرج الى البحر فى كل حالات الجو ، واستطاعت ان تجمع من الشمس النادرة الشحيحة سمرة غليظة كالشيكولاتة . ومن الملل والوحدة رحت ارافق امى كل يوم الى السوق ، حيث كانت تباع المنتجات المحلية : الخضروات والمشمش ولبن الماعز واللبن الرائب . وفى احدى المرات قابلت فيتكا فى السوق . كانت وحدها ، تتدلى من يدها حقيبة مجدولة . واخذت انظر اليها وهى تسير بين الصوانى واوعية اللبن ، فى سروالها الاصفر الازرق المخطط ، وتختار بحزم حبات الطماطم وتلقى على الميزان قطعة اللحم ، فاحسست والالم يعصرنى أننى فقدت صديقا طيبا .

فى صباح أول يوم مشمس كنت اتجول فى الحديقة اجمع ثمار المشمش الساقطة والتى اصابها تعفن بسيط عندما دعانى شخص ما . وعند باب السور وقفت فتاة ترتدى بلوزة بيضاء بياقة بحارى زرقاء وجوب زرقاء . لقد كانت تلك فيتكا ، ولكنى لم اتعرف عليها للوهلة الاولى . كان شعرها الأشهب مصففا ناعما ومعقوصا من الخلف بشريط . وعلى عنقها الاسمر عقد مرجانى رفيع ، وفى قدميها حذاء من جلد الأيل . واندفعت نحوها .

قالت فيتكا :

— اسمع ، نحن راحلون .

— لماذا ؟

— امى ملت الاقامة هنا . . اسمعنى . . اننى اريد ان اترك لك مجموعتى ، فانا على اى حال لست بحاجة اليها ، وتستطيع أنت أن تعرضها على الصبية وتتصالح معهم .

فصحت بحرارة :

— لن اعرضها على أحد !

— كما تشاء ، فلتبق لديك . . هل ادركت لماذا لم توفقوا ؟

— وكيف عرفت أننا لم نوفق ؟

— سمعت . . هل ادركت لماذا ؟

— كلا . .

— اتفهم . . أهم شيء هو اختيار المكان الذى تصيح منه — وخفضت فيتكا صوتها موحية بالثقة — عند اصبع الشيطان صح فقط من جهة البحر ، ولكنك فيما يبدو صحت من الجهة الاخرى حيث لا صدى هناك . وعند الهاوية عليك ان تتدلى الى أسفل وتصيح مباشرة فى الحائط . أتذكر . . لقد جعلتك ساعتها تخفض راسك . . وعند الشق الصغير صح فى الداخل لكى يصل صوتك الى الاعماق ، اما المغارة فتردد الصدى دائما ، غير انكم لم تذهبوا اليها . وكذلك عند الصخور . . .

وشرعت اقول بندم :

— فيتكا ! . . .

وتقلص وجهها النحيل :

— ساجرى والا فاتنى الباص .

— هل سنتقابل فى موسكو ؟

فهزت فيتكا راسها نفيا :

— نحن نسكن فى خاركوف .

— وهل ستجيئون الى هنا مرة أخرى ؟

— لست أدرى . . حسنا ، الى اللقاء .

وأمالت فيتكا راسها على كتفها بخجل وانطلقت راكضة .

ووقفت أمى عند باب الحديقة ونظرت فى أثر فيتكا نظرة طويلة ممعنة ، ثم سالتنى بشىء من الفرحة :

— من هذه الفتاة ؟

— انها فيتكا التى تقطن عند العمة تاراكانيخا .

فقالت أمى بصوت عميق :

– يالها من مخلوقة ساحرة !

– كلا ، قلت لك انها فيتكا !

– لست صماء . . – ونظرت امي من جديد الى الجهة التى ركضت نحوها فيتكا – يالها من فتاة رائعـــة ! هذا الانف الاقعى ، والشعر الرمادي ، والعينان المدهشتان ، والقوام الممشوق ، والقدمان الصغيرتان ، والراحتان . . .

فصرخت محزونا لهذا العمى الغريب الذى اصاب امى ، والذى بدا لى مهينا لفيتكا بشكل ما :

– ماما ، ماذا تقولين ! لو انك رايت فمها !

– فم كبير رائع ! انت لا تفهم شيئا على الاطلاق . . .

واتجهت امى الى المنزل ، بينما ظللت احدق فى ظهرها لعدة ثوان ، ثم افقت وانطلقت راكضا نحو محطة الباص .

لم يكن الباص قـــد تحرك بعد ، وكان آخر الركاب يقتحمون الابواب محملين بالحقائب والامتعة . وعلى الفور رايت فيتكا جالسة فى الجهـــة المحظور فتح نوافذها . وبجوارها جلست امراة ممتلئة ، سوداء الشعر ، ترتدى ثوبا احمر ، امها .

وراتنى فيتكا أيضـــا . فامسكت باطار النافذة لكى تفتحها ، لكن أمها قالت لها شيئا ما وامسكت كتفها وهى تريد على ما يبدو ارغامها على الجلوس فى مكانها ، لكن فيتكا تخلصت من يدها بحركة حادة .

وزأر المحرك ، وزحف الباص ببطء فوق الطريق الترابى ساحبا خلفه ذيلا ذهبيا من الغبار . وسرت بجواره ، وشدت فيتكا الاطار بقوة وهى تعض على شفتهـــا فانفتحت النافذة بجلبة . كان من الاسهل على ان اعتبر فيتكا جميلـــة فى غيابها ، فنا باها الحادتان ونمشها الداكن المنتشر على وجهها كله افسد تلك الصورة التى أعادت امى خلقهـــا وآمنت انا بها .

وقلت بسرعة :

– اسمعى يا فيتكا ، لقد قالت أمى أنك جميلـــة . شعرك جميل ، وعيناك وفمك ، وأنفك . . . – وازدادت

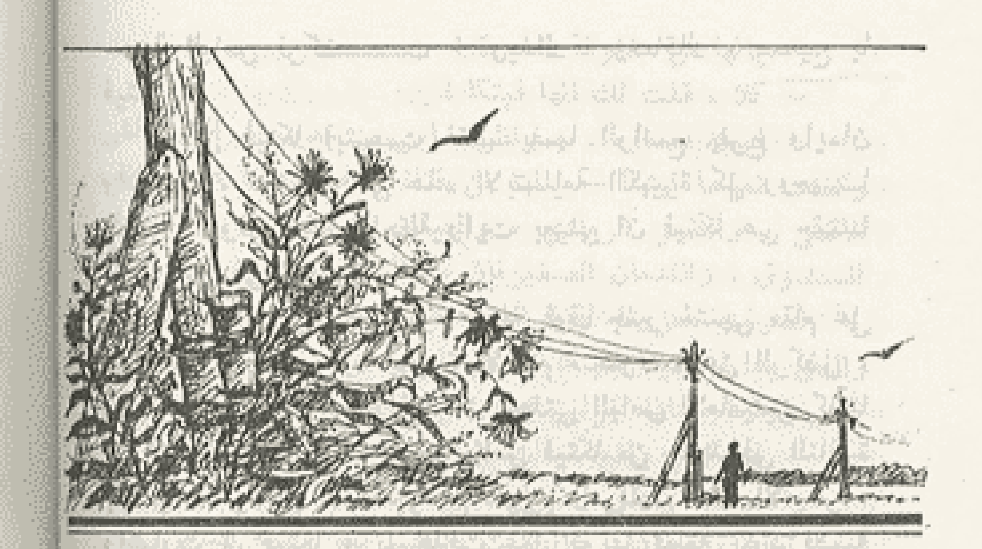
سرعة الباص فركضـــت – ويداك ، وساقاك . صحيح يا فيتكا !

ولكن فيتكا ابتسمت فقط بفمها الواسع بفرح وايمان واخلاص ، فكشفت فى هذه الابتسامة الكبيرة كل روحهـــا الطيبة . وفى هذه اللحظة رايت بعينى ان فيتكا هى حقـــا اجمل فتاة فى العالم .

وعبر الباص وهو ينوء بثقله فوق جسر خشبى مقام على نهير صغير هو حدود جزيرة الاحلام ، فتوقفت عن الركض ، وضج الجسر وتارجح ، غير ان عجلتى الباص الاماميتين كانتا قد تشبثتا بالطريق . وظهر راس فيتكا من جديد فى النافذة بشعرها الرمادي المتطاير مع الريح ومرفقها الحاد الاسمر . واشارت لى فيتكا ، ثم قذفت بكل قوتها قطعة نقود فضية عبر النهير . ولمع أثرها البراق فى الهواء وانطفأ فى التراب تحت قدمى . لقد كان هناك فال طيب ، وهو انك اذا القيت هنا قطعة نقود فلا بد انك ستعود يوما . . .

واصبحت اود ان يحل يوم رحيلنا باسرع ما يمكن ، وساعتها سألقى انا أيضا بقطعة نقود ، وهكذا ألتقى بفيتكا مرة ثانية .

غير انه لم يقدر لهذا اللقاء أن يتم ، فعندما رحلنا عن جزيرة الاحلام بعد شهر ، نسيت أن ألقى بقطعة النقود .



قلب آخر

وقف كوستروف بجوار النافذة يحدق فى فناء المستشفى ، او بالأحرى فى ذلك الركن الصغير المحصور بين جدار قسم الجراحة الأصفر المتساقط الطلاء وبين البوابة الحديدية الصدئة الموصدة دوماً . وفى هذه البقعة من الكون آوت كذلك شجرة نحيلة قصيرة ، عارية من الأوراق فى هذا الوقت المبكر من الربيع . ولم يكن كوستروف يعرف نوعها . وكان خلف الشجرة باب يبدو وكأنه جزء من الجدار ، وبالقرب منه جرة قمامة مقلوبة على جنبها . وفوق كل ذلك امتد قماش السماء الأزرق المتساوى المشدود . ظل كوستروف يحدق فى الفناء زهاء نصف ساعة ، بيد ان ادراكه لما يراه لم يتعمق ولم يصبح اكثر قرباً . ظل الجدار الأصفر ، والبوابة ، والباب ، وحتى الشجرة الحزينة ، غريبة عنه . ربما كانت السماء وحدها هى التى وجدت فى نفسه استجابة ضعيفة ، كأنما لحن شبه منسى سمعه فى أيام الصبا . كان

ينفذ لاإراديا أمر الطبيب : كل ما يتعلق بالمرض اتركه هنا ، لا تأخذ معك الى الخارج شيئا ، لا نحن ، اطباءك ، ولا ذكرى جو المستشفى ، ولا آلامك الخاصة ومخاوفك وشكوكك . كل هذا مرحلة تجاوزتها ، ولن يكون عليك ان تواجه بعد الآن ما كان يمثل المحتوى الرئيسى لحياتك فترة طويلة . لا ترهق عقلك بنفايات لا لزوم لها . يا لها من نصيحة رائعة ! ولقد سار كوستروف عليها بالفعل ، فكان لا يدع ما يراه يدخل الى نفسه ، ولا يستجيب لشىء غير السماء ، فهى فى جميع الاحوال ستلقاه فى الخارج بنفس الصورة التى تبدو فيها من نافذة المستشفى هذه .

نعم ، لقد خلّص ذاكرته من كل عبء ، حتى من الامتنان لأولئك الذين أنقذوا حياته . فعلام ينبغى ان يشكرهم ؟ هل حقا انقذه الاطباء من الموت ، هو كوستروف ، الفريد الذى لا يتكرر ؟ كلا ، بل قاموا بتجربة أخرى من تجاربهم ، تجربة مخيفة بعض الشىء فى جسارتها . وظهر انه كوستروف ، فأر تجارب قابل للحياة بصورة مدهشة ، أرنب سعيد الحظ . فقد كان أول حيوان تجارب يعيش الى النهاية ، حتى وفاته بعد عمر طويل والتى لا دخل للتجربة فيها . لقد بقي حيا واصبح اعظم اثارة شهدها العصر . أول انسان يعيش بقلب آخر .

بالطبع كان له أسلاف ، فكم مرة نبضت القلوب البشرية فى صدور آخرين ، ولكن هذا الوجود الوهمى لم يقدر له ان يصبح حياة . فبعد ان تعيش اشباه الجثث الحية من بضع ساعات حتى بضعة أشهر ، كانت تتحول الى جثث . كانوا جميعا مجرد حملة اصطناعيين لقلوب غريبة . اما هو فكان أول من تحققت فيه معجزة التحام عناصر احد الاشخاص بعناصر قلب شخص آخر . نعم ، تحققت ، ولم يعد فى ذلك أدنى شك منذ زمن بعيد ، ولم يكن احتفاظهم به فى المستشفى من أجل مصلحته الخاصة ، بل من اجل المصلحة العلمية . ومع ذلك فقد خيل اليه احياناً ان طبيبه المعالج لا يبدو واثقاً من صلابته النفسية وتهيئته للحياة بقلب آخر .

وقد سأله كوستروف بصراحة : «ما الذى تخشاه ؟» ويبدو ان الطبيب كان يتوقع هذا السؤال ، ومع ذلك لم يكن مستعدا له . ففى صوته العميق الغليظ ظهر لأول مرة شرخ عدم ثقة : «هل قرأت رواية السيرة الذاتية لبيتر فريهن ، الرحالة الدانمركى الشهير ؟» — «كلا ، بل ولم اسمع حتى عنه» — «انه يروى عن شخص هجر مهنة الطب واصبح من رواد القطب . . . فقد جىء الى العيادة التى كان يعمل فيها هذا الطبيب بعامل اصيب فى حادث اصابات بالغة . واستمر الصراع المضنى من اجل حياته شهورا طويلة . لم يكن فى جسد المسكين موضع سليم ، فجمعوا اشلاءه قطعة قطعة ، وخاطوها ولصقوها . وعندما خرج من باب العيادة بخطوات مزعزعة غير واثقة لانسان نسى الحركة والرحابة ليستقبل النور والشمس والحياة ، وقف جميع الاطباء والممرضات والممرضين يودعون بالدموع هذا الرجل الذى اعادوا خلقه . أما آدم الجديد فقد مضى يعبر الشارع ، فاذا بالسيارة الاولى والوحيدة فى كوبنهاجن تنقضّ من خلف الناصية وتسحقه تحت عجلاتها . وأصيب الطبيب الشاب بخيبة أمل فى مهنته ، ومقت المدينة ، ورحل الى الابد الى جرينلندا» .

وسأل كوستروف : «انت تخشى أن افقد حياتى التى اعيدت اليّ على مثل ذلك النحو الأحمق ؟ على أى حال أنا لست معرضا للموت تحت عجلات سيارة» . فدهش الطبيب وسأل : «ولماذا ؟» — «حسب نظرية الاحتمالات ، اذ لا يمكن لنفس القلب ان يتعرض للهلاك مرتين فى حادث سيارة» . لم يكن كوستروف يعرف عن «أبيه الروحى» شيئا ، اللهم الا أن سيارة شحن قلابة قد سحقته ، وشوهته إلى درجة لم تمكنهم من التعرف على شخصيته . ولم يكن مع القتيل هوية ، ولم يأت احد الى المشرحة ليسأل عنه . ومن الجائز ان يكون ذلك كله رواية من تاليف المستشفى ، اذ ليس من المفروض ان يعرف المريض مصدر القلب الذى نقلوه اليه ، غير انه بدا لكوستروف لسبب ما أنهم لم يكذبوا عليه .

قال الطبيب : «لقد فهمت روايتى فهما حرفيا اكثر مما

ينبغى . اذ ليست حركة المرور هى وحدها مصدر الخطر» — «آه ، انت تقصد ان الخطر قد يكون فيّ أنا ، فى شطحات عقلى ؟» — «عقلك لا بأس به ، المؤسف انك لم تقرأ كثيرا ، وثقافتك ضعيفة» . فقال كوستروف ضاحكا : «وهل ما قرأته قليل حقا ؟» — «اذا كنت تعنى روايات من نوع «كنوز الملك سليمان» فان ما قرأته كثير للغاية ، ولكنى اتكلم عن الكتب الحقيقية التى تؤهلك لفهم نفسك ومـا يجرى حولك . . . حسنا ، لا تشغل بالك بالبحث الاخلاقى فى خبايا نفسك ، وانسَ تلك الاساطير التى نسجتها اجيال من الثرثارين عن عضو بسيط وبدائى يدعى القلب . لقد أجريت لك عملية لا تختلف فى شىء عن عملية زرع الكلية على سبيل المثال . ان العلم سيتوصل فى زمن ما إلى احلال وابدال جميع الاعضاء ، وسيصبح ذلك شيئا عادياً . ولكنك أول حالة من هذا النوع ، وسيكون عليك ان تعيش بين أناس كثيرا ما يكونون فضوليين ولحوحين وقليلى الذوق ، فلا تدع احداً يفسد عليك حياتك . وتذكر جيدا : ان القلب الذى ينبض بهذه الروعة والانتظام فى صدرك هو قلبك **أنت** . لقد حصلت عليه عن استحقاق . فدعك تماما من اى غيبيات أو تحليلات نفسية دوستويفسكية . عليك ان تبدأ الآن حياة جديدة رائعة . فأنت لم تعرف ابداً فى حياتك ما معنى ان يكون الانسان فى كامل صحته . فلتحاول ان تستغل هذه الحياة الجديدة بصورة افضل ، فأنت أول انسان يتاح له أن يبدأ صفحة نظيفة من حياته» .

وهكذا لم يدرك كوستروف تماما ما الذى كان يخشاه الطبيب . يبدو انه كان يخشى صدام الصحة الجديدة بالنفسية القديمة التى سممها طول المرض . وقرر كوستروف فى نفسه : «ثقافتى لا تؤهلنى لفهم كل ذلك . اننى لا أعرف حتى الكلمات التى يمكن ان افكر بواسطتها فى هذه الأمور . ولكننى أشعر ان هناك ما يستدعى القلق ، وان كنت لا استطيع ان احدد شيئا . . .» .

وقع كوستروف فريسة للمرض منذ الطفولة . وفى

الواقع لم يكن صحيحا الا فى عامه الأول ، عندما كان لا يزال تحت حماية قوى جسد الام الواقية . لكنه لا يذكر بالطبع عام الرضاعة هذا . تفتحت ذاكرته على التهاب اللوز : الكمادات على الزور ، ورطوبة الملاءات البخارية الساخنة من حرارة جسده ، والمائدة الصغيرة وعليها الأدوية ، وميزان الحرارة الزلق تحت الابط ، واصابع الطبيب الباردة وقرص السماعة الزاحف على صدره وظهره . ثم استأصلوا له اللوزتين فيما بعد ، فاختفى التهاب اللوز ولكن بعد أن فعل فعله الأسود ، فما ان بلغ العاشرة حتى اصبح مصابا بروماتيزم القلب المتكرر . وبدأ التردد على مصحات الاطفال ، وبدات طفولة غريبة ، غير حقيقية ، بجوار الموت ، مع فترات غياب مستمرة عن البيت والأسرة ، وشبه دراسة ، كثيراً ما تتخللها اسابيع بل اشهر من الرقاد بلا حركة ، طفولة خالية من كرة القدم والدراجة ، مع مراعاة لكل حركة ، ومع كل صنوف الخوف : خوف ليلى لزج ، وخوف نهارى مقبض ، ينشب اظفاره فى المخ فى لحظات المرح القليلة والنسيان القصير . ولم يكن يعرف الى اى مدى يعانى رفاقه مثل هذا الخوف ، اذ لم يتحدث الاطفال ابدا عن المرض ، ولكنه كان يعرف انهم هم ايضا يعيشون فى ظل الخوف ، وفى وعى دائم بعاهتهم ونقصهم واختلافهم عن الاطفال الآخرين الطبيعيين . وشغف بالقراءات التافهة ليكبت ما فى نفسه بروايات المغامرات كأنها مخدرات . وكان يدرس بكسل وباهمال وهو لا يؤمن بأن علوم المدرسة ستنفعه يوما ما . ولم يتقدم للالتحاق بالجامعة ، بل أنهى دورة بسيطة فى الرسم الهندسى . واذا بصحته تتحسن على نحو مفاجئ . اختفى الضعف الدائم والعرق وتلاحق الانفاس والخفقان ، واصبح بوسعه الآن ان يصعد الى الطابق الثالث دون ان يلهث ، ولم يعد يستيقظ فى نصف الليل مفزوعاً خشية ان يكون قلبه قد توقف . لقد كشف جسد الصبى ، وهو يتحول الى جسد شاب بالغ عن موارد قوة خفية ، فآمن عن صدق بانه قد فاز بالورقة الرابحة الوحيدة والمستحيلة ، ورقة

النجاة . وتزوج ، واخذ يستعد للالتحاق بالجامعة ، وهنا ، وهو على عتبة العام الثالث والعشرين من عمره ، حدث فجأة تدهور حاد ، أفضى به الى المستشفى ، ثم اصيب باستسقاء وركود فى الدورة الدموية الكبرى ، وانتفاخات ، ثم الحكم الرهيب الذى كان يقرأه فى عيون الأطباء ، ثم الشفاء المباغت عن طريق قلب آخر ، صحيح ، ينبض فى صدره .

قلب صحيح بصورة مدهشة ، وهذا حكم كان بوسعه هو أن يصدره . ترى هل كان صاحب هذا القلب السابق يشعر بكماله كسعادة مستمرة ، أم انه لم يكن يعيره انتباها ؟ وهل يشعر هو ، كوستروف ، بالفرحة من أنفه ، واذنيه ، ومعدته ، ورئتيه ؟ كلا . غير انه يحس طوال الوقت بالقلب الجديد الذى يهبه تنفسا هادئاً منتظما عميقا ، ونبضا مضبوطا كحركة بندول الايقاع ، ودغدغة بهيجة خلف الكتفين ، كأنما نبت هناك جناحان . وخيل اليه انه لو ركض مندفعا ثم قفز ، فسوف يطير ، فما اعظم الخفة والقوة التى تملكت جسده . جميع الحركات البسيطة التى كانت فى السابق جد مرهقة ، كالانحناء لربط الحذاء ، والنهوض من الفراش بعد النوم . ورفع شىء وقع منه على الأرض . والتى كان ينبغى ان يدفع ثمنها تسارعاً فى خفقان القلب ، وظلاما فى العينين يشبه الاغماء ، ورطوبة كريهة على الجبين . . اصبحت الآن تجلب له المتعة . «واذن فبهذه السهولة يحيا الناس !» وتصور المفاجآت الكثيرة التى تنتظره بعد خروجه من المستشفى : القفز الى الترام وهو يتحرك ، والركض صعودا على السلم الى شقته متجاهلاً المصعد . سيكون بوسعه ان يتردد على حمام السباحة المكشوف فى ميدان كروبوتكينسكايا ليستحم فى الصقيع محتميا ببخاره المتصاعد ، ويمارس تسلق الجبال . سوف يشترى مضرب تنس بأوتار مشدودة رنانة ، هذا المضرب الذى الهب خياله كثيرا فى ايام الطفولة ، ودراجة خفيفة ، معروقة كدراجات السباق . سيكون بوسعه ان يتسكع ما وسعه التسكع فى شوارع موسكو . وأن يرحل الى خارج المدينة ، ويجمع

الفطر والثمار ، ويشارك فى الجولات السياحية ، ويمارس القنص وصيد الأسماك . سوف يمرن جسده ويجعله كالحديد ، لكى يكون جديرا بالقلب الجديد العظيم . وسيأخذ من الحياة البدنية كل ما فيها ولا يترك شيئا ، ولن يدخن ، ولكنه حتما سيتعلم شرب الفودكا والخمر .

ظن كوستروف ان الطبيب سيسعى الى رؤيته قبل مغادرته المستشفى ، ولكن ذلك لم يحدث . الظاهر انه تعمد ذلك . . قطع الرسن ، وترك لكوستروف حرية دخول الحياة الجديدة بصورة مستقلة . وربما كان على حق . وهبط كوستروف دون ادنى ارتباك على درجات سلم المستشفى المتآكلة الى هذه الحياة الجديدة ، الى احضان امه وزوجته ودموعهما ، الى ايديهما المتحسسة لوجهه وكتفيه فى عجز . ومع ذلك شعر بشىء من الأسف لعدم رؤية الطبيب ثانية فقد بقيت امور لم يفصح عنها . . .

لم يفهم كوستروف لماذا تبكى هاتان المرأتان بحرقة ، ولماذا تتشبث ايديهما به على هذا النحو . إما انهما تخشيان ان يختفى فجأة ، او تتشككان فى حقيقة وجوده . واحس بفقدان الألفة نحوهما ، وبالنفور من دموعهما الباردة التى بللت خديه وصدغيه ، ومن شفاههما الرطبة ، ومنظرهما غير المهندم بسبب النحيب ، كانتا تعانقانه ، بينما هو يتطلع الى الباب الزجاجى الذى يمتد خلفه الفضاء الرحب والهواء والشمس ، فتاق بجنون إلى الانطلاق باسرع ما يمكن الى هناك . واخيراً هدأت المرأتان ، واخرجت زوجته علبة البودرة ، واستولت امه على صرة ملابسه وحاجياته واندفعت الى الشارع ، حيث كانت سيارة تاكسى فى انتظارهم . وبعد صراع قصير — فقد اراد ان يجلس بجوار السائق ، بينما اصرت امه على ان يجلس فى المقعد الخلفى مع زوجته — تحركوا . واخذت زوجته يديه فى يديها بقوة ، فبدا له هذا الحنان الحاد لا لزوم له . لم يشعر بميل الى الملامسات واستعراض القرب . كان يحس بالقرب تجاه الشارع ، والترامات ، والترولى باصات ، والبيوت ، والحشود ، وبائع

البالونات الهوائية ، وبائعات الأيس كريم . وراكبى الدراجات ، والاطفال ، ومنظفى الاحذية ، تجاه اشجار الزيزفون والحور العارية ، تجاه كل ممثل حى او جماد للعالم الخارجى . ولكن هذا القرب لم يكن يشمل هاتين الجالستين بجواره فى علبة التاكسى الحديدية . وراوده أحساس ، وكان كلا المرأتين — العجوز والشابة — قد فرضتا عليه سلطان حنانهما ممارسةً لحق مشكوك فيه ، معروف لهما وحدهما . ولكنه كان عائداً من رحلة جد بعيدة بحيث ينخرط بهذه البساطة فى الحياة السابقة .

وقالت امه باكية :

— مالك لا تسأل عن شىء ؟ تصمت كانك غريب ! . .

فقال كوستروف بدهشة صادقة :

— وعمَّ ينبغى ان اسأل ؟

— حسنا ، عن حياتنا بدونك . . عن اصدقائك ، عن احوال المصنع . . .

«سهل ان اتصور كيف عشتم بدونى ، ولكن هل كان لدي اصدقاء ؟ لا استطيع ان اتذكر . كان يتردد علينا ضيوف ، ولكنهم كانوا يشربون ويأكلون ويدخنون ويصخبون بافراط ، يصعب معه ان اشعر وسطهم بالندية . اما الاحوال فى المصنع فهى ، بصراحة ، لا تهمنى مطلقاً . امى مديرة ، ومن المفهوم ان كل شىء هناك يعنيها ويثير اهتمامها ، اما انا ، الرسام الهندسي العادى ، فبوسعى ، اى والله ، الا ارهق نفسى المتعبة بمثل هذه الهموم» . وقال بصوت مسموع لم يتوقعه هو نفسه :

— لن أعود إلى المصنع .

فصاحت امه بذعر :

— ماذا تقول ؟

— سأستعد للالتحاق بالجامعة .

— برافو ! — وشهقت أمه بسعادة كالاطفال .

«كم عذبها اننى لم احصل على تعليم عالٍ ! ولكنها لم توجه لى ابداً كلمة لوم واحدة . ومع ذلك فما اروع ان

تكون لك أم ممتازة مثلها ، تسمح لك ، انت ابنها المتزوج ، بأن تدرس دون ان تعمل !» ونظر الى قفا امه ، الى حزمة الشعر الرمادى الخفيفة ، المستقرة على ياقة الفراء الناحلة قليلا لمعطف رجالى رائع ، وفكر ببرود فى ان امـه التى عملت طول حياتها فى مصنع خياطة ملابس ، لم تتعلم مع ذلك كيف تنتقى ثيابها .

وسألته امه :

– الست الآن فى كامل صحتك ؟

فاجاب شارداً :

– طبعا . . .

وفجاة اعتوره القلق . . فقد غادرت السيـارة حى المستشفى الهادئ واندفعت الآن فى طريق «سادوفويه كلتسو» الدائرى بين تيار السيارات المتدفق . وخيل اليه ان السائق يقود السيارة باهمال وتهور . يبدو انه نسى حركة المرور المجنونة فى شوارع موسكو ، كما انه نادرا ما كان يستقل التاكسى ، وخاصة اثناء النهـار . احتواهم الشارع بسرعة مع غيرهم من سيارات الركوب والشاحنات ، والقلابات الرهيبـة ، والباصـات ، والترولى باصات والموتوسيكلات المندفعة ، وشفطهم فى افواه الانفاق الضيقة المظلمة ، فاحس بكل خلية فى بدنه بأن ذلك لن ينتهى على خير ، وبانهم سيضغطون وينسحقون ويبططون كعلبـة ماكولات محفوظة فارغة . وكانت امه تتحدث عن شيء ما ، لا بد أنها كانت تفضى باخبارها العادية ، ولكنه لم يكن يصغى اليها ، بل كان يحس بالضيق من صوتها الذى بدا وكانه يريد ان يلهيه ويصرف انتباهه عن الكارثة المحتمة الوشيكة ، وبالفعل حدث ما توقع : فقـد صرّت فرامل السيارة بحدة ، ودفعته قوة الى الأمام ثم ردته الى الخلف فصرخ صرخة ملتاعة ، واغمى عليه للحظة . وعندما عاد الى رشده ، كانت السيارة تواصل سيرها فى هدوء ، وكانت صفرة الموت تعلو وجهى أمه وزوجته .

ودمدم كوستروف :

– خيّل الىّ اننا اصطدمنا . . .

فاجاب السائق بمرح :

– كلا ، هى سيارة «بيكاب» خرجت عن حارتها .

وقالت امه محزونة :

– لم تكن عصبيا هكذا من قبل .

فقال كوستروف بسخرية مزيفة :

– لا أرغب فى العودة ثانية الى العالم الآخر ! الناس دائما يخشون على الاشياء الجديدة ، وأنا كانى صُنعت من جديد .

كان يدرك انه يقول غير ما ينبغى على الاطلاق ، ولكنه لم يفهم سبب هلعه المرعب . . .

. . . ثم كان «بيت الآباء» ، شقة صغيرة من غرفتين ، حيث كان يشغل هو وزوجته الغرفة الكبرى ، وتشغل امه الغرفة الصغرى . وطاف كوستروف بنظره دون اى تعاطف على الأثاث الفنلندى الفاتح اللون ذى الكسوة الحمراء ، وعلى طاولة رسمه المثبتة عليها ورقـة رسم بالدبابيس ، وعلى الكنبة المزدوجة العريضة المنخفضـة التى لا تنتمى لطاقم الأثاث . لقد اتضح له أنه غير متعلق بالبيت . وفجأة دهمه الحزن . فعندما آمن انه سوف يحيا ، انبثقت فى نفسه بقوة وحنين صورة البيت ، والحب العائلى ، والثقة والراحة وملأت عليه روحه بدفء شافٍ ، دون أن تتجسد فى اشخاص أو اشياء محددة . يبدو انه وقع ثمة خلط بين المستقبـل والماضى . فهو ، كشخص دفعه المرض إلى نوع من الانغلاق الأنانى العابس ، لم يكن يتميز ابدا بذلك الذوبـان فى السعادة العائلية ، ولا بذلك الحب المتهلل الدامع للأقارب ، والذى داعب آماله وهو فى وحدته على سرير المرض . وربما سيرافقه ذلك الآن ، عندما سيصبح فى وسعه أن يعيش مندمجا فيما حوله بصورة أشمل وأعرض وأعمق .

ومن جديد احس بنوع من الزيف فى افكاره .

– أليس لديكم ما نتبلّغ به ؟ – قال بلهجة مازحة فى

محاولة لتبديد برودة اللقاء غير المفهومة — لقد أصبحت شرها كذئب .

فابتسمت الأم ابتسامة مغتصبة وقالت :

— أوه ! يا له من غداء أعددناه ! — وأجهشت فجأة بالبكاء ، بل تفجرت الدموع الصغيرة من عينيها الخضراوين الكابيتين .

— ماذا بك ؟ — سألها كوستروف مخفيا استياءه وراء ستار الاهتمام .

— لا شيء . . ارجوك افهمني . . ما اعظمها سعادة !

«أمي أيضا تكذب — لاحظ كوستروف في نفسه — ترى هل ستكذب زوجتي كذلك ؟ . .»

لم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة الابقليل عندما نهضوا ليناموا . لم تسر الأمور على ما يرام ، رغم ان كل شيء بدا من الظاهر كما ينبغي . فقد كان الغداء موفقا ، وكانت هناك مكالمات هاتفية منفعلة من اصدقاء أمه واصدقائه ، ولم يطرح احد أسئلة غير لبقة ، وكان الجميع رقيقين ومهذبين ، بيد ان ذلك كله لم يحرك فيه ساكنا ، ولم يشعر بوجود صلة بينه وبين الناس . كانوا قد قرروا الا يدعوا احدا ، وان يقضوا هذه الأمسية غير العادية في محيط الأسرة ، ولكنهم تفرقوا مبكرا على غير المتوقع ، لأنهم لم يجدوا ما يقولونه . فزوجته ، الصموت بطبعها ، احكمت على نفسها اقفال الصمت ، اما أمه فلم تستطع وحدها ان تجاري الحديث رغم اقبالها المتعمد على الثرثرة . لو ان ابنها سأل عن شيء ، او اظهر حتى ادنى اهتمام بحياتهم ، لكنه لزم الصمت ، وفي احيان نادرة كان يبتسم في شرود . وفجأة ، كأنما حل بها التعب دفعة واحدة وانهارت روحها ، صمتت الأم ، ثم زفرت زفرة طويلة ثقيلة ، ودمدمت وكأنها تحدث نفسها : «لا اهمية لأي شيء ، المهم انك عدت» ، وانصرفت الى غرفتها .

هل عاد حقا ؟ . . هذا بالذات ما لم يكن كوستروف واثقا منه . فهو لايمكن ان يعود بالمعنى الكامل للكلمة الا إلى

المرض ، ولكن المرض غير موجود ، ولهذا لم يستطع ان يدرك الوسط المحيط به كشيء معتاد ، كشكل لوجوده .

وسألته زوجته :

— هل أنام على السرير السفري ؟

فضحك كوستروف :

— لماذا ؟ أحقا نسيتني الى هذه الدرجة ؟ . . .

وفجأة امسك عن الكلام في حرج غير مفهوم . وللحظة خيل اليه انه تفوه ببذاءة ما . فقد نسي هو نفسه زوجته الى درجة انه لم يعد يشعر بها واياه «جسدا واحدا» . ورأى بطرف عينه زوجته وهي تفك ازرار بلوزتها البرلون وتتخلص منها بحركة من كتفيها الممتلئتين وتعلقها على ظهر الكرسي . واستحسن الخطوط الناعمة لعنقها وكتفيها . ثم سحبت جوبتها التويد الى اعلى عبر رأسها ، وراح القماش السميك يطلق سراح الجسد ببطء . وتملك الانفعال كوستروف . وانحشر رأس زوجته في القماش الذي اشتبك بذقنها ومشابك شعرها ومشطها . وقال كوستروف لنفسه : «امرأة جميلة . انني محظوظ» .

وصاحت زوجته :

— ادرْ وجهك ! ما لك تحملق هكذا ؟ . . .

حوّل كوستروف عينيه على عجل ، ولم يفطن الا فيما بعد الى ان مثل هذا الحياء لم تشهده علاقتهما فيما مضى ، اذ كانت زوجته تظهر أمامه عارية بلا حرج . واذن فزوجته ايضا تشعر بالغربة عنه . وادهشه انه يفكر فيها وكأنها مستقلة عنه . ترى هل كان يحب زوجته ؟ الأقرب الى الصواب ان المرض هو الذي تحكم فيه في هذا الأمر ايضا . فقد كان متلهفا الى اقتناص فرجة النور التي لاحت في كابوس الظلام ، فتزوج بأول فتاة راقت له . بالطبع لم يكن ذلك حبا . حسنا ، فهل احبته هي ؟

انزلق كوستروف تحت الغطاء . واحس بالسرور من ملمس الملاءة المنشاة المشدودة . ثم تقوس السرير ، وانسكب الجسد الانثوي الكبير بجواره . وطغى على حواسه توق

حيوانى ، مخجل ، مذهل ، لم يجربه قبلاً ، إلى هذا الجسد ، واستدار ، وشد المرأة نحوه بضراوة .

وبعد ذلك بكت . لماذا يبكين دائما ؟ . . وفجأة أصبحت طلقة اللسان ، الأمر الذى لم يعهده فيها من قبل ، وخاصة فى الفراش . قالت انها لم تشعر معه من قبل بمثل هذا السرور والاكتفاء ، ولكنها لسبب ما كانت مضطربة النفس ، كأنما وقع أمر محرم ، أو أنها سرقت شيئا ما من أحد . راحت تتحسس وجهه بأطراف اصابعها المرتعشة المبللة ، وهى تقنع نفسها بأنه هو الشخص الوحيد فى هذا العالم ، الملزم بحمايتها وانقاذها من جميع الشرور . بيد انه لم يعد قادرا على الرد عليها بشىء . وقد أصبح خاويا حتى القاع ، متعبا ولامباليا . فالعاصفة التى حلت محل رقته الضعيفة السابقة ، لم تترك له بقية من قوة للتظاهر المهذب . وأغفـــت بحذر واضعة رأسها تحت ذقنـــــه . فأدرك انهـــــا رغم الدموع والاضطراب ، لم تكن تعيسة الآن . فنومتها المطمئنة ، وحرارة جسدها المتعب ، وتنفسها المنتظم العميق ، كانت دلائل على ما كابدته من انفعالات سارة ومستوفاة .

اما هو فكان مستلقيا بعينين مفتوحتين ، حتى دون ان يحاول النوم ، وخلف النافذة كانت سماء المدينة الليليـــة المشعة ، وابتعدت النجوم ، التى لم تكد تبين فى انعكاسات اضواء المصابيح والاعلانات الكهربائية ، ابتعدت اكثر فاكثر عن الارض . وخيل لكوستروف ان حياته الحقيقية توجد هناك فى مكان ما قرب النجوم النائية .

وفى الصباح ظل طويلا يتأمل وجه زوجته النائم ، هذا الوجه العادى والملفع بالأسرار ، واللامع من عرق النوم . كان بوسع هذا الوجه ان يكشف له عن بعض الاشياء ، او يوحى بها ، او يلمح على الاقل ، لكنه كان مستغلقاً مثل ورقة الرسم البيضاء المثبتة لتوها على طاولة الرسم .

شعرت وهى نائمة بنظرته الثاقبة فائنت انة استياء خفيفة . نحول وجهه ثانية الى النافذة . كان الصباح يهل هناك ، فى ذلك العكر الوردى الأشهب . ومثلما فى كل شىء غير مكتمل ، كان

مستحيلا تقريبا فى هذا العكر استشفاف ملامح ما سيتمخض عنه . كانت هذه الساعـــــة المجردة من التداعيات بلا فائدة لكوستروف . وسيبقى فى وحدته الى ان يستيقظ النهـــار تماما . . .

. . . لم يدرك كوستروف كنه نفسه ولا مكانه فى الحياة التى رُدّت اليه . وكان يتراءى له احيانا انهم اعادوه خطأً إلى مكان آخر . ولم يكن قادراً على البقـــاء فى البيت ولو لمدة قصيرة . لم يرجع ذلك فقط الى ان قلبه الجديد القوى الرائع كان يطالب ببذل الجهد (كان يجبره على التسكع فى المدينة بلا نهاية ويدفعه الى خارجها ، الى حقول أبريل البنية التربة والخمائل العارية المنتفخة البراعم) وانمـــــا لأنه كان يحس بنفسه دخيلاً فى البيت . بالطبع لم يكن ثمة اى حديث عن الاستعداد للالتحاق بالجامعة ، ولكن احداً لم يؤنبه على فراغه . كانت امه وزوجته تعاملانه معاملة شىء ثمين هش سُلِّم لهما كوديعـــــة . وحرصت أمه على الا تخرج عن اطار المعاملات اليومية الضرورية ، اما زوجته ، التى ادركت كنه الليل ، فلم تحاول ان تحطم دائرة الغموض السحرية .

كان يحيا حياة غريبة . فانطلاقات الفرحة الفسيولوجيـــة العارمة – من النزهات ، والتدريبات ، والتردد على حمـــام السباحة – يعقبها ضياع بائس . لم يفهم وجوده لا فى البيت بين الاهل ، ولا بين من يدعون بالأصدقاء حين كان يزورهم . وقد يبدو ان الناس يعيشون فى عالم ضخم ، فى محيط بلا حدود يدعى البشرية . هذا خداع . . فحياتنا تمثيلية بعدد محدود جدا من الشخصيات ، اما الباقى فهم جموع ، كورس باليه او جوقة غناء ، شىء هلامى ، يكاد يكون رمزيا ، لايدخل ضمن اطار مفهومنـــــا عن التفرد . فالاشخاص المحيطـــون بكوستروف الآن دخلوا حياته منذ سنوات طويلة ، ومعظمهم ظهر ايام الطفولة والصبا . وكل منهم يحمل فى ذاته جزءا من الماضى ، الذى لا يعنى كوستروف فى شىء مثلما لا يعنيــــه الحاضر . واحيانا ، وخاصة ليلاً ، فى لحظات الاغفاء او قبيل الاستيقاظ ، كان يتملكـــه ايمان سعيد بأن اهم الاشخاص

والزمهم سوف يظهرون بعد ، وانه غفل فقط عن وجودهم فى كابوس مرضه واحتضاره . ولكنه يستدرك بعد ذلك ان جميع رفاق عمره حاضرون ، اذا ما استثنينا اولئك الذين طواهم الخلود من زمان ، أباه الذى مات بداء القلب وكوستروف لمّا يبلغ الخامسة ، ورفاقـــه فى المصحات الذين قضوا بنفس السبب فى اوقات مختلفة .

وراح يبحث . . . على هذا النحو كان يبحث البشر ، بل وشعوب باكملها ، عن ارض الميعاد . ولا يهم اي أرض تكون ، أتجرى فيها انهار تفيض لبناً وعسلاً ، أم غطاهـــا الحسك كمقبرة مهجورة ، المهم انها ارضك ، ارضك الوحيدة ، وكل ارض عداها انت فيها غريب .

أصبح يسدد نظراته الى كل ما يلاقيـــه من البشر ، والأشجار ، والاسوار ، والاعلانات ، والواجهات ، والارائك وسلال المهملات فى المتنزهات ، ومصابيح الانارة ، والخيول ، والعصافير المنقبة فى الروث الفواح البخر ، واعشاش الغربان المشعثة ، والحمـــام المنتفخ عظمةً . وكان فى ذهابه الى الاستاد أو حمام السباحة لا يسلك نفس الطريق مرتين ، بل كان حتما يضيف الى طريقه المعتاد شارعا جديدا ، أو حارة أو فناء سالكا ، حتى لو كان عليه فى سبيل ذلك ان يقطع شوطا طويلا . كان يتفرس بنهم فى ملامح البيوت والأفنية مصيخاً إلى باطنه : علَّ خفقة فى القلب أو دفقة اضطراب فى الدم تفصح بذلك عن تعرّف غير واع على ما يراه .

كان يمقت قلبه القديم الميت ، مصدر كل آلامه ومعاناته ، والذى بدا له مثل فطر عفن نخره الدود ، لكنه كان يتسع لكل الذكريات الرقيقة الرهيفة عن ماضيه ، والتى كان عليه ان يعيد تجميعها ، لكى يشفى تماما .

بدأ يفطن لبعض الاشياء . فقد بدا له الآن انه فى وجوده الاول ايضا لم يكن يحب زوجته . فهل كان يحب امه ؟ لم يجد اجابة على هذا السؤال . الظاهر ان الشخص المصاب بداء كذلك الذى أصابه ، غير قادر عموما على الحب الحقيقى لفداحة الخوف الدائم المستمر ، على النفس . على اى حال ربما

كان هناك اشخاص لا يطفئ الخوف من النهاية القريبة المحتومة فى نفوسهم جذوة الحب لحياة الآخرين ، بيد انـــه ، وهذا واضح ، لم يكن فى عداد اولئك المختارين . ومع ذلك فليس معقولا أنه عاش فقط عـــلى الخوف والاغتراب . لابد انه هو ايضا عرف ومضات من الفرحة البريئة ، ولو لحظات من السعادة والطيبة ، حين كان ينسى مرضه فيحب شيئا ما خارج حدود ذاته . وها هو الآن يبحث عن هذه اللحظات ، المجسدة فـى صور العالم المحسوس ، مؤملا ان يعيد بواسطتها بناء روحه الحية ، وينال القدرة على الحب والدموع .

وكانت هذه الومضات الباهرة للفرحة ، بل والسعادة ، تحدث فى بعض الاحيان بغتـــة ، على غير توقع ، بلا سبب مفهوم . وتنبثق من اغرب المصادر وابعدها احتمالاً : كما حدث مرة ، من عشة حمام قديمة ، رش عليها أبريل حبات البرد ، فى فناء صغير غير بعيد عن مخدع الأميرة كسينيـــا جودونوفا * فى حارة تشيرتولسكى . عشـــة حمام عادية : صندوق خشبى مغطى بشبكة سلكية صدئة ضيقة الفتحات . ورغم كل اجهاده لذهنه ، لم يستطع ان يدرك مغزى عشـــة الحمام «فيما قبل وجوده» . كان يفهم ان الفرحة التى أحس بها هى قبل كل شيء فرحة التعرف المطلـــق ، وليس من الضرورى ابدا ان تكون عشة الحمام قد مثلت له فى الماضى مصدرا للمتعة . فلو انه كان صبيا سليماً لأصبح رمـــز العشة واضحا دون جهد ، ولكنه كـــان صبيا معقماً فلم يزاول كشّ الحمام .

ربما ثمة خطأ ما قد وقـــع هنا . . اذ قد تكون العشة استحوذت ادعاءً ، بحكم الجوار كما يقال ، على دور الرمز ، بينما المغزى الحقيقى ليس فيها ، بل فى قصر الأميرة كسينيا جودونوفا ؟ ربما اثارت انفعاله فى وقـــت ما تلك الصورة الرقيقة الحزينة لابنة جودونوف التعيسة ، البريئة من الذنوب امام الله والبشر ، ولكنها ، وقد نشأت فى كنف الجريمة ، كُتب

* ابنة القيصر بوريس جودونـــوف (١٥٥٢-١٦٠٥) . المعرب .

عليها القصاص القاسى ؟ كلا ، لم يكن له اى موقف واضح من ابنة جودونوف ، فماذا لو أن حارة تشيرتولسكى نفسها ، والتى جذبته اليها بعشنة الحمام ، قد لعبت دوراً ما فى حياة روحه ؟ كلا ، لم يكن هنا من قبل . .

وفيما بعد اقتنع بأن اساليب التخمين ، المباشرة وغير المباشرة ، لا تجدى نفعاً . فقد تابع العصافير مئات المرات فى طيرانها وهبوطها ، وفى عراكها الحامى بسبب الطعام ، وفى مرة واحدة احس فجأة لسبب مجهول بوخزة سعادة تكاد تبلغ حد الألم ، عندما رأى عصفورا . ترى ما الذى حرك هذا الشعور : المكان ، ام ساعة النهار ، ام الاضاءة ؟ لم يجد رداً على هذه الاسئلة .

وذات مرة كان متوجها بعد التمرينات الى غرفة الحمّام فى الاستاد عبر طرقة طويلة ، وقد ألقى على كتفيه روب استحمام . ومرت به من الجهة المقابلة اربع فتيات يحملن حقائب صغيرة فى ايديهن . وانزلقت نظرته الشاردة على الفتيات المجهولات وتوقفت قليلا على وجه إحداهن . . وجه مدور ، نَمِش ، بعينين رماديتين ، ثقيلتى النظرة . لم تكن اكثر فتيات السرب جاذبية على الاطلاق ، ولم تتميز الا بتعبير وجهها العابس «المنغلق» بعض الشيء .

مرّ السرب بجواره فى صخب ، لافحاً اياه بضحكات خافتة وزقزقة اصوات ، وعبير عذرى طاهر رقيق ، فاحس برغبة مفاجئة فى رؤية تلك الفتاة ذات العينين العابستين الثقيلتين . ولكن الباب الرئيسى كان قد اغلق خلفهن بينما لم يكن على جسده سوى الروب . وبعد بضع دقائق تذكر مرة أخرى ، وهو تحت الدوش ، تلك الفتاة الرمادية العينين فتاوه ألماً . واذا باحساس بالفقدان النهائى يستولى عليه بصورة خاطفة خانقة . وحول قلبه ظهرت فقاعات سعادة صغيرة وتفجرت ، مصاحبةً لذلك الاحساس ومضاعفةً للألم . ماذا تكون بالنسبة له هذه الفتاة الرمادية العينين ، العابسة ذات الحقيبة ، والتى لا تتميز بشيء ؟ وأى علاقات معقدة او بسيطة ربطت بينهما فى الماضى ؟ وهل ينبغى فى

كل مرة اقلاق الماضى ؟ ماذا لو انها ومضة حب خاطفة ؟ فلماذا اذن تحول هذا الحب ، ما ان أشرق ، الى كآبة سحيقة وفقدان يائس ؟ الحب الخاطف هو احساس خفيف ، ظل بهجة وظل أسى . اما هو فيشعر وكان وتداً دق فى قلبه .

فتح صنبور المياه الباردة وهو حانق على نفسه . وأحس كان مكبساً جليديا ضغط على يافوخه ، وسرى الجليد من رقبته إلى كتفيه وظهره وانتشر فى جسده كله ، ولكن كآبة القلب لم تتزحزح ، كانت مستقلة بذاتها عن كل كيانه .

الآن اصبح لبحثه اللاواعى غاية : كان عليه ان يعثر على الفتاة الرمادية العينين . فهى التى ستساعده على حلّ كل العقد . ولكن اتضح ان ذلك أمر ميئوس منه . فالآلاف يترددون على الاستاد الشتوى ، وهنا تعمل عشرات الأقسام الرياضية المختلفة ، بينما هو لايعرف حتى ان كانت فتاته رياضية أم لا . فبنفس الدرجة يمكن أن تكون طبيبة ، او اخصائية تدليك ، أو ممرضة ، أو طالبة تدريب او مجرد مشجعة . كانت العينان الرماديتان العابستان بالنسبة له علامة قاطعة ، ولكن جميع من توجه اليهم بالسؤال كانوا يباعدون فحسب بين ايديهم فى استغراب وسخرية .

وكلما أمعن فى البحث عنها ازدادت قناعته بأن الفتاة الرمادية العينين ليست مجرد علامة ترمز إلى احاسيس ماضية . . ففى الماضى الغامض التقى بها ، وكان يعرف اسمها ، وكانت تعنى بالنسبة له شيئا . .

وخطر له خاطر مرعب الى حد ما . . فاذا كان يعترف لقلبه السابق بحق الذكرى ، فان للقلب النابض الآن فى صدره مثل هذه الذكرى المستقلة . هراء ، هذيان ، اساطير كما قال الطبيب المعالج . الآن بدأ كوستروف يدرك معنى تخوفاته الغامضة . ولكن لا ، فليس القلب مطلق السلطان ، وطالما «وافق» على العيش فى جسد غريب ، فعليه ان يمتثل لقوانينه .

لم يكن ثمة غير طريقة واحدة للقضاء على «الأساطير» : ان يحب الأهل ويشعر بالثقة نحو الاصدقاء ، عندئذ تنطفئ صور الماضي الزائفة ، المعذّبة بغير غايـة ، ويبدأ وجود خارجي جدي ، وتنتهي السرنمة * الروحية اللعينة .

واصبح من ملازمي البيوت ، واحاط بالرعاية امـه وزوجته ، وهو يذكّر نفسه طوال الوقت بمدى حبهما له ، واي حدب وصبر ولباقة وتسامح تشع منهما نحوه ! وما ابخل مايقدم لهما لقاء خيرهما الوفير ! واصبح يهتم بما تهتمان به ، ويسأل امه بالتفصيل عن أحوال المصنع ، ويهديهما زهور الميموزا والثلج ، ويساعدهما في شئون المنزل ، واخيراً ، ولتكتمل السعادة ، بدأ يستعد للالتحاق بالجامعة . وذهل عندما سمع ذات مرة عن طريق الصدفة حديثاً هاتفيا بين امه واحدى صديقاتها القديمات . ولسبب ما ظنت امه انه ليس في المنزل ، وراحت تتكلم بصوت عال كعادة كبار السن ذوي السمع الضعيف عندما يتحدثون في الهاتف .

— يبدو كأنما استبدلوه بغيره . . . انا لا افهم شيئا ، ولكن يخيل اليّ احيانا انهم اعادوا الينا انسانا آليا . فهو يعرف جميع الكلمات ، وجميع قواعد السلوك ، ولكن في داخله حديدا بارداً . كلا ، كلا ، ليس هناك ما اشكو منه ، اذ لم يكن ابدا على مثل هذا الاهتمام وهذه العناية كما هو الآن . ولكن وراء ذلك خواء ، انا لا احس بـه ، لا أتعرف فيه على دمي . . .

لم يسمع بقية الحديث ، فقد كان مصعوقاً لا من كلمات امه التي كشفت له عن تشابه احساس كل منهما بالآخر ، بقدر ما صعقته نبرتها الباردة . كانت تتحدث عنه وكأنه شخص غريب يثير اعصابها اكثر مما يثير حزنها . ولم يقل شيئا لامه ، ولم يغير من سلوكه ، ولكن احساسه بالغربة اصبح لا يطاق .

. . . كان كوستروف عائداً بالمترو من المكتبة . وفي

* مرض المشي اثناء النوم . المعرب .

محطة «ميدان سفيردلوف» خرجت من العربة المجاورة امرأة كهلة في قبعة فراء مستديرة ومعطف بياقة من نفس الفراء . وكان شعرها الاشهب ، بلون الملح والفلفل ، مضموما في حزمة ومستقرا بعناية فوق فراء ياقة المعطف القديمة المائلة الى الحمرة . وتذكر عودته من المستشفى : فعندما كانوا في التاكسي اخذ ينظر الى قفا امـه فرأى نفس هذه الحزمة الرمادية على ياقة الفراء الناحلة . كان كوستروف واقفا بجوار باب العربة ونظراته الشاردة تطوف بوجوه الداخلين والخارجين ، ولكن المرأة الكهلة شدت نظرته اليها ثانية لسبب مجهول . ونظر بفضول غير مفهوم الى وجهها العادي المحمر المتصلب الشرايين ، والى عينيها المتعبتين بجفنيهما ذوي التجاعيد ، والى الشامة في زاوية فمها الشاحب الحزين . لم يكن وجهها جميلا ولا طيبا ، لكن شيئا ما فيه أذهل كوستروف . هذا الوجه المتعب ، المكدود ، المحزون ، القاسي بعض الشيء ، الذي يحمل بصراحة مفرطة عبء السنين والمصائب والخسائر وخيبة الأمل ، أخرج كوستروف عن المألوف وعصف به وحمله الى مكان ما كالاعصار . ثم كان سقوط مرعب في هوة بلا قرار ، في ظلام ماقبل الوجود وضيقه الرطب ، وبعد ذلك ضياء لا يطاق ، لا تستطيع ان تحتمي منه خلف استار الخفون ، ثم مذاق اللبن الحلو على الشفاه ، وذلك الاحساس الممتع المخدر وكأنك في أرجوحة وكما في اجمل لحظات الطفولة الباكرة ، عندما تكون قد زالت اشباح الليل المخيفة واساءات النهار ، بينما الحماية العظيمة والأمان العظيم يضمنهما وجود أهم وأرحم مخلوق في الكون . وتركز كل ذلك في كلمة قصيرة ، ندّت عن شفتي كوستروف لاراديا وباشفاق وهو يندفع من العربة شاقا الزحام :

— ماما ! . . .

سمعت المرأة هذه الصرخة الطفولية الغريبة ، الصادرة بصوت رجولي غليظ . ولم يكن الصوت مألوفا لها ، والنداء ليس موجها اليها بالطبع ، ومع ذلك فقد التفتت وعلى وجهها

تعبير الالم المعتاد ، الذى كان يرتسم عليه لدى كل تذكرة بابنها المفقود . ورات شابا بوجه عرقان ، مخبـول ، يبدو انه ثمل ، يندفع من العربة شاقا زحام الكتـــل المتدافعة . ورغم انها لم تستسلم للوهم لحظة واحدة ، الا ان منظـر هذا الشاب المجهول الذى يبدو مـــن عمر ابنها الهالك ، وتسكعه وتفجره بقوة حية فجة ، بينما جسد ابنها يتحلـل فى مكان مجهول ، قد ملأها بالسخط . فصاحت بتقزز :

— ماذا بك ، سكران ؟ . . .

واحاط بكوستروف جمع كثيف . وذهب احدهم يستدعى الشرطى ، فتحرك هذا من كشـك المناوبة متقدما بخطوات ثقيلة مهيبة نحوالجمع المتحرك عند نهاية الرصيف . ولـم يلاحظ كوستروف شيئا من حوله . لم ير سوى شيء واحد : ستختفى المراة الكهلة الآن من امام عينيه . فصرخ يائساً :

— الى اين انت ؟ . . .

توقفت المراة كان احداً دفعها بقبضته فى صدرها . لم تكن تدرك كنه ما حدث ولا تحاول ادراكـه ، ولا تعرف ماذا ينتظرها : النجاة أم الهـــلاك . لكنها عرفت قلب ابنهـا المتالم ، فاندفعت نحو النداء .



هبوط ناعم

حكاية عصرية

لم يكن سرجييف يخشى الجو ابدا ، والاقرب الى الصواب انه كان يخشى الارض . ففى الجو ، الذى حلق فيه كثيرا منذ ايام الحرب ، لم تصادفه اى متاعب حتى عندما استقل طائرة لقصف مدينة تشودوف — كان على سرجييف ان يقصف العدو بالمنشورات الدعائية لا بالقنابل — فتعرضت طائرتهم لنيران مدفعية مضادة رهيبة . لم يبق فى ذاكرته من هذه اللحظات الحادة ، التى لم تكن رهيبة وانما باعثة على الاعجاب الغامر ، غير ضوء اخضر باهر يخترقه وهج اشد سطوعا . وفى مرة اخرى (وكان قد اصبح مراسلا حربيا) لم يخرج حامل العجلة اليسرى فى طائرة «دوجلاس» التـــى كانوا يهبطون بها ليلا مسترشدين بشعلتى نار فى مطار صغير فى غابة بمنطقة يسيطر عليها الفدائيـــون ، فاضطروا للهبوط على عجلة واحدة . . وقد حدث الشىء السيىء على الارض ، اذ انتزعت قوة ما سرجييف من مقعده فجأة والقت به بصدره على صندوق

ذخائر . وفيما بعد ، فى سفرياتــه الرسمية السلمية الى البلدان الاجنبية تعرض لعواصف رهيبة ذات بروق كالخناجر ، كانت تصطدم مباشرة بجسم الطائرة . حدث ذلـك مرة فوق الخرطوم ، ومرة اخرى قرب لاجوس . وذات مرة تعرضوا لضباب مطبق ، واعطيت لقائد الطائرة حرية اتخاذ القرار : ان يهبط ، او يحاول الوصول الى المطار الاحتياطى بخزانات وقود فارغة . وكان ذلك فى سماء اوربا المسائية العامرة بأضواء النيون والمطاعم والمراقص والبارات وعلب الليل وصالات الديسكو ، قرب مدينة فرانكفورت على الراين . وقرر الطيار ان يهبط ، فهبط باقتدار وسط الكتلة الحليبية الخانقة . وخلافا عن بقية الركاب كان سرجييف يدرك جيدا ما يجرى ، لكنه لم يشعر بخوف ، بل تابعه بتشوق وتهيج .

اما على الارض فكانت المصائب تترصده : فقد اصيب مرة فى حادث سيارة ، وان اقتصرت الاصابة على بعض الرضوض وارتجاج بسيط فى المخ . وهجم كلب الجيران «الوولف» على كلبه «البودل» الصغير الطيب ، فاصيب سرجييف بانزلاق غضروفى فى الركبة وهو يحاول انقاذ كلبه ، ونقل الى معهد الاصابات ، حيث عالج له ساقه جراح مشهور يعالج لاعبى كرة القدم ، فوضع له ساقه فى الجبس لمــدة شهر . على الارض كان يخونــه الاصدقاء والنساء ، وعلى الارض كان يسكر وفى سنــوات الشباب كثيرا مــا كان يشتبك فى مشاجرات لم تكن تنتهى دائما بالفوز . وعلى الارض كانت دور النشر تعيد اليه مخطوطات قصصه وتحذف كتبه من خطة النشر . . . اما فى السماء فكان يرتاح من الارض ، ولم تكن تخيفه اى مطبات هوائية او عواصف كهربائية ، أو غيرها من بلايا المحيط الجوى . . .

كانت السماء اكثر ضمانــا من الأرض الى حد كبير . ولكن سرجييف كان يشعر بالخوف عندمــا تسافر زوجته بالطائرة بدونه . بل كان يشعر بفزع بائس كفزع النساء . فاذا ما سافرا معــاً احس بنفس الاطمئنان الذى يحس به عندما يسافر وحده ، بدونها ، فى رحلاته الجوية . بيـد ان

اقصر رحلة جوية تقوم هي بها ، ولو الى ذويها فى لينينجراد حيث تبلغ مدة الطيران خمسين دقيقة فقط ، كانت تصيبه بالذعر ، وبسبب قصرها بالذات . فاخطر ما فى الطيران هو الاقلاع والهبوط . وفى الطيران من موسكو الى نيويورك فان الزمن الممتد بين هاتين اللحظتين الحرجتين يبلغ نصف يوم ، اما هنا فاقل من ساعة ، ومن ثم فالخطر يصبح مكثفا مركزا الى درجة حادة . بالطبع كـل هذا ، هراء ، هذيان ، عبث ، ولكنه عبث معذب . وفى كـــل مرة تستعد زوجته للسفر كان سرجييف يتوسل اليها ان تسافر بالقطار ، اما هى فلم تكن تطيق ذلك .

من الارض تبــدو الطائرة ضئيلـــة هشة ، لا شىء يحميها ، اما من الداخل فتصبح بالنسبــة لسرجييف رمزا للمتانة . وهذا الاحساس كان يدعمه ايمانه وحبه للفضاء ، اللذان لا يعرفهما الا من يعانى ، مثل سرجييف ، من عقدة الخوف من الاماكن المغلقة .

كان الفضاء يبعث فيه الى جانب الفرحة الاحساس بالامن . كان يثق بالقبة السماوية الزرقاء المتسامية فوق زبد السحب المنفوشة التى تشبه حمما بركانية متجمدة ، ولـو ان جسم الطائرة الهاوية يخترقها دون ادنى مقاومة اذا ما عنّ للطائرة ان تسقط . لكن سرجييف لم يراوده اى شك فى قدرة هذه الحمم الخيالية على حمل الطائـرة ، لانه وهو فى الاعالى كان يكتسب اهم شىء له : الانطلاق والتحرر ولانهائية المكان ، ولهذا كان يثق هنـــا بكل شىء : بالقبة السماوية الزرقاء البراقة وكانما نفخها نافخ زجاج عملاق ، وبالهواء المخلخل ، الذى كان بالنسبة له اشد كثافة من مياه البحر ، وبالزبد السحبى الاصلب من الرواسب المتجمدة . وعندما يجلس فى مقعد الطائرة المريح ، وخلف زجـاج النافذة تتلألأ زرقة النهار ، او تتزاحم نجوم الليل ، يتملكه احساس بالراحة النفسية والبدنية المطلقة .

ولكن هذا الفضاء ذاته حول جسم الطائرة المعدنى يتحول الى خطر مميت على زوجته اذا لم يكن هـو بجوارها . وبدا

لسرجييف انه من الفظاعة ان تؤتمن علبة حديدية على الحياة الانسانية الهشة الثمينة . ومع ذلك كانت ثقته بالطائرات الوطنية اكبر من ثقته بالطائرات الاجنبية ، اذ كان يعول على اسراف القطاع العام فى استخدام المواد . كان يتابع بعينيه كل طائرة تحلق فوق داره فى ضواحى المدينة ، والواقعة فى مجال مطار فنوكفو ، باحساس بالقرابة ، وكان فيها اقرب الناس اليه مصيرا ورابطة دم . لكنه لم يكن يستطيع ان يتصور امكانية وجود زوجته وسط أولئك المحلقين الذين لا يحميهم شىء . وعندما كانــت تعتزم السفر الى لينينجراد بينما تمنعه ظروفه من مصاحبتها ، يروح يلح عليها بالرجاء : «فلنفعل كالتالى : سافري بقطار النهار ، وعودي بقطار «السهم الاحمر» الليل . وسوف استقبلك . من زمن طويل لــم استقبلك فى المحطة القديمة الطيبة ، على الرصيف الحاشد المضطرب ، حيث تفوح رائحة زكية من القضبان والفلنكات والقاطرة البخارية ، رغم انه لم يعد للقاطرات البخارية وجود من زمان ، وفى يدى باقة زهور . هل لاحظت ان المطارات تخلو من الزهور ؟ سوف احدد مكان عربتك بالضبط ، ومع ذلك ساضطر الى الركض قليلا وراءها ، واثناء ذلك أراك من خلال الزجاج المترب ، او خلف كتف مرافقــة العربــة المحشورة فى الباب . وسيكــون هناك حمال عجوز صغير معروق ، وعــلى صدره لوحة معدنية ، فمــا اكثر الاشياء الرقيقة المنسيــة التى ستستيقظ انذاك فى القلب !» .

وترد زوجته : «اذن فمن اجل ان تستيقظ فى قلبك هذه الاشياء الرقيقة المنسية ، او بالاحرى التى لم يكن لها وجود بينى وبينك ، فقد نسيت اننا التقينــا فى عصر الطيران ، ينبغى علي ان اتبهدل فى ديوان عربة مترب كريه الرائحة ، حيث يحاول مغازلتى مسافر ثمل ، بعد ان يكون قد ترك على مائدة الديوان بقايــا طعامه من قشر بيض وطماطم مفقوعة وقشور سلامى ، وسيكون علي ان اهرب منه الى الطرقة الضيقة ، حيث لا ينقطع المسافرون المزعجون عن المرور فيها جيئة وذهابــا الى التواليت . وزد على ذلك المرافقــة

العصبية التى لا تستطيع ان تحصل منها حتى على الشاى البارد الخفيف ، وعندئذ ستتجلى صورة رحلتى بكل جوانبها . انه ثمن غال لذكرياتك العاطفيــة ، التى هى فوق ذلك غير مرتبطة بى» .

يبدو ان زوجته لا تستطيع ابدا ان تفهم انه يخشى عليها من الطيران . فقد كانت تعرف انه يحب السفر بالطائرة ، سواء وحده ام معها ، ويحب الطائرات برائحتها المطاطية ، وبمقاعدها المنزلقة الى الخلف ، وبطقوس الركوب ، وبدرجة اقل طقوس الهبوط ، حيث دائما ما تتاخر سلالم الهبوط ، ويحب المضيفات الجويات بسيقانهن الجميلة ، ويحب طعام الطائرات ، بقطعة الدجاج المعهودة وكأس نبيذ «ريسلنج» اذا كنت مسافرا الى الخــارج . وكانت زوجته عاقلة وغير متطيرة الى درجة كافية ، بحيث لم تاخذ ماخذ الجد توسلاته التى لاح لها فيها بصورة منفرة حب منافق مع نكهة هزلية .

ولكن سرجييف لم يشعر من قبل ابدا بمثل ذلك القلق الذى اعتراه عندما جاءت اليه زوجته وهو فى مصح بضواحى موسكو لتودعه قبل سفرها «الى المياه» . هو الذى نصحها ان تنتقل مؤقتا الى مملكة المياه المعدنية الشافية ذات الرائحة الكريهة ، وهو واثق لسبب ما بانها ستسافر بالقطار فى هذا الجو الربيعى المتغير الذى لا يؤمن جانبه . ولم تذكر زوجته شيئا بهذا الخصوص ، ثم ها هو يتضح ان بطاقة الطائرة فى حقيبة يدها .

وراح سرجييف يقول خائر العزيمة :

— من ذا الذى يسافر بالطائرة فى اوائل الربيع ؟ ضباب شامل ، ورذاذ . لم يحل فى ابريل مثل هذا الطقس السيئ منذ عام الف وثمانمائة وسبعــة وستين ، سمعت ذلك فى الاذاعة . وسوف يؤجلون الرحلة ساعة ، ثم ساعتين ، ثم يلغونها تماما . وستتعذبين عبثا ثم تعودين الى البيت . وفى الغد نفس الشىء . . فموسكو لا تسمح بالاقلاع ، و«مينرالني فودي» لا تسمح بالهبوط . ستبددين ايام الراحة فى الانتظار . القطار اسرع واضمن .

فعارضته زوجته :

— لا ، لا يمكن ! الربيع حل فى القوقاز منذ وقت بعيد . اما الاقلاع فيسمحون به فى اى جو ، المهم الجو هناك ، حيث الهبوط . وانا اطير الى الجنوب ، الى السماء الزرقاء والشمس والدفء .

— هل نسيت جو كيسلوفودسك ؟ انه مثل جو موسكو تماما . ما زالوا هنا يتزحلقون بالزلاجات .

فقالت زوجته بلا مبالاة :

— بالزلاجات المائية .

وفكر فى ان لاريسا ما زالت إمرأة شابة ، وكأنما تذكر ذلك الآن . وقال فى نفسه : ها هى آثار الجوع ايام حصار لينينجراد تظهر الآن . اذا كانت الحلوى تفسد اسنان الاطفال فلا شك ان صمغ الغراء الذى كانوا يتناولونه فى الحصار كاشهى طعام ، هو اشد ضررا . لقد كنت رجلا بالغا متزوجا عندما نشبت الحرب ، اما لاريسا فكانت طفلة لم تذهب بعد الى المدرسة . وقد حطمت قنبلة المانية قواى البدنية ، اما قواها هى فقد حطمها الجوع . . .

وها هى الآن ستطير فى اخطر واسوأ فترة بالنسبة للطيران ، وتضع ثقتها فى جرادة معدنية حقيرة ، اما هو فيبقى على الارض عاجزا عن فعل شىء . . .

لقد تم شراء التذكرة ، وكان سرجييف يدرك ان اى توسلات لن تجدى شيئا ، فقد كان للين زوجته واستجابتها وانوثتها حدود واضحة ، تنتهى حيث تعتقد هى ان الحماقة والسخافة او «الغيبيات» قد بدأت . وكانت الكلمة الاخيرة تطلقها باشمئزاز على كل ما يخرج عن حدود المنطق الخالص .

ولكل انسان حدوده ، ولم يتمكن احد بعد من الخروج عنها .

وكان بوسع لاريسا ان تسمع بقلبها المحب عذابه الذى لم يفصح عنه فتستجيب له . وهذا احتمال ضعيف ولكنه غير مستبعد ابدا رغم واقعية زوجته الصارمة . وكان بوسعها ان تسمعه ولا تستجيب له ، معتبرة ذلك غرابة فارغة ، الامر الذى كانت تحتقره . ويبدو ان هيئته ، بعد اسبوعين من

الراحة والعلاج ، لم تترك فى نفسها انطباعا سيئا بحيث يجعلها تغير خططها الواقعية الحكيمة وتتخلى عن تمسكها بقواعد المنطق الصارمة . كان ينبغى ان تكويها نار تعاسته لكى تحررها من حساباتها الحياتية ومن الوضوح الشفاف لنظرتها الى العالم ، فتستسلم للقوى المظلمة الغريبة . ولكنها كانت تراه الآن قويا صحيحا .

— انا مسافرة لنصف المدة . اريد ان اعود لاخذك من هنا بنفسى .

لم يكن لهذا علاقة بقلقه ، وراح يصر على ان تمضى فى المصح المدة المطلوبة كلها . ولكنه اصطدم هنا بجانب آخر من جوانب ارادتها .

— لقد تحدثت مع الطبيب ، وقال ان اسبوعين مدة كافية تماما . ثم انى لن اتحمل اكثر من ذلك . انت هنا ، وانا هناك ! — وهزت كتفها باشمئزاز وكأنها رأت حشرة كريهة تزحف نحوها . كانت تحب جميع الحيوانات برقة ما عدا الزواحف . ويبدو ان ذلك كان نتيجة فزع مر بها فى الطفولة ولم يعد من الممكن التخلص منه ، مثله مثل واقعيتها الصارمة ، رغم تناقضها معه . . .

وها قد حل هذا اليوم . . الرابع عشر من ابريل . وكان فيه ساعتان ، كل دقيقة منهما محسوبة ومرعبة . بوسعه بالطبع ان يتناول عدة اقراص «ديميدرول» مهدئة فينام هاتين الساعتين ، وربما ثلاث او اربع ساعات علاوة عليهما ، الى ان تأتى البرقية المطمئنة العاجلة : وصلت بسلام . ولكن سرجييف لم يلجأ ابدا من قبل الى مثل هذه الوسيلة ، اى الى النجاة بالحبوب المنومة . لا عندما كانت زوجته تستقل الطائرة ، ولا عندما كانت الظروف القاهرة تضطره الى ركوب القطار . ولم يكن امتناعه عن استخدام الحبوب المنومة راجعا الى احساس بالعزة يملى عليه ان يواجه المحنة ، مهما كان ذلك صعبا ، بذهن صاف دون ان يحط من كرامته الانسانية بالهرب الى اللاوعى . كلا ، بل كان يحركه دافع آخر هو ذلك الخوف الاحمق من ان يؤدى اجتماع الخوف مع

المنوم الى ان يصبح نومه نوما أبديا . هراء ، سخافة ، غيبيات . ولكن تلك كانت حدوده التى لا يستطيع ان يخرج عنها .

كان يتناول القطرات المهدئة وهو يعرف تماما انها لن تهدئ فيه شيئا ولن تمنحه السلوان ولن تعيد اليه توازنه ، بل ستبقى محايدة تجاه حالته ، او بتعبير آخر ، بلا ضرر . وها هو يتناولها مرة اخرى ما ان استيقظ .

وعموما فقد مر الصباح بسهولة ودون ان يلحظ ، اذ كان مشغولا بالفحوص الطبية وشتى انواع العلاج . كما ان زوجته كانت لا تزال فى البيت ، بعيدا عن ساحة الاقلاع .

ظلت كعادتها بعد الاستيقاظ ترتب هيئتها ببطء وصعوبة استعدادا لحياة النهار ، ثم تناولت قهوة ثقيلة سادة وطلبت سيارة تاكسى بالهاتف ، وراحت تعد الحقيبة ، ثم استدعت المصعد ، وهبطت به ، ثم تذكرت انها نسيت بطاقة الراحة والهوية وبطاقة العلاج وتذكرة الطائرة فى حقيبة يدها الاخرى ، فتركت الحقيبة الكبيرة فى عهدة عاملة المصعد وعادت الى الشقة ، وفى آخر لحظة قررت ان تستبدل بالمعطف الجلدى معطف مطر خفيفا على ان ترتدى تحته سترة صوفية . ولسبب ما تطلب ذلك مزيدا من مس الشعر بالفرشاة لمدة طويلة ومزيدا من العناية بمكياج الوجه «المجهز» فعلا . واخيرا هبطت الى سائق التاكسى الثائر غضبا ، والذى وضع الحقيبة منذ زمن طويل فى مخزن السيارة واستدار بالسيارة فى الفناء الضيق ، فهدأت ثائرته بسرعة ، كما تجيد ذلك دائما بطيبتها التى يدركها اى قلب قاس ، وباهتمامها الحى الصادق بالآخرين .

وها هو السائق الذى هدأت ثائرته يخرج بالسيارة من الحارة الساكنة الى طريق لينينجراد ، وهو يروى لراكبته الجذابة لسبب ما تفاصيل حياته الخاصة والعامة – كانت لاريسا مشبعة باعترافات الآخرين ، التى كثيرا ما كانت تخلو من الحشمة – وها هو ينعطف الى شارع «بيجوفايا» ويمضى الى كورنيش النهر ويصل الى شارع «لينينسكى» الذى يتحول

بعد الطريق الدائرى الى طريق فنوكفو المفضى الى المطار .

وسرجييف يحفظ غيبا الطريق من البيت الى المطار على طول امتداده ، فقد قطعه مرات لا تحصى ، وبوسعه ان يحدد بالدقيقة المكان الذى تمر به زوجته ومتى تصل الى المطار . وهذا هو ما يفعله الآن بكل حرص . . .

اما الاصعب بكثير فهو تحديد تنقلات لاريسا داخل المطار ، فالنظم المتبعة تتغير هنا باستمرار . ينبغى عليها ان تسجل البطاقة ، ولكن التسجيل يجرى احيانا فى شباك معين واحيانا امام الرف العالى بجوار الميزان ، واحيانا عند الخروج الى مكان الركوب ، وبوسعهم فى هذه المرة ان يبتكروا شيئا جديدا تماما . كما ان غياب الوزان او مفتشة التذاكر يزيد من تعقيد المهمة ، ومن ثم تغيب زوجة سرجييف عن عينيه فترة من الزمن ، ثم يجدها ثانية عندما يعلنون عن الركوب . ها هى تمضى فى اثر الآخرين فتنحشر بجهد فى باص مزدحم ، يبدو وكانه انتفخ من الاجساد البشرية ، ينقل الركاب الى الطائرة التى لا تبعد عن هذا المكان باكثر من امتار . وربما لن يوجد من يستطيع ان يفسر : ما الداعى لرحلة العذاب القصيرة هذه فى باص خانق ، وكانها دعابة سمجة . ولكن النظام استقر على ذلك منذ زمن ، ولا يجرؤ احد على الغاء هذه الحماقة التى اضفى عليها الزمن ملامح القدسية .

واخيرا «اجلس» سرجييف زوجته فى الطائرة ، وابعد السلم المتحرك ، وبعد ان صحح الحسابات آخذا فى الاعتبار التاخير الحتمى عن الموعد المقرر ، وجه الطائرة الى مدرج الاقلاع . الآن كان عليه ان يعانى ساعتين من الرعب ، اى بالضبط تلك الفترة التى تستغرقها نزهته الصباحية . كان خط سيره ثابتا : من بوابة المصح سيمضى فى الدرب العريض الذى سيظله البط البرى فيما بعد فسحة فى غابة فيحط عليه ، وبعده ينعطف الى الغابة ويسير دون ان يدخلها حول حقل لا تزال الثلوج تغطيه ويتحول عند حلول الدفء الى مستنقع اخضر غير موحل ، فيعود الى الدرب قرب مدخل

المصح . وخلال هذه الفترة ستحلق الطائرة وزوجته على متنها فوق الاراضى السوداء وغير السوداء ، وتمرق فوق اقليم كوبان الخصب ، ثم تحط عند سفح سلسلـــة جبال القوقاز ، بالقرب من ذلك الجبل المعروف بذكراه الحزينة ، حيث اختطف الموت ليرمنتوف * . وعندما سيمر سرجييف بجوار البواب النعسان سترى زوجته من نافذة الطائرة الارض الثابتة .

وهكذا ، فما عليه الا ان يقطع الكيلومترات الثمانيـــة المعهودة فى سهل ضواحى موسكو المستوى تماما . وستتحول المسافة الى زمن ، الى تلكما الساعتين الفاصلتين بين زوجته والسمـــاء . ولا ينبغى ان يفكر فى طيرانها ، بل عليه ان يشغل نفسه بشتى الافكار الخفيفة . مثلا ، فليفكر فى انه يسير على الارض التى كانت ملكا فى زمن ما لآل لانسكي . نعم ، نعم ، آل لانسكى بعينهم ** ، الذين لو شاء لاستطاع ان يبلغ فى سيره كنيسة عائلتهم ومقبرتهم ، حيث دفن كثير من افراد العشيرة ، والابن الاكبر للشاعر الكسندر بوشكين ، وشخص يدعى فاسيلتشيكوف . . او ليس هو شاهد المبارزة من طرف مارتينوف *** ؟ اما نتاليا نيكولايفنا نفسها وزوجها الجنرال لانسكى فمدفونـــان فى دير الكسندر نيفسكى . والكنيسة والمقبرة مغلقتان دائما ، ولكن القبور تبدو فى حالة جيدة ، واذن فهناك من يعنى بها . ولسبب ما لم يشأ سرجييف ان يتابع موضوع المقابر ، فأخذ يفكر فى ان نتاليا نيكولايفنا احبت زوجها الثانى ، الذى كان شخصا عاديـــا للغاية ، اكثر بكثير من حبها لزوجها الاول بوشكين ، اعظم

* ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤١) شاعر روسى كبير قتل فى مبارزة وهو فى السابعة والعشرين من عمره عند سفح جبل ماشوك فى القوقاز . **المعرب** .

** تزوجت نتاليا نيكولايفنا ارملـــة الشاعر الكبير الكسندر بوشكين ، بعد مصرعه ، من الجنرال لانسكى . **المعرب** .

*** مارتينوف هو الضابط الذى قتل الشاعر ميخائيل ليرمنتوف فى المبارزة المشار اليها . **المعرب** .

عباقرة روسيا . ولم يكن ذلك راجعا الى انها لم تدرك قيمة بوشكين ، فقد كانت ذكية بما فيه الكفاية ، ولا الى بخل فى عواطفها – فقد وصفها بوشكين نفسه بانها «امرأة طيبة» – ولكن لان القلب لا يؤمر . ما أبسط ذلك وما أصدقه ! كان ذلك الجنرال الطويل ، الجميل ، الطيب ، البسيط ، السهل ، محببا الى قلبها وجسدها ، اما ذلك الشاعر القصير القامة ، الحاد ، المتقلب الطباع ، الذى لم تعتبر ابدا قبحه النادر شيئا جذابا ، خلافا لكثير من سيدات ذلك العصر ، فقد ظل غريبا على قلب تلك الحسناء الذكية البريئة ، رغم انها بدأت تدرك مبكرا باى اعجوبة مدهشة شاء لها القدر ان تلتقى . ان كل هذه الافكار التى وان كانت غير جديدة ، الا ان النفس لا تملها ابدا . . تستغرق الوقت جيدا دون ان تستدعى اى استنتاجات ولا اى مواعظ ، ومن الممكن الاسترسال فيها طويلا ونفخها مثل فقاعة الصابون ، التى تكبر وتتكور ، وهى تبرق بالوان الطيف ، حتى تتحول الى كرة ضخمة بهيجة ، تنفصل عن عود النفخ ، وترتفع عاليا حيث تنفجر فتسقط بضع قطرات صابونية . . .

توقف سرجييف فجاة وحاول ايقاف الزمن ، لا ليستمتع به وانما ليدرك كنه الخوف الذى استولى عليه والذى يشبه صعود الدم الى الرأس . «ثمة شيء هنا على غير ما يرام» . تذكر التعبير المفضل لدى آجاثا كريستى ، والذى لا تخلو منه رواية من رواياتها . ولكن لا . . يبدو ان كل شيء مثلما هو فى العادة : الدروب ، والاشجار التى نفضت عنها آخر بقايا الثلج اللزجة فوقفت عارية كشحاذين وبدت وكأنهـــا مقرورة ، وخندقا الطريق اللذان تكسوهما طبقة جليد رقيقة ، تتنفس تحتها المياه التى دبت فيها الحياة . فما الذى اربكه اذن ؟ ان الخوف ليس شيئا عفويا ، بل له سبب مادى ما . كان الاسفلت مغطى بقشرة جليد تغلغـــل فيها الثلج الجاف القاسى كالملح . وكانت القشرة الجليدية تتحطم تحت الاقدام وتصبح مبللـــة فى تلك الاماكن . وأحس سرجييف بدفء غريب فى حذائه الايمن . كان يرتدى «بوتا» هولنديا برقبة

قصيرة لا تكاد تبلغ سمانة ساقه ، بنعل سميك كان يظنه من الكاوتشوك . ولكن لا ، لقد اتضح ان هذا البوت الانيق مصنوع من مواد بديلـــة . . من جلد صناعى وكاوتشوك صناعى . لقد ابتلت قدماه . وهذه ليست مصيبة كبيرة . فرغم انه كثيرا ما يصاب بالبرد ، فلم يكن يصاب به بنفس الحتمية المزعجة التى تحدث للعجائز ، عندما يؤدى ابتلال القدمين او تسلل الريح تحت اللفاع الى ارتفاع شديد فى الحرارة وأوجاع وملازمة طويلة مملة للفراش . وعلاوة على ذلك فهو لم يبتعد كثيرا عن المصح ، وما عليه الا ان يسارع بالعودة ، فيأخذ حماما ساخنا ، ويرتدى جوربين صوفيين وخفين منزليين دافئين ، ويشرب كأسا من الكونياك ، اذ لم يكن سرجييف يثق بأدوية نزلات البرد . نعم ، بالطبع يمكن ان يفعل هذا ، ولكـــن من الغريب انه بلل قدميه اليــوم بالذات ، عندما اصبح للنزهة العادية مغزى خاص . الم تكن فى السابق ايام اكثر رطوبة بكثير ، بـل وسقطت امطار ، واخذ الثلج يذوب بسرعة وغزارة ، ولكنه كان واثقا من بوته الهولندى فمضى يخطو فى برك الماء مباشرة ، متلذذا بمناعته ضد السيول المدرارة . فما الذى جعل البوت يبتل فجأة ، فى الوقت الذى لا توجد فيه رطوبـــة تلحظ ؟ ورفع احدى قدميه اولا ، ثم القدم الثانيــــة ، فلم ير خطوطا غامقة على النجاش تدل على ان المياه تسربت الى داخل البوت . ولكنه يشعر بدفء مبلل ، وكان ذلك واضحا لا شك فيه .

وشحذ سمعه الثقيل فسمع بقبقة خفيفة فى فردة البوت اليمنى . واذن ففيهـــا ماء . فلماذا لا تبرد اصابعه ؟ هذا الدفء لا يمكن ان تشعر به الا فى الدقائق الاولى ، عندمـــا يبدو وكـــان الجسد يدفئ الماء المتسرب . يا لــــه من امر غريب ! . . .

لسبب ما لم يعد يشعر برغبة فى العودة الى المصح ، فمضى فى طريقه وهو يقنع نفسه بان ذلك كله ليس سوى اضطراب اعصاب ، وخيالات سرعان ما تمر . ولكنها لم تمر ، وبعد مضى بعض الوقت اطبقت البرودة على اصابعــه . غير

انه يمكن تدفئتها بسرعة اذا ما حركها جيدا ، خاصة وان مقدمة البوت العريضة تسمح بذلك . ولكن البرودة دبت فيهـــا ثانية . كفى حماقة ، فليعد الى المصح ، فالبوت يتسرب اليه الماء لسبب غير مفهوم .

وحسنا ، فلماذا ينبغى ان يحدث ذلك فى هذا اليوم بالذات ؟ — عاد سرجييف يسأل نفسه وهو يزداد ابتعادا عن المصح ، لماذا تهوى هذه المعجزة العظيمة المسماة بالحياة ابتلاء الانسان بشتى المنغصات ؟ ليس اسهل من العودة ، فانا لست من المتطيرين ، رغم انى ، ككثير من المثقفين الروس أومن — بتهكم — فى نذر الشؤم : القطة السوداء ، والقس اذا صادفك فى الطريق ، والمــرأة التى تحمل دلاء فارغة ، ولا يمكن ابدا ان القى مخطوطة القصة على الفراش ، واحب الأقوال المأثــورة واصطلاح تولستــوى المختصر «ا . ب . ح» (اذا بقيت حيا) ، ومع ذلك فلن احيد عن طريقى اذا قابلت قطة سوداء او قسا او امرأة تحمل دلاء فارغة . بيد ان هناك اشياء تحدث فتثيرك بوقوعها المتعمد ، وكأن قرماً ساحرا يقتفى خطاك لكى يدبر لك مكيدة ما مهينة فى اللحظة الحرجة . فاى شيطان جعل الماء يتسرب اليوم بالذات الى حذائى الهولندى الرائع الذى يفترض ان يعيش دهرا ؟ يمكن الظن بان ذلك حدث بتدبير مقصود حتى اعود ادراجى الى المصح . حسنـــا ، وماذا لو اننى عدت ؟ سيكون من العسير عليّ ان امضى الفترة المتبقية حتى نهاية الطيران . لن استطيع ان أقرأ او اكتب . حسنا ، فلاتحمـــل وامضى الوقت كيفما اتفق . . فكم مررت بمحن أرهب . . يـا الهى ، لماذا أخدع نفسى ؟ لن اعود ادراجى لانه قد استقر فى يقينى ان ما يحدث لى هنا وثيق الصلة بما يحدث هناك ، فى الجو . وهذا شئ اقرب الى الهذيان . . حسنا ، فمن ذا الذى يستطيع ان يقطع بانه لا صلة بين هذا وذاك ؟ وما الذى اعرفه عموما عن تفاعل تلك القوى الغريبة الكامنة فى المادة الحية وغير الحية ؟ اننا لا نعتبر من المعجزات قط ان الجزيئات المتناهية الصغر ، والتى لها وجود واقعى تماما ،

تقطع مسافات هائلة لا يستطيع الوعى البشرى ادراكها ، فتحمل الى الارض صورتى المشترى والزهرة ، ومثل هذا الامر اللامعقول لا يسبب اى حرج لتفكيرنا الراجح ، غير اننا نرفض بعناد مذهل ان نصدق بوجود معجزات بسيطة اذا ما وقعت على الارض . «نحن اسلاك تحمل التيار» . . الم يكن هذا التعبير حتى زمن قريب مجرد استعارة شعرية ؟ اما الآن فهو تعبير دقيق عن جوهرنا الفيزيائى . ولكننا نرفض بشدة ان نصدق بكهربائنا البشرية ، ونهزأ بما يروى عن علاج المرضى الميئوس من شفائهم عن طريق لمسهم باليدين . ومن يدرى كيف يرتبط مجالى الكهربائى بمجال الطائرة المحلقة الآن ، وبمجال زوجتى ، وبالتالى بمجال كل راكب من ركاب الطائرة وافراد الطاقم ؟ ! وهل يمكن الجزم بأن حالتى لا صلة لها بسلامة هذه الطائرة ؟

ضحك سرجييف ضحكا خافتا ، اذ بدا له هذرا وصبيانية هذا الواعز الذى يحثه على المضى قدما فى الطريق الزلق المتجمد ، والذى وجد له جهله الرائع اسانيد «علمية» . كان عقل سرجييف مركبا بصورة غريبة ، اذ لم يكن يستطيع ادراك كنه بعض الاشياء والظواهر التى يدركها ببساطة اناس اقل منه ثقافة وادنى منه نباهة بكثير . فهو يقود السيارة منذ ما يزيد على الثلاثين عاما ، ولكنه لا يفهم شيئا فى محركها ، ويرتبك لدى اقل عطب يصيبها ، ولا يعرف حتى كيف يستبدل شموع الاحتراق . وكان يعتبر الهاتف اعظم معجزة لا يدركها العقل ، ولم يفهم الا فى الآونة الاخيرة فقط معنى كلمتى «ايكولوجيا» و«اكسليراتسيا» ، ولكنه لم يتمكن من الاحتفاظ فى ذاكرته بمعنى كلمتى : «انتيجراتسيا» و«اسكالاتسيا» ، هاتين الكلمتين اللتين تبدوان فى غاية الاهمية ، اذ لا يخلو منهما تقريبا اى مقال علمى . غير انه سلم فى هذه الناحية بهزيمته ، ولم يعد يلجأ الى قاموس المصطلحات الاجنبية كلما صادفته هذه المصطلحات .

بعد ان وضع سرجييف الاساس العلمى لقلقه الاحمق وضحك من نفسه لم يعد ادراجه الى المصنح ، على العكس ،

حث خطاه قدما ، ولكن قدمه زلت ، فحاول ان يحتفظ بتوازنه ، الامر الذى لا ينبغى ان يفعله كبار السن ، بل من الافضل السقوط برفق واقتدار سقطة تشبه الرقود . . وعلى الفور أحس بألم الراديكوليت الحاد يخترق ظهره كالرصاصة . بالطبع سقط مرتطما بارض الطريق ارتطاما موجعا والتوت قدمه وهو ينزلق على جليد الطريق ، ونفذ الى قفازيه ثلج صلب قارس البرودة . وشرع يلعق هذا الثلج من تحت جلد القفازين مدفئا رسغيه بلسانه الساخن ، ثم نهض متحاملا على نفسه . لم يعد ثمة مجال للتراجع الآن . ومهما يكن مذنبا فيما حدث فلا ينبغى ان يسمح للظروف بان تسيطر عليه . فالانسان لم يصبح انسانا الا لانه كان قادرا على القيام باعمال لامعنى لها . ففى الظرف الذى يتراجع فيه اى حيوان ، لانه يسترشد بالغرائز التى لا تخطئ ، يتصرف الانسان ضد اى منطق ، وبالدرجة الاولى ضد ضعفه الذاتى . وفى هذا تكمن الفكرة الانسانية الاسمى ، التى لا داعى حتى لصياغتها ، لانها تسرى فى الدماء .

يبدو ان الحياة قررت ان تخف لنجدة سرجييف لتخلصه من سيره الاحمق على الارض الزلقة بقدمه المصابة فى كاحلها ووسطه الذى صلبه الألم . فقد حدث شىء ما هنا خلال الليلة الماضية التى لم تختلف عن غيرها من الليالى بالنسبة لسرجييف اذ انقضت فى نوم عميق بلا أحلام . بدا وكان اعصارا مر بحذاء طرف الغابة الذى يمتد عبره الطريق ، او ان زلزالا محليا دمر المكان ، او انها القدرة التدميرية البشرية هى التى فعلت ذلك ، اذ مرت قافلة من الجرارات ذات الجنازير ، يقودها سائقون أطار الظمأ الى الفودكا صوابهم ، فأسرعوا الى اقرب متجر ريفى ليبلوا جفاف حلوقهم ، وهى تلوك الارض باشداق جنازيرها الفولاذية . فبدلا من الطريق المستوى ، الموحل قليلا ، والذى تنتشر عليه آثار الخنازير البرية والارانب والبقع الصفراء من بول الخيول ، تكشفت لعينى سرجييف كتل رهيبة من الجلاميد الجليدية تتخللها صخور كبيرة مستديرة لا يعرف احد من

اين اتت رسلا من العصر الجليدى ، وجذامير اشجار اقتلعت من الارض . وخطت عدة اشجار بتولا ، جذوعها مغطاة بالطحلب ، خارجة من الغابة لتسقط ميتة بعرض الطريق المشبوه .

لمعت فى خاطره المرتبك بارقة أمل بانه اخطأ الدرب المعهود بسبب ذهوله النابع من القلق والرضوض وألم الخصر والقدم ، فوصل الى مكان آخر سبق ان رآه عدة مرات ولكنه لم يثبت فى ذاكرته لعدم الحاجة اليه . كانت هنا دائما هذه العوائق : الصخور المستديرة والجلاميد ، والجذامير المقلوبة واشجار البتولا المجندلة . يبدو انهم شرعوا هنا فى شق طريق جديد او فى تطهير المكان لمشروع قادم . لم يكن هذا يعنيه ، بل والاكثر من ذلك كان يثير اشمئزازه مثل اى تحول للمنظر الطبيعى الى ساحة بناء ، وكان وعيه يطرد عنه هذا المشهد المزعج بحركة دفاع لاشعورية .

أبطأ سرجييف من سيره ، وقاس بعينيه المسافة الى المصنع ، ورأى قنطرة فوق جدول لم يستيقظ بعد من سبات الشتاء ، وبرج مساحة فى الحقل ، واعواد القصب الجافة على حافة البحيرة الصغيرة البعيدة عند طرف الفضاء المرئى ، فادرك ان الطريق الممتد امامه هو طريقه المعهود والذى اصبح مختلفا . . مسدودا لا يمكن اجتيازه . ولم يفهم سرجييف ، ولم يحاول ان يفهم لماذا انقلب تعرفه على الطريق الى يقين بان الطائرة تتعرض لكارثة . لم يكن ذلك مهما ، انما المهم انه كان يعرف ما الذى ينبغى ان يفعله لانقاذ الطائرة .

راح يتعثر ويسقط مدميا ركبتيه ويديه ، واحيانا يتمكن من تجاوز العقبة ، واحيانا اخرى يتسلقها ، وتارة يزحف بجسده مباشرة فوق الصخرة او الجلمود . ولكنه اصبح بعد ذلك اكثر حرصا . . فبوسعك ان تتصرف بنفسك كما تشاء ، حتى لو حطمت ضلوعك ، ولكنك لست مسئولا عن نفسك وحدها . فلتكن حذرا كالدمعة على الرمش . . كما يقول المثل

التركمانى القديم . ما اسم ذلك الحمل الذى كان سرجييف يحمله ويحافظ عليه ، وهو يشعر بوطأته الرهيبة على كتفيه وفى الوقت نفسه بخفته الغريبة : الحب ام الطائرة ؟ على العموم لم يكن ثمة تناقض بين الامرين لانهما امتزجا احدهما بالآخر . كان على قوة سرجييف الصغيرة الضعيفة ان تساعد المحركات المنهوكة على بعد الف كيلومتر من هنا وتنقذ قلبه هو . ان كل شئ دائما ما يتوقف على مستصغر الامور ، فهو الذى يفرق بين الناس ويجمعهم ، ويفل العزائم ويصلبها ، ويتحكم فى مصير شعوب باكملها . فاذا ما بقيت الدمعة على الرمش فسوف ينجو الانسان وكل بنى جنسه ، تنجو البلاد واهلها . . واذا ما انحدرت ، مبللة ببرودتها الخد ، فسوف يعربد الشر الكونى ويبيد ما على الارض . فلتمسك دمعتك يا سرجييف ، ولتشق طريقك الى الامام ، وليسل دمك وتتحطم عظامك ، ولكن لا تسقط الحمل الثمين ، ولتواصل ما تقوم به ، حتى لو بدوت احمق تماما فى نظر ذوى التفكير الرشيد وفى نظرك انت نفسك عندما تثوب الى رشدك . انظر ، لقد اصبحت ماهرا فى حركاتك ، وان لم يحمك هذا من الكدمات والرضوض ، ولكنك تتقدم باطراد الى الهدف وتحمل حملك فى ثبات .

غطى العرق المتصبب من تحت طاقيته الصوفية عينيه ، فلم يتعرف على الهدف الذى بلغه عندما وصل الى بوابة المصنع مكملا الدورة . كاد يصطدم ببرج الحراسة الحجرى ، وانزل حمله على الارض بحرص ، وترك الدمعة تسقط من طرف رمشه . . .

. . . عندما هبط سرجييف الى مكتب الادارة ، بعد ان نام جيدا ، وهو يتوكأ على عصا ولكنه فى مزاج رائع ، لم يراوده الشك فى ان هناك برقية فى انتظاره .

قالت موظفة التسجيل ، وكانت فتاة حادة ، باجفان مصبوغة بلون بنفسجى عصرى :

— البريد يأتى صباحا ، ولم يرد شئ باسمك .

فابتسم سرجييف قائلا :

– حسنا ، ربما اشارة هاتفية .

– ولم ترد اشارة هاتفيـــة – قالت الفتاة بنـوع من العصبية ، لانها لم تكن تنسى للحظة واحدة ان جمالها الخارق لا يتناسب والمنصب الذى تشغله .

فقال سرجييف بثقة ومرح :

– بل وردت ! وكنت انت متغيبة عن هنا .

– انـــا لم اغادر هذا المكان – قالت الحسنـاء وهى تتضرج بحمرة البنجر وتغضب من حمرتها «العامية» هذه ومن سرجييف المتسبب فيها .

فقال سرجييف مواصلا ضغطه :

– انظرى فى درج الطاولة .

شدت الدرج بحدة ، والتقطت منه ورقة ما . . ولو ان سرجييف أولاها قليلا من الاهتمام ، لاشفق على هذه الفتاة المغرورة المجروحة الكبرياء ، التى اطلت التعاسة من عينيها تحت الاجفان البنفسجية .

– لم انصرف الا لحظة واحدة . . . الفرّاشة هـى التى تلقتها .

على قصاصة جريدة خط بحروف كبيرة ملتوية مكتوبة بعناية : «وصلت بسلام . بدات اشعر بالوحشة . اقبلك . لاريسا» .

. . . قبل ذلك بساعتين ، قـال قائد الطائرة لمساعد الطيار بعد ان هبطا من السلـــم الى ارض المطار الجنوبى الدافئة التى تفوح منها رائحة العشب :

– وماذا كان ذلك ؟

كان مساعد الطيار اكبر سنا بكثير من قائد الطائرة ، ولكنه بقى مساعدا فقط ، الامر الذى جعل روحه ذابلة وغير قادرة على الاندهاش المتشوق . فهزّ كتفيه بلا مبالاة قائلا :

– عم تتحدث ؟

– دعك من التغابى . . . انت شعرت بذلك . . اسالك ما الذى حمل الطائرة ؟

بالطبع ادرك مساعد الطيار على الفور عمّ يسال القائد ،

ولكنه كان يعرف انه سيحـال قريبـا الى التقاعد دون ان يعوض الفرص الضائعة ، فما الداعى للتوتر واعمال الذهن لشخص موشك على التقاعد ؟ فليدع لهذا الرجـــل الناجح ان يبحث بنفسه عن تفسير للالغاز التى تقلقه . وعلاوة على ذلك فقد اوصته زوجته بان يشترى حذاء محليا بلا كعب من السوق الصغيرة القريبة من المطار ، وكان ينسى حتمـــا مقاسها .

فقال عابسا :

– المهم اننا وصلنا ! اما هذه الكهنة الخربة فينبغى من زمان سحبها من العمل . . . – وغذ خطاه .

فدمدم قائد الطائرة وهو ينظر فى اثره :

– هذا صحيح . . .



مصرع طيار

في السنوات الأولى بعـــد الحرب كثيرا ماكنت التقي بزملاء الدراسة ، من بقي منهم سليما أو شبه سليم . كان اكثرهم يسكنون ، كمـــا في السابق ، في منطقة «البرك الصافية» ، فكنا نلتقي عادة عند نينا كاراميشيفا ، المحافظة دوما على ولاء الفرسان للزمالة المدرسية ، في شقتها الواقعة في حارة لوبكوفسكي ، مقابل مدرستنا السابقة .

كانت نينا تقطن بيتـا قديما من بيوت النبلاء ، حيث فازت منه بصالة هائلة رنانة جدرانهـــا مكسوة بالخشب ونوافذها ضيقة طويلة . وقد اكدت لنا ان صاحب هذا البيت السابق كان من زعماء المحفل الماسوني ، وفي هذه الصالة كان الماسونيون يمارسون طقوسهم السرية . كانت الصالة جهمة الى حد ما وغير مريحة ، ولكنها عوّضت ذلك بسعتها ، فقد كنا نجتمع فيها احيانا اكثر من عشرين شخصا : اذ تاتي «بناتنا» المتزوجات بازواجهن وياتي : «الاولاد» بزوجاتهم . في منتصف الخمسينات انقطعت هذه اللقاءات التي كنت

اهواها . ففي ذلك الحين حصل الكثيرون منا على شقق في «تشيريوموشكي» و«اسماعيلوفو» وغيرهما من احياء موسكو الجديدة ، ففارقـــوا «البرك الصافية» . واصبح جمع شمل الاصدقاء القدامى امراً عسيراً لا يتطلب الحماسة فحسب ، بل والصبر والالحاح والجهود الجهيدة . ومع ذلك تمكنت نينا من جمع شملنا مرة أخرى في المكان القديـم ، في صالة المحفل الماسوني بذلك البيت العريق . غير ان اللقاء خلا من البهجة السابقة . فخلال هذه السنوات صفينا جميعـــا حساباتنا مع الشباب حتى آخر مليم . وحدث ان بعضا منا لم يتعرف على الآخرين . واحس الجميـع لاشعوريا بان هذا اللقاء لم يعد لقاء أصدقاء الدراسة ، بل هو استئناف لمعرفة قديمة غير ضرورية جدا . اذ لم يعد ثمة وجود لصبيـــان وبنات الصف العاشر «ا» بالمدرسة رقـــم ٣١١ دفعة عام ١٩٣٨ ، وكان ذلك واضحاً وضوحا لا جدال فيه ، وكأنما ماتوا وجـــاء اشخاص آخرون ، ليسوا في شباب العمر ، متعبون وغير جذابين بتلك الدرجـة ، فانتحلوا اسماءهـم وبعض ملامحهـــم الثانويـــة : حركة الرموش ، التأتأة ، الابتسامة ، الرعشة العصبية في الوجه ، القدرة على التضرج بحمرة الخجل ، اللثغة الخفيفة . وكان هذا اللقاء اشبه بحفل تابين ، فلم نجتمع بعد ذلك . غير أني لن اقص عن لقاءات اصدقـــاء الدراسة ، وان كانت القصة ذات صلـة بهـــا بصورة ما . . .

ظهر هو في نهاية أحد لقاءاتنا ، بعد ان كان الجميع قد نهضوا عن المائدة ، والحاكي يرسل فحيحه الأجش بلا توقف وبصورة مضجرة ، وكل منا يلهو على قدر ما يستطيع . كان اعرج ، يعتمد على عصا غليظة ذات عقد ، مطلية بطلاء لامع ولها قبضة كروية فضية ، عريض المنكبين الى حد مفرط ، لكن قامته بدت غريبة في قصرها وكأنها قُصت ، وبصلعة ناسعـــة شاحبة ووجه ملئ بالندوب وآثار الجراح . دخل حفلنا ظالعاً كتجسيد مادي فج لشبح من اشباح الحرب . كانت حدقتا عينيه المظلمتان متسعتين دوما ، بحجم قطعة

كوبيك ، يحيط بهما طوقان ازرقان رماديان ضيقان ، وجبهته ملساء جامدة ميتة ، تخلو من التجاعيد ، وشفته العليـــا جامدة ايضا ، ميتة كجبهته وكأنها شفة شخص آخر ، فكان يبتسم بشفته السفلية فقط ، فيمدها الى الامام ويلويهـــا اسفل ذقنه . وبدت آثار الخياطة البيضاء الناعمة على صدغه ، وعبر خده وتحت عينه ، ولم يظهر فيه ما يدل على سابق وسامته سوى وجنتيه الصافيتين القويتين الملوحتين . وعلى يمين صدر سترته شريط ذهبى «مكافأة اصابة» * لا يبدو متناسبا ابدا مع حجم مأساته . نعم ، لقد داست الحرب بكل عجلاتها على هذا الرجل ، ولكنه لم يستسلم . وبعد ان القى على جماعتنا نظرة من حدقتى عينيه المتسعتين بقلق وتبادل معنا التحية ، سحب جسده الثقيل نحوى بنشاط ، وقال :

— انا ابن عم ربة الدار ، واعرف كل زميلاتهـــا فى المدرسة ، ولكننى لا اذكرك .

— وانا اعرف كل اقرباء نينا . ولكننى ايضا لا اذكرك .

— اذن لم يقدر لنا ان نلتقى من قبل — وابتسم لاويا شفته السفلية — هل تعمل فى مكتب البرق ؟

يبدو انه حسبنى شخصا آخر ، أو ربما مجرد تخمين .

— كلا ، انا كاتب . . .

— ماذا ؟ — وأصبح وجهه جادا ، بـل ومهموما ، وقال بصوت آمر — ما اسمك ؟

وذكرت له اسمى وانا اعانى وطأة الاحساس بالعجز ، الذى يحس به كل كاتب مبتدئ .

— ماهو آخر كتبك ؟

فقلت بأمل :

— «جنود الحرس على شاطئ الدنيبر» .

فتهلل وجهه وقال :

* كان ينعم على المقاتلين السوفييت فى الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١—١٩٤٥) ضد المانيا الهتلرية باشرطة ذهبيـــة على الصدر تقديرا لما يصابون به من جراح ثخينة بواقع شريط ذهبى من كل اصابة بالغة . المعرب .

— الحمد لله . «جنود الحرس على شاطئ الدنيبر» . من ذا الذى لا يعرف هذا الكتاب !

كان كتابى الصغير هذا قد صدر منذ عدة سنوات وبعدد قليل من النسخ فلم يلفت اليه الأنظار . وعلى اى حال فانـا لم التق باحد قراءه ، خارج دائرتى المحدودة . فتطلعت الى ابن عم نينا باهتمام شديد . وتصاعد من اعماقـى احساس جديد غريب مؤثر وجمد ثم هوى كما فى الارجوحة .

— هل حقا قرأته ؟ . .

— وهل تظننى انسانا جاهلا عديم الثقافة ؟ . . هيـــا نتعرف : فلاديمير شفورين ، ملازم متقاعد ، طيار مقاتـل ، حامل اوسمة .

وشددنا على ايدى بعضنا البعض .

وأوقف شفورين ابنة عمه المارة بجوارنا :

— نينا ! لقد اتضح ان هذا الرجـل هو مؤلف «جنود الحرس على شاطئ الدنيبر» !

فسألته نينا بهدوء :

— وماذا هناك ؟

— ماذا تقولين ! المقاتلون فى الجبهة كانوا مغرميـــن بهذا الكتاب !

— وكيف عرفت انت ؟

قالت نينا ومضت فى سبيلها .

— ارأيت ؟ — قال شفوريـــن مازحا وهو يحدق فيَّ . وعرض عليَّ ان نشرب نخـب التعارف ، وخطا خطوة عريضة نحو الطاولة ناقـــلا الى الامام عصاه وجنبـه الايسر وملأ كأسين .

وقال بعاطفة :

— نخب حراس الحياة !

وقرعنا الكؤوس ، وشربت كاسى حتى الثمالة ، اما هـو فمسها بشفتيه فقط . وقال وقد لاحظ نظرتى :

— ممنوع عليَّ .

وفيما بعد ايضا لم يقرب الخمر ، ولكنه تصرف كشخص

افقده السكر صوابه . لم يكن ثملا من الخمر بل من انفعال داخلي لا يخبو . وبدا ان صوته العالى ، الواثق ، الطاغى على بقية الاصوات ، يتردد من عدة اماكن فى وقت واحد . كان يقتحم كل الاحاديث والمناقشات ، ويدلى باحكام وآراء قاطعة ، ويصدر الفتاوى فى كافة مجالات الحياة : ابتداء من الشئون المنزلية وحتى تعليم الموسيقى للأطفال .

ولم ينسنى انا ايضا .

قال وهو ينحنى فوقى بجسده العريض الثقيل :

— ينبغى ان تكتب عنى . ان حياتى هى قصة من الف ليلة وليلة ! «جنود الحرس على شاطئ الدنيبر» كلام فارغ ، ستكتب عنى كتابا يجعلك شهيرا على الفور . ينبغى فقط أن نجد امسية خالية فاروى لك فيها كل شيء . . لا يهمنى المكسب ، المهم ان نسجل التجربة ! . . .

فى الحقيقة لم اعد اشعر نحوه بالحماسة السابقة . وبدأت اميل الى الظن بانه لم يقرأ «جنود الحرس على شاطئ الدنيبر» ، بل ولم يسمع باسمى من قبل . وحتى لا يقع بصره علي انزويت فى ركن بعيد ، حيث وجدت نفسى بجوار واحد من اكثر الضيوف انطواء وصمتا ، الا وهو سرجى ساريتشوف .

كان شابا طويلا ، قوى البنيان ، بوجه اسمر كبير التقاطيع ، بعينين رائعتين حزينتين كعيون البقر . وقد حرمه القدر من الشرف الرفيع بأن يكون واحداً من تلامية دفعتنا ، ولكنه ورث حق حضور لقاءاتنا عن اخيه الأكبر ميتيا ساريتشوف ، الذى استشهد فى الحرب . اتصل بنينا هاتفيا فذكر لها اسمه واعرب عن رغبته فى رؤية اصدقاء اخيه الراحل . ووعدته نينا بأن تدعوه لحضور اقرب لقاء ، ولكنها لم تفعل الا بعد عودة زويا أستانينا من رحلة فى الشمال . كان ميتيا يطلق على زويا اسم «المحبوبة ثلاثا بلا رجاء» . فقد احبها وهو جرو صغير ، ثم وهو صبى ، ثم وهو شاب ، وفى جميع المراحل الثلاث لم تبادله الحب . وكانت نينا بعيدة النظر بصورة نادرة ، اذ اظهر شقيق

ميتيا لنا ما الذى كان سيحدث لو ان ميتيا بقى على قيد الحياة ، كان سرجى ياتى ، فيخفى جسده الضخم فى الظل والانزواء ولا يحول نظره عن زويا . ولم تكن زويا ، تلك الفتاة الطويلة ، القوية الجسم ، الحمراء الشعر ، ذات البشرة الناصعة البياض والعينين المنتفختين المستطيلتين كعيون المغول ، تلقى بالا الى ميتيا . أما الآن ، عندما لم يعد على قيد الحياة ، فقد راحت تتذكره اكثر مما تتذكر غيره من رفاقنا الراحلين . كانت زوجة سعيدة ، وأماً ، وتحمل درجة الدكتوراة ، وتعي جيدا ماذا تريد ، فسارت فى الحياة عبر طريق مستقيم واضح ، غير ان شاعرية حياتها ماتت بموت ميتيا . ورغم كل واقعيتها وجفافها فقد أدركت ذلك . الا انها ، مع قدرتها على ادراك شاعرية الماضى ، كانت عاجزة تماما عن تقديرها فى الحاضر . ومن ثم كان سرجى ساريتشوف يثير اعصابها .

كانت تقول له بحدة :

— ما لك تحملق فيّ ؟ لا فائدة من ذلك .

فيرد ساريتشوف بهدوء :

— اعرف .

— اذن فلا معنى لذلك !

— لا معنى . . . — يردد باذعان ساخر ، ويشع الالم من عينيه البقريتين .

لم يكن اي منا يعرف مهنة سرجى ساريتشوف واين يعمل ويسكن ، وهل لديه أسرة أم لا . لقد جاء الينا مبعوثا من ميتيا ، متحررا من اثقال الحياة كلها ، بغرض واحد وحيد : ان يواصل حب زويا . وعموما فقد كنا نعرف ان لديه سيارة ، الأمر الذى كان نادرا فى ذلك العهد .

وقال لزويا التى كانت فى العادة اول من يغادر الحفل :

— ساوصلك بالسيارة .

فاجابت بخشونة وهى تنصرف :

— لا حاجة !

كنت جالسا بجوار سرجى فرايته يخرج السيجارة من فمه

بهدوء وبابتسامة خفيفة ، ويغرز طرفها المشتعل فى بطن راحته كما فى مطفأة . والتصقت السيجارة بموضع الحرق ، وفاحت رائحة لحم مشوى . وبنقرة من اصبعه اطاح بالسيجارة على الارض ، ومسح الدم والجلد المتفحم ، ودس يده المحروقة فى جيبه .

وسرعان ما عزمت انا ايضا على الانصراف ، فعرض على ان يوصلنى . قال :

– طريقنا واحد .

– اتعلم اين اسكن ؟

– عند بوابة كروبوتكينسكى .

وبينما كان يرتدى معطفه فى المدخل راح يغنى بصوت خافت ورخيم للغاية :

سابوح بسر فى قلبي
من اعشقه ليس بقربي

وحينما لاحظ اننى اصغى ابتسم ولكنه واصل الغناء :

ارثى لواحد ، وواحد مضى
وثالث يشق قلبى نحوه المدى

– ماذا ؟ اانت غجري ؟ – سأل شفورين وقد اقترب منا .

واصبحت ابتسامة ساريتشوف متوترة :

– فلنفرض . ماذا يترتب عن ذلك ؟

– لا شيء ! . . وهل انا مثل هتلر ؟ . . هو الذى كان يبيد الغجر ، اما انا فاحترم جميع الامم . . . مهلا ، ساذهب معكما !

وهبط ساريتشوف على الدرج بسرعة وهو يشد قفازيه على يديه . ورغم كبر جسمه وثقله كان يتحرك بخفة نادرة فكنت لا اكاد الاحقه . وانحنى شفورين بجنبه على الدرابزين وهو يقرقع بعصاه وانزلق عليه فلحق بنا فى الأسفل . وفتح

ساريتشوف باب سيارته «الاوبل-اوليمبك» ذات اللون الازرق الفاتح الساطع .

وصاح شفورين شاحبا :

– سيارة من هذه ؟

فقال ساريتشوف ببرود :

– سيارتى . هل هناك اى اعتراضات ؟

فسأل شفورين بنفس الاندفاع والاهتمام دون ان يلاحظ لهجة ساريتشوف الباردة :

– احضرتها من المانيا ؟

فاجاب ساريتشوف ساخراً :

– كلا ، من الفناء السابع لمصنع «زيس» .

– وما هو هذا الفناء السابع ؟

– مقلب نفايات السيارات الغنيمة .

فقال شفورين وقد هدأ قليلا :

– هذا ما قدرته . واضح على الفور انها سيارة خرجت من العمرة .

كانت السيارة تبدو جديدة تماما ، ولكن ربما كان ساريتشوف صادقا فيما قال ، بينما لاحظت عين شفورين التكنيكية المدربة آثار الجراح التى عولجت على جوانب السيارة اللامعة ؟ وهممت بركوب السيارة واذا بشفورين يقول بحزم :

– اوصلنى الى منطقة محطة كورسكى !

وسبقنا الى ركوب «الاوبل» .

فدمدم ساريتشوف باستياء :

– ليس فى طريقنا تماما . حسناً ، قل ، الى اى مكان بالتحديد ؟

فاجاب شفورين وهو يتمدد فى المقعد :

– حارة تشيرنيتسكى ، منزل سبعة ، شقة ٢ ، هناك جناحى . . .

تحرك ساريتشوف بالسيارة بقفزة حادة . كان واضحا ان شفورين لا يعجبه . وكان هناك ايضا سبب آخر ، اذ كان يود ، فيما يبدو ، ان يتحدث معى عن زويا ، والأرجح انه كان

يريد ببساطة ان يجد الى جواره شخصا ما قريبا من زويا ، شخصا عرفها وهى بعد طفلة ، وتربطه بها آلاف الخيوط من تفاصيل حياة الطفولة والمدرسة . كنت بالنسبة له كزجاج تكثفت عليه انفاس زويا . واذا بشفورين يحشر نفسه عنوة بين ساريتشوف وبين ما كان يقربه من زويا .

مقاعد السيارة اللينة ، والجلسة المتحررة كجلسة السادة ، والاضواء المنزلقة خلف نوافذ السيارة ، جعلت شفورين يميل الى جو الترف ، فقال لنا :

— أفكر انا ايضا فى اقتناء سيارة . فانا ، ككل طيار ، احب الحركة السريعة ، كما انى اقدر الراحة . هكذا ربونى ، ولا حيلة لى فى ذلك ! . . .

وفى المقعد الأمامى ترددت دندنة حزينة :

سابوح بسر فى قلبى
من أعشقه ليس يقربى

وصاح شفورين :

— المحرك تعبان !

فلم يرد ساريتشوف .

— وابور قديم تعبان — قال شفورين وهو يحرك رقبته بينما تنعكس بقع مصابيح الشارع الذهبية فى حدقتيه المتسعتين — أما سيارتى فستكون مضبوطة حتى آخر مسمار ، مثل قيثارة الغجرى . . . عفوا ! . . الى اليمين ، من حارة ليالين ! . .

فرد ساريتشوف دون ان يحول رأسه :

— اعرف .

— نعم ، السيارة هى الشىء الوحيد الذى ينقصنى ! اما الباقى فلا بأس . . . صدرى محلّى بالأوسمة ، والمعاش كبير ، وفى البيت تنتظرنى فنانة الشعب السوفييتى ، وكونياك فرنسى ، وموسيقى . . . أتريد ان تلقى نظرة ؟

— وما الداعى ؟ سأفسد عليك اللقاء .

فقال بسماحة :

— هراء ! . . ما رأيك عموما فى فنانات الشعب ؟

فهززت كتفىَّ .

— استطيع ان أدبر لك واحدة فى غمضة عين ، بمجرد كلمة لصديقتى ، فلديها اكوام من هؤلاء الشعبيات والجديرات ! أنا شخصيا افضل الفنانات الشعبيات ، فهن يلقن بمقامى ، وصحبتهن محترمة ، تغذى الروح كما يقال . . .

فدمدمت :

— لا داعى ، فى مرة أخرى . . .

وتوقفت السيارة .

فسأل شفورين بسخط :

— ماذا هناك ؟

فقال ساريتشوف :

— تشيرنيتسكى متبعة ، جناحكم .

— واصل السير !

وتحركت السيارة . كنا نتحرك ببطء شديد على الارض الجليدية الزلقة بجوار اكوام عالية من الثلج الأبيض البراق والنظيف بصورة غير معهودة فى المدن . ولمعت قضبان الترام بلون اخضر وبدت كخطين من الجليد ، كجدولين صغيرين تجمدا فى مجرييهما الضيقين .

سابوح بسر فى قلبى
من اعشقه ليس بقربى

كان ساريتشوف يشكو اساه .

وقال شفورين وهو يلتفت بصعوبة :

— الضوء مطفأ فى النوافذ . تجلس فى الظلام عمداً لكى اشفق عليها والاطفها . أوه ، يا للنساء ! . . . حتى لو اصبحن فنانات الشعب يبقين نساء . . . اما انا فطيار ، ابن الأثير الحر ، امقت القيود والاغلال والحياة المنزلية . كما تقول الاغنية : «منزلنا الحبيب : السماء . . .»

وخرجت بنا السيارة من الحارات الى ميدان محطة كورسكي .

وقال ساريتشوف :

– اسمع ، ليس من اللائق ان تترك سيدة تنتظرك .

فلم يفهم شفورين وساله :

– عمَّ تتحدث ؟

– لقد تجاوزنا منزلك منذ وقت طويل .

– هل تطردني ؟

– كلا ، ولكنك قلت ان في انتظارك فتاة وكونياكا فرنسيا . انا فقط اذكّرك .

فقال شفورين باستعلاء :

– انا أدرى بما ينبغي علي ان افعله .

– لا يبدو ذلك ، والا كنت نزلت من زمان . انك تعطلنا .

فصرخ شفورين بصوت رفيع غريب :

– اوقف السيارة !

ضغط ساريتشوف على الفرامل بحدة ، فانزلقت السيارة قليلا على الجليد وتوقفت بين خط الترام وكوم ثلج عال .

– انزل بسرعة ، الوقوف هنا ممنوع .

فتح شفورين باب السيارة وخرج بظهره في جهد من ناحية خط الترام . وامسك بمقبض الباب ودق بعصاه على زجاج السيارة ، ففتح ساريتشوف الباب بقوة وصاح :

– ماذا تريد بعد ؟

فشرع شفورين يقول بصوت فيه نبرة خطر :

– لا تتعجل ، مهلاً . . ياله من عجول ! . .

– كفى ، اضجرتني !

– وانت ايضا !

– اغرب عن وجهي !

اشعل ساريتشوف محرك السيارة وضغط بقوة على دواسة البنزين ، فاندفعت السيارة الى الامام . وترك شفورين مقبض الباب ، وترنح ، وسقط بثقل وتخبط ممددا

فوق ارض الشارع المغطاة بالجليد . واستطعت ان أراه عبر الزجاج الخلفي وهو يتلوى على الارض عاجزا عن الوصول الى عصاه .

فقلت لساريتشوف :

– لا يصح هكذا ! انه مع ذلك معوّق .

– يدهشني طول بالك . كيف تطيق هذه الثرثرة الفارغة ؟

– ولماذا تحسبها ثرثرة ؟ أليس من الجائز انه صادق ؟ ثم انه لا يصح ان تعامله هكذا . . .

فقال بقسوة :

– دعك من ذلك ! انا أيضا حاربت ، ومزق الرصاص رئتي ، ولكن هذا لا يعني ان اركب على رؤوس الآخرين . انا امقت التعساء والفارغين .

ولكن صورة شفورين وهو يتلوى على القضبان محاولاً ان يصل الى عصاه لم تفارق ذهني ، فقلت :

– أوقف السيارة !

نظر ساريتشوف الي بطرف عينه ساخراً ، ولكنه لبى طلبي . انني لا أدينه . ففي اساه ، الذي كان يحمله كالصليب ، بدت له سخافات شفورين المبتذلة شيئا لا يطاق بالفعل . فكأنما كان شفورين يحاكي بصورة ساخرة مأساة ساريتشوف وضياعه وفشله . ولكن ساريتشوف كان مع ذلك يقف راسخا على قدميه ، ويمسك بعجلة قيادة لسيارة ملكه ، ويجيد الصمت والابتسام والدندنة من بين اسنانه ، كان اقوى منه . ومضيت بسرعة عائدا الى ذلك المكان الذي تركنا فيه شفورين .

لحقت به في حارة تشيرنيتسكي وهو يظلع بصعوبة على الرصيف المرشوش بالرمل . لم اكن اتصور ان الحركة تتطلب منه كل هذا الجهد . ففي الغرفة كان يكفي ان يخطو خطوتين ، وعلى الدرج كان يهبط بمهارة منزلقا على الدرابزين . اما الآن فكان يسير بجسده كله ، كانه احدى المفصليات ، متلويا ، شادا نفسه خطوة اثر خطوة . وظننت

انني ساجده مهاناً ، محزوناً ، متقداً غضباً ، ولكنه كان يضع نفسه في منزلة عالية لا تسمح له حتى بمجرد الظن بأنه قد اهين عمداً .

– هل رحل الغجري ؟ – يبدو انه لم يدهش اطلاقا من انني فضلت صحبته – يا له من انسان غريـــب ، فرحان باوبله كفرحة الدجاجة ببيضتها . ولا يجيد القيادة . اندفع بالسيارة حتى كدت اسقط . حسنا ، دعنا منـــه ، فسوف يتعلم القيادة في يوم ما . . . لو رجاني جيدا فسوف اعلمه كيف يقود . يقال ان الارنب ، اذا ضرب ، يتعلم النقر على الطبل . . . هل تاتي معي قليلا ؟ . . ستقبل يدها وتشرب كاس كونياك .

دلفت في اثره الى مدخل كبير رنان لعمارة قديمـــة شيدت بغرض التأجير . وصعدنا الى الطابق الثالث في مصعد بطيء الحركة وقور العظمة ، واسع ومترنح . وفتح بالمفتاح بابا بمصراعيه ، عظيما كالمصعد وعاليـــا للغاية ، بمقبض نحاسي . وعبرنا ردهة شبه مظلمة كانت تلمع في ركنهـــا عينان زجاجيتان لدب واقف على ساقيه الخلفيتين ، فولجنا غرفة واسعة ، يضيئها بصيص النور الكابي القادم مـــن الخارج .

وفرقع مفتاح النور . عبثا كنت انتظر معجزة . فلم يكن في الغرفة احد غيرنا . وتملكني خزي بارد لزج كالخوف . ولكن لم يبد على شفورين خجل او ارتباك .

قال بخيبة امل خفيفة :

– كل شيء واضح . ليس هناك ما هو اسوأ مـــن الارتباط بعالم الفنانين . . نزوات لا تنتهي وحركات . . . ولكني لست مـــن هؤلاء الفتيان الذين تجـوز معهم هذه الحركات . . .

وشوهت فمه ابتسامة بائسة تستدر الرثاء ، ابتسامة جريحة صاعدة من اعماق روحه دون ان يشعر بها .

كانت على الجدار صورة فوتوغرافيـــة مكبرة لصبي في بدلة مخملية ، نحيل ، اشقر الشعر ، بوجه مستطيل رقيق .

وقال شفورين :

– تتملى صورتي ؟ ماذا تريد . . تربية ارستقراطية ! مربيات فرنسيات وبوتات ، ومدرسو موسيقى . . . امـــي مصممة ازياء شهيرة ، و«ما طنط» سيدة عالمة ، نابغة في الطب . . .

وظل طويلا يبقبق بفقاعاته الارستقراطية ، اما انا فتذكرت بوضوح غريب ذلك الصبي صاحب الصورة ، لكنه كان اكبر من ذلك بخمس او ست سنوات ، ولم يكن في بدلة مخملية بل في زي عسكري وعمرة لطالب بكلية الطيران .

كان هذا في ذلك اليوم الغريب من شهر ابريل عام ١٩٣٨ عندما طال الشتاء ثم تحول فجاة وبدون مقدمات الى صيف . وبدات اصابع الجليد الضخمـــة المدلاة من سقف مبنى المدرسة ، كالرواشح الكلسية ، تذوب بسرعة خارقة ، فبدا وكان سيلا من المطر ينهمر فوق الرصيف . ثم راحت الشمس تلهب هذه الاصابـــع الشفافة فاخذت تتساقط برنين على الاسفلت ناثرة فوقه فتاتا زجاجيا . ودوى هدير الكتـــل الجليدية المتساقطة داخل المزاريب ، وعبق الجو برائحـــة الربيع القوية الى درجة اننا عندمـــا خرجنا بعد الدروس إلى الشارع دارت رؤوسنا بنشوة جنونية . حينذاك راينا هذا الطيار الشاب الرشيق في عمرته المائلة على راسه الاشقر . كان فيه نوع من الجسارة والخجل ، والبلوغ المثير للحسد ، والرجولة والصبا المؤثر ، لدرجة اننا نحن التلاميذ ، الملوثين بالطباشير والحبر ، بدونا اكبر منه بكثير . كان هو جزءا من هذا العالم الهش ، الرنان ، الزجاجي ، المشمس . واندفعت نينا نحوه بفرحة ، فتراجعنا نحن المتيمين العلنيين والسريين بها صاغرين . . .

الآن رأيت بوضوح اشد مدى الخسارة التي الحقتها به الحرب . فمقدمة راسه الملساء العظمية لم تكن كذلك بسبب صلع اصابها ، بل لانه نقل اليها جلد من مكان آخر لا ينمو فيه الشعر بطبيعته . ولنفس السبب كانت جبهته وشفته العليا

ميتتين ، اذ رقعتا بجلد آخر . كان كله ملصقا ومخيطا من بقايا جسده المحطم المحروق .

– عليَّ ان اذهب . . .

فراح يقنعني بتناول كاس من الكونياك ، لكني رفضت ، وصاح شفورين في اثري :

– لا تنس في المرة القادمة ان تاتيني بكتابك !

راودني احساس بالامتعاض عندما خيل الي ان هذا التعارف سوف يستمر . ولكني اخطات ، اذ لم يظهر شفورين بعد ذلك في حفلاتنا . وذات مرة ، وكنت استعد للذهاب الى لقائنا ، الذي قدر له ان يكون الأخير ، تذكرت وعدي باهداء شفورين كتاب «جنود الحرس على شاطىء الدنيبر» الذي كان مغرماً به ، فاخذت معي نسخة منه .

قالت نينا :

– ليس صعبا علي أن اوصله اليه ، ولكن هل ثمة داع ؟ لا بد انه نسي ذلك الحديث ، فلماذا نثير شجنه بلا معنى ؟

اعطتني اجابتها هذه الحق في ان اسألها عن شفورين . كنت اريد ان اعرف هل ثمة ولو جزء من الحقيقة في كلامه عن الأوسمة والنساء ، وتلك الحياة الرغدة لبطل يتمتع بمعاش استحقه عن جدارة .

قالت نينا بابتسامة حزينة مرهقة :

– اي اوسمة هناك واي فنانات ؟ انه انسان بائس محطم ، وكلنا نشفق عليه . . . ولكنه شخص طيب ، فالوديا هذا . . .

– حسنا ، الم يكن على الاقل طيارا ؟

– بالطبع كان . كانوا يعتبرونه في كلية الطيران أنبغ الطيارين الشبان ، وكانوا يسمونه «تشكالوف المستقبل» *

---

* فاليرى تشكالوف (١٩٠٤–١٩٣٨) طيار سوفييتي شهير ، حائز على لقب بطل الاتحاد السوفييتي . قام باول تحليق من موسكو الى الولايات المتحدة عبر القطب الشمال بدون توقف . لقى مصرعه وهو يختبر طائرة مقاتلة جديدة . **المعرب** .

ولكنه ، اذا جاز القول ، بدأ بما أنهى به تشكالوف حياته . . . لقد مزقوه في اول ايام الحرب ، تصور ؟

– في معركة جوية ؟

– ياليته كان كذلك . . . كان عليه ان يقوم بأول طلعة قتالية . ولكن قبل ان يقلع بطائرتــه هاجمته طائرة انقضاض المانية وهو على مدرج الاقلاع ومزقته برشاشاتها . تصور ، يظل طول عمره يحلم بالبطولات ويستعد لها ، ثم يصبح قعيدا تاما دون ان يشارك في معركة واحدة . كان ذلك بالنسبة له صدمة رهيبة ، وبعد المستشفى ظل نزيلا فترة طويلة في مستشفى الأمراض النفسية . ثم خرج منها واحيل الى التقاعد . امه خياطة ، وخالته طبيبــة أسنان ، وحياتهم ميسرة ، وهما لا تبخلان عليه بشيء . . .

– وما معنى هذه القصص الخيالية التي يرويها ؟

– الحقيقة انه طبيعي جدا بين أهله ، وتفكيره سليم ومتزن . . . اما بالنسبة للغرباء فيخترع حياة ترف وثيرة لمحارب قديم متقاعد . انه عموما لا ضرر منه ، فليتسلَّ ، نحن لا نلقي بالا الى ذلك . . .

مرت سنوات قبل ان اسمع عن شفورين ثانية . صدرت لي مجموعة قصص «البرك الصافية» ، فاردت ان أعرف كيف كان وقعها على ابطال قصصي الواقعيين . وبعد جهد كبير حصلت على رقم هاتف نينا ، فقد غادرت مثل الآخرين حي «البرك الصافية» .

لم تقرأ نينا كتابي بل ولم تسمع عنه . وهي لا تلتقي باحد من جماعتنــــا ، فهي تعيش بعيدا ، عند طريــــق شيلكوفسكويه حيث حصلت على شقة مستقلة . ولم يبق احد من جماعتنا في البرك الصافية .

– أما نحن فحلت بنا مصيبة . . . فالوديا شفورين ، اتذكره ، ابن عمي وعريسي الأبدي ؟

– اذكره ولكن كابن عمك فقط .

– كان يؤكد للجميع انني سأصبح زوجتــه عاجلا أم آجلا . . . لقى مصرعه في حادث سيارة منذ اسبوع .

– اذن فقد اقتنى سيارة مع ذلك ؟

– امه وخالته ساعدتاه ، اشفقتا على الصبى المسكين ! . . .

اشترى سيارة «موسكفيتش» وحوّلها الى القيادة اليدوية ، واتقن قيادتها اتقانا تاما ، ثم سافر الى اقاربه فى بلدة «كراسنايا باخرا» ، وبات ليلة هناك ثم قفل عائداً . وفى تلك الاثناء أزيل الجسر الخشبى المقام على النهر . ولم يلحظ الاشارة ، وكانت السرعة اكثر من مائة كيلومتر . . . يا له من حظ غريب ، فى الماضى اصيب فى أول طلعة ، والآن فى اول رحلة . . .

منذ فترة قريبة كنت اقود سيارتى عائدا الى موسكو ، وكانت ارض الطريق جليدية زلقة . وفجأة خرج عليّ من جنب الطريق ، من حيث لا ادرى ، شرطى مرور رافعا يده . بدا وكأنه كان مختبئا فى كمين ، متربصا بأول فريسة ، وها هو الآن قد خرج من مكمنه بطول قامته ، بهيأة رهيبة لا ترحم . وحاولت ان اخمن فى اسى ، وانا اضغط على الفرامل ، ما الذى يمكن أن يأخذه عليّ . تجاوز السرعة المحددة ؟ اى تجاوز هناك وانا اكاد ازحف بالسيارة زحفا . لم اطفئ ضوء الاشارة ؟ كلا ، اطفأته . السيارة قذرة ؟ لا ، بل نظيفة ، نظفتها لتوى بخرقة مبتلة . الاطارات مستهلكة ؟ كلا ، بل ان الرسوم على الكاوتشوك واضحة . . .

ومع ذلك يبدو اننى اقترفت خطيئة رهيبة فى نظر شرطة المرور . وجعلنى الأسى اضغط على الفرامل اكثر مما ينبغى ، فانزلقت السيارة بجنبها على الفور . انحرفت مقدمتها الى اليسار كالشملة ، بينما اندفعت مؤخرتها نحو الشرطى مباشرة ، فاضطر الى القفز فى خندق الطريق على عجل . فقلت فى نفسى بأسى وانا ادير عجلة القيادة : «هكذا اذن . . هذا الشرطى الثاقب النظرة قد تنبأ باننى سارتكب مخالفة . . .»

اخيرا عدلت وضع السيارة واوقفتها ، وخرج الشرطى الى الطريق ورفع يده لى بالتحية قائلاً :

– عفوا ، هلا أوصلتنى الى كونكوفو ؟

– الى تيوبلى ستان اهلا وسهلا .

وفتحت باب السيارة فجلس فيها ، شابا ، متورد الوجه ، مشدود القامة للغاية ، وكان برتبة عريف . وتحركنا .

كانت هذه الحادثة الصغيرة التى بدأ بها تعارفنا مؤشراً لحديث مسترسل عن المرور والحوادث ظل ممتدا حتى بلغنا طريق موسكو الدائرى . تذكرنا حوادث المخالفات الخطيرة ، وتصادم السيارات ، والكوارث التى أودت بالأرواح .

قال العريف :

– أغرب حادث شهدته طوال عملى وقع فى الصيف الماضى على هذا الطريق . ففى وضح النهار تخطت سيارة «موسكفيتش» علامة الممنوع ، وأطاحت بحاجز اغلاق الطريق واندفعت الى الجسر الذى أزيل فسقطت فى النهر .

فسألته وقد فطنت الى ان الحديث يدور عن شفورين :

– وهل مات السائق ؟

– طبعا ! . وجرى تحقيق فاتضح انه لم يكن ثملا ، وفى كامل قواه ، وان كان ، فى الحقيقة ، من المعوقين . والسيارة ذات قيادة يدوية ، جديدة تماما ، نزع منها مخفف السرعة لتوه . وكانت اشارة التحذير وعلامة الممنوع موضوعتين قبل الجسر بمسافة كافية ، كما تقضى القواعد . واشارة المنعطف فى مكانها السليم ، وباختصار لم تكن هناك مسببات لهذا الحادث المؤسف ، فانظر الى ما يحدث ! . .

– ربما استغرق فى التفكير فلم يلحظ العلامة ؟

فقال العريف :

– هذا يحدث . ولكن لماذا لم ينتبه عندما اطاح بالحاجز ولم يفرمل ؟ فى هذه الحالات تضغط القدم آليا على الفرامل . ولكنه حتى لم يلمس الفرامل . . . حادث فى منتهى الغرابة .

وشد انتباهى تأكيد العريف مرتين على «غرابة» الحادث فرحت استوضح :

– ربما يكون قد فقد وعيه ؟

فقال العريف ببطء :

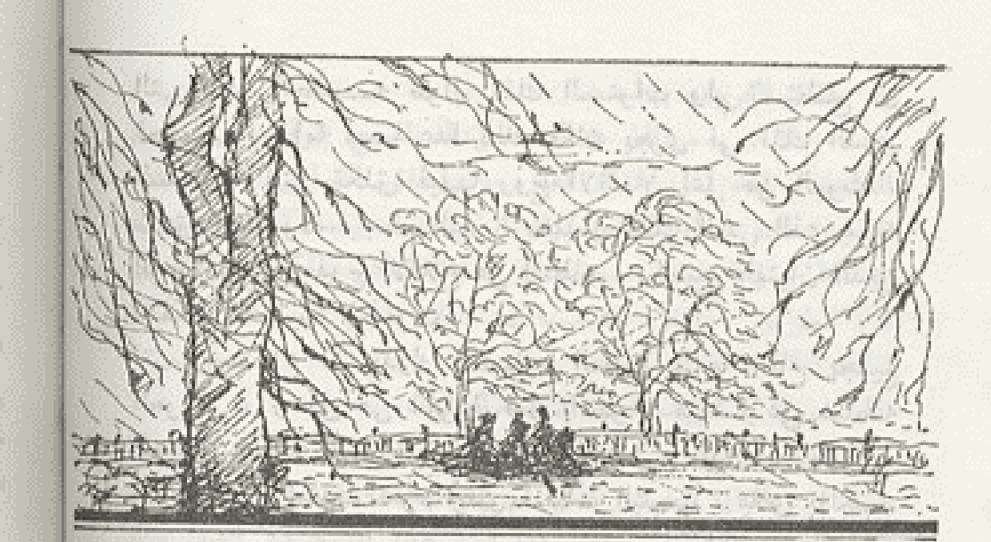
– لا . . . كان هناك عامل تصليح طرق يحوم حول الحاجز ، فقد نسى هناك قفازه . واطلق السائق له اشارة تحذير حادة ، طويلة من بوق السيارة ، بينما كانت السيارة مندفعة بسرعة فائقة ، حتى ان العامل تمكن بالكاد من التنحى عن الطريق . اننى اتساءل : الا يمكن ان يكون ذلك انتحاراً ؟ . .

صمتاً يا عريف ! انا الآن ساحكى . .

كان مندفعا فى نشوة سعادة جنونية . . حطام الانسان هذا . . طيار الحرب الذى لم يقم بطلعة قتالية واحدة . . هذا البطل الذى لم يحقق مأثرة ، هذا الشجاع الذى ولد لكى يحارب فاصبح ناسج قصص خيالية بائساً . . هذا السعيد بعودة الحركة والسرعة اليه من جديد . كان يحس بجهاز القيادة اليدوية فى يديه وكأنه مقود طائرة ، فساق مقاتلته الصغيرة الطيعة نحو زرقة السماء باقدام . وفجأة ظهر امامه ذلك الحاجز مثل كابوس السنوات الماضية البغيض الجاثم . بالأمس فقط لم يكن هذا الحاجز موجودا ، وبالأمس فقط كان الطريق مفتوحا . لقد رأى بالطبع علامات الطريق ، ورأى الحاجز ، والجسر المنزوع ، وتحويلة الطريق ، وكان بوسع السائق ان يخفف سرعة السيارة بسهولة وينعطف يمينا الى الطريق الجانبى . ولكن الذى قاد السيارة لم يكن سائقا ، بل طياراً حربياً ، طياراً مقاتلاً . وها هى القوى المعادية تسد الطريق الى السماء امام هذا الطيار من جديد ، ومن جديد تريد كسر جناحيه وحرمانه من الحركة والسرعة والتحليق ، وتحويله الى احدى الزواحف . لم تكن علامة الممنوع الحمراء هى التى ظهرت امامه ، بل الصليب الفاشستى المعقوف ، رمز الشر العالمى ، هو الذى مد اطرافه العنكبوتية فى وجهه . فقرر ان يصدمه بطائرته . واستطاع ان يلحظ بوعيه الصافى شخصا ما وقف حائلاً بينه وبين مصيره . فانقذه باشارة حادة جعلته يتنحى عن الطريق . وكانت تلك آخر ضريبة دفعها لتلك الحياة العادية

التى ظلت تحطمه طوال تلك السنوات ولم تستطع ان تحطمه . أما ما عدا ذلك فكان يجرى فى تلك الذرى السماوية التى تحلق فيها روح الانسان اعلى من الموت . سحق العنكبوت ، حطم الشر ، منتقما لذلك الفتى الذى مزقه الرصاص على مدرج الاقلاع فى المطار ، ولجميع الفتيان الذين اهلكهم الصليب المعقوف .

واستطاع ان يدرك انتصاره العظيم عندما اطاح بجميع الحواجز ، وحلق فى الفراغ فوق النهر ، منقضا على شاطئه الحجرى المائل . فى تلك اللحظة لمع على صدره ذهب الأوسمة ، وامتدت نحوه ايدى فنانات الشعب ، ملأى بالحب .



جينيا روميانتسيفا

ها قد انتهى آخر درس فى آخر يوم من حياتنا المدرسية . مازالت امامنا امتحانات صعبة طويلة ، ولكن لن تكون هناك دروس بعد اليوم ابدا . ستكون محاضرات ، وسيمنارات واستشارات (يالها من كلمات اشخاص بالغين !) . ستكون قاعات محاضرات ومختبرات ، ولكن لن تكون هناك فصول مدرسية ولا تخت . انتهت عشرة أعوام مدرسية على قرع الجرس الابح المعهود ، الذى يبدأ من الاسفل ، من اعماق غرفة المدرسين ، ثم يصعد وهو يمتلىْ رنينا ليصل مع بعض التاخير الينا فى الطابق السادس ، حيث تقع الصفوف العاشرة .

كنا جميعا متأثرين منفعلين ، نشعر بالفرحة وبشىء من الحسرة ، ويعترينا الارتباك والخجل لتحولنا الخاطف من تلاميذ الى اشخاص بالغين يمكنهم حتى ان يتزوجوا ، فمضينا نتسكع فى الصفوف والطرقات ، وكاننا نخشى الخروج من

جدران المدرسة الى العالم الخارجى الذى اصبح بلا حدود . وراودنا احساس وكأن ثمة اشياء لم تُقل ولم تُعش ولم تُستنفد خلال السنوات العشر الماضية ، وكانما اَخَذَنا هذا اليوم على غرة .

من النوافذ المفتوحة على مصارعها تدفقت زرقة سماوية كثيفة ، وعلى افاريزها هدل الحمام باصوات هدجتها الشهوة ، وفاحت بقوة رائحة الاغصان المتفتحة والاسفلت المرشوش بالماء .

واطلت جينيا روميانتسيفا من باب الفصل :

– سيريوجا ، دقيقة لو سمحت !

وخرجتُ الى الطرقة . فى هذا اليوم غير العادى بدت لى جينيا ايضا على غير عادتها . كانت ملابسها ، كما هى دائما ، متنافرة : فستان قصير الى ما فوق الركبة كبرت عنه منذ العام الماضى ، وسترة صوفية لا تتزرر عند صدرها ، وتحتها بلوزة حريرية بيضاء مالت الى الزرقة من كثرة الغسيل ، وحذاء اطفال عريض المقدمة وبلا كعب . وبدت وكأنها ترتدى ملابس اختها الاصغر . وكان شعر جينيا الرمادى الغزير مضموما كيفما كان بالمشابك والدبابيس والامشاط حول وجهها الصغير ، ومع ذلك كان يغطى جبينها وخديها ، بينما كانت احدى خصلاته تسقط دائما على انفها القصير ، فتبعدها عنه بعصبية . كان الشىء الجديد فيها تلك الحمرة الخفيفة المستوية التى كست وجهها ، وذلك البريق الحى القريب المشع من عينيها الرماديتين الواسعتين ، اللتين كانتا تلوحان جديتين عمليتين تارة ، وشاردتين محملقتين فى الفراغ تارة أخرى .

– سيريوجا . لقد أردت ان اقول لك : هيا نلتقى بعد عشر سنوات .

لم تكن جينيا ممن يمزحن ، فسألتها بجدية :

– ولماذا ؟

– اريد ان أعرف من ستصبح . – وابعدت جينيا

خصلة شعرها الساقطة على انفها – لقد كنت معجبة بك جدا طوال هذه السنوات .

كنت اعتقد ان جينيا روميانتسيفا لا تعرف هذه الكلمات ولا هذه العواطف . فقد مضت حياتها كلها فى مجالين : فى العمل الكمسمولى * المرهق ، فقد كانت مسئول جماعتنا الكمسمولية ، وفى الحلم بالكواكب الاخرى . لم اسمع جينيا تتحدث ابدا فى اوقات فراغها من الهموم العملية عن شىء غير النجوم والكواكب والمدارات والمقذوفات الغازية فى الشمس ورحلات الفضاء . ولم يكن احد منا قد حدد مستقبله بوضوح سوى حفنة قليلة ، اما جينيا فكانت تعرف منذ الصف السادس انها ستصبح فلكية ، وفلكية فقط .

لم تقم بيننا فى وقت من الاوقات صداقة حميمة ، وكنا ندرس فى صفين متوازيين فلم نحتك الا فى الاعمال الخاصة بالكمسمول . ومنذ عدة سنوات كدت أفصل من فصيلة الطلائع لمخالفة ارتكبتها . ولكن رفاقى وقفوا فى صفى كالجدار فلم أفصل . جينيا وحدها ، التى كانت جديدة فى مدرستنا ، هى التى أصرت على فصلى حتى النهاية . وترك موقفها هذا بصماته على علاقتى بها . وفيما بعد أدركت ان قسوة جينيا نابعة من تشددها ازاء نفسها وازاء الآخرين وليست نابعة ابدا من قلب أسود . كانت انسانا شفافا حتى القاع ، صلبا ووفيا ، ومن ثم كانت تريد ان يكون كل من حولها على هذا النحو . اما انا فلم اكن «فارسا منزها عن الخوف والمثالب» ، وقد أدهشنى الآن اعترافها المفاجىء وأربكنى . وبحثا عن حل لهذا اللغز رحت افتش فى ذهنى عن احداث الماضى فلم اجد فيها شيئا سوى لقاء واحد عند البرك الصافية .

كنا قد قررنا ان نذهب فى يوم اجازة الى بحيرة خيمكى الصناعية لنتنزه بالقوارب . وحددنا مركز التجمع عند البرك

* الكمسمول هو الاسم المختصر لاتحاد الشبيبة الشيوعى اللينينى لعموم الاتحاد السوفييتى الذى يضم عشرات الملايين من الشباب السوفييتى . **المعرب** .

الصافية بجوار العريشة . ولكن مطرا خفيفا اخذ يسقط منذ الصباح فلم يأت الى مركز التجمع سوى بافليك وانا ، ونينا فاراكينا ، وجينيا روميانتسيفا . جاءت نينا لأنها لا تستطيع ان تبقى فى البيت فى يوم العطلة ، وجئت انا من اجل نينا ، وجاء بافليك من أجلى ، اما سبب مجىء جينيا فلم يكن مفهوما لنا .

لم تحضر جينيا ابدا ايا من حفلاتنا المتواضعة ، ولم تذهب معنا مرة الى السينما او الى حديقة جوركى العامة او حديقة «ارميتاج» . ولم يدر بخلد احد منا ان يتهمها بالنفاق بسبب ذلك ، ولكنها ببساطة كانت مشغولة للغاية ، اذ كانت تتردد على جمعية لدراسة الفلك فى جامعة موسكو ، وتقوم بعمل ما فى المرصد . وقد احترمنا فى جينيا اندفاعها هذا نحو الهدف ، ولم نشأ ان نعوقها .

وها قد اجتمعنا فى وسط البوليفار تحت السقيفة الخشبية الضخمة المفتوحة الجانبين . وكان المطر يسقط بقطرات كبيرة صاخبة حينا ، ويصبح خيوطا دقيقة لا تكاد ترى او تسمع حينا آخر ، بيد انه لم يكف عن الهطول لحظة واحدة . وتجمعت غيوم رمادية ثقيلة ، ليس بينها فجوة واحدة ، مارة خلف اسطح المنازل . ولم يعد ثمة مجال حتى للتفكير فى الذهاب الى خيمكى . ولكن جينيا راحت تلح علينا بالذهاب . كانت هذه اول مرة تسمح لنفسها فيها بالخروج قليلا عن نظامها الصارم المعتاد ، واذا بالحظ السيىء يقف لها بالمرصاد ! وكانت ثمة لفة بها سندوتشات تتدلى من زر جاكتتها القطيفة ، وبدت هذه اللفة مؤثرة بصورة خاصة . يبدو ان جينيا لم تفطن حتى الى انه من الممكن تناول الافطار فى احد المقاصف او المقاهى او حتى المطاعم ، كما كنا نفعل اثناء رحلاتنا . واثارت هذه اللفة شفقتى فاقترحت :

– هيا نجدف فى هذه البركة – قلت مشيرا الى قارب قديم جاف أطلت مقدمته من تحت دعامات بيت الطيور الشتوى – ولنتخيل اننا فى خيمكى .

فاضاف بافليك :

– او فى البحر الابيض المتوسط .

فالتقطت جينيا الفكرة وصاحت بحماسة :

– او فى المحيط الهندى ! او عند شواطىء جرينلندا !

فسألت نينا :

– الن نغرق ؟ سيكون هذا محزنا ، فانا مدعوة لعرض افتتاحى فى المسرح الفنى .

لم تكن هناك مجاذيف . فالتقطنا على الشاطىء قطعتى خشب ، ونزحنا الماء من القارب ، وانطلقنا فى رحلة حول العالم . ولا اظن ان ذلك ادخل السرور على قلب احد منا ، باستثناء جينيا . فبينما كنا انا وبافليك نضرب الماء بقطعتى الخشب فى تراخ ، مضت جينيا ترسم لنا مسار رحلتنا . ها نحن نعبر البسفور ، ونعبر قناة السويس الى البحر الاحمر ، ثم نمضى الى بحر العرب ، وندور حول جزر الزوند الكبرى ، فنمر بالفلبين وندلف الى المحيط الهادىء . هذه الطفولة المتاخرة لدى جينيا كانت رقيقة ومؤثرة ، ومع ذلك كان فيها شىء يستدر الشفقة .

وتقول جينيا مشيرة الى اعمدة دار سينما «كوليزيوم» المبللة وهى تلوح وراء اغصان الاشجار اللامعة من المطر :

– انظروا ! ها هو النخيل ، والنباتات المتسلقة والافيال . لقد جرفنا التيار الى شواطىء الهند !

ورحنا نتبادل النظرات . كان كل منا ، كما يحدث فى السابعة عشرة من العمر يحمى حياته الداخلية ، الهشة بعد ، التى يسهل جرحها ، بدرع من السخرية المتعمدة ، والصفاقة الخفيفة ، فلم نفهم كيف يمكن لجينيا ان تكشف نفسها بهذه السذاجة .

واعلنت جينيا بلهجة منذرة :

– اننا نقترب من جزر سليمان الرهيبة !

فاكد بافليك ، الذى كان اكثرنا طيبة :

– مضبوط ! وها هم سكانها اكلة لحوم البشر –

واشار الى جماعة من صبيان حى البرك الصافية وقفوا يدخنون عند حاجز البرك .

واصدرت جينيا اوامرها :

– اخرجوا المدافع ! جهزوا القذائف !

فقلت لها :

– افيقى يا جينيا ، ان هذا استعمار !

فقالت جينيا مبتسمة وقد اسعدها أن بدعها وجدت لدينا استجابة ، دون ان تلاحظ فى براءتها نبرة السخرية :

– مضبوط ! ينبغى أن ننزل الى ارضهم كاصدقاء طيبين ، وسوف نحمل اليهم ادوات العمل والآلات والادوية .

فاضاف بافليك :

– وبدلا من التوراة سنحمل اليهم كتاب الرياضيات المدرسى .

واستمرت سباحتنا المملة تحت المطر . ومضت جينيا تصيح بلا كلل : «الدفة الى اليمين !» ، «الدفة الى اليسار !» ، «ارفعوا الاشرعة !» ، «اطووا الاشرعة !» ، وتهتدى بالنجوم ، فقد تحطمت بوصلتنا اثناء العاصفة . وقد منحها ذلك فرصة اعطائنا محاضرة فى الفلك ، لم اتذكر منها الا ان السماء النجمية عند خط الاستواء تبدو وكأنها مقلوبة . ثم غرقت سفينتنا فوزعت علينا جينيا «آخر قطع البسكويت» ، اى سندوتشاتها المبللة . ورحنا نمضغها فى اكتئاب ، بينما مضت هى تتحدث عن روبنسون كروزو واعجابها بحياته .

كنت مبللا ، متعبا ، وقد اصيبت يدى بشظية خشبية ، فاصبحت قاسيا وقلت لها اننى لا اعرف كتابا اكثر ابتذالا من «روبنسون كروزو» :

– كتاب محشو بالهموم التافهة ، هموم المأكل والملبس والاوانى . قوائم لا تنتهى لانواع الاطعمة والملبوسات . . . انه نشيد يتغنى بالحياة العادية الظافرة !

فقالت جينيا والدموع تترقرق فى عينيها :

– انا لا اعرف شيئا اكثر اثارة للانفعال من هذه

الاشياء التى سميتها قوائم ! اى رحابة فـــى هذا الكتاب ، واى عواطف ، وأحلام . . .

وقطعت نينا فاراكينا جدلنا عندما صاحت فجأة :

– هيه ! امامنا شاطئ !

فاضطربت جينيا وهتفت :

– اين ؟ اين ؟

فقالت نينا بنبرة عادية :

– هناك ، عنـــد بيت الطيـــور الشتوى . خلاص ، وصلنا ! يا شباب ، انا بردت ، لا بد من كاس كونياك .

فاقترحت عليهم :

– لنذهب الى بوكروفكا ، الى المقهى الصيفى .

نظرت جينيا الينا بذعر وتورد خداها ، ولكنها قالـت بشجاعة :

– وما المانع ؟ مادمنا سنعربد فلنعربد !

دفعنا القارب تحـت دعامات الرصيـف وانتقلنا الى الشاطئ . واذا بنا نصطدم على التو بواحد مـن خصومى القدامى كان يدعى لياليك . خـلال الاعوام الاخيرة مرّ هذا المراهق الشقي على السجن وعلى اصلاحية الاحداث . واصبح قوى البنيان ، عريض المنكبين ، ينظر شزرا ، ويضفى على نفسه هيئة المجرم العريق . وعندما حاذيناه دفعنـى باحدى كتفيه ودفع بافليك بالكتف الاخرى واطلـق سبابا فاحشا . كان يدرك انه لا يخاطر الآن بشىء وهو فـى هالة مجده الاجرامى . لم يكن هو الذى يبعث الخوف فى نفوسنا بـل سمعته . كان يسحقنا بعظمة مصيره المظلـم ، فنشعر الى جواره باننا «ابناء ذوات» بانسيـن و«عيال» صغار ، فانّى لنا ان نجارى هذا الرجل المتهور !

وصاحت جينيا التى لم تكن تعرف من هو لياليك :

– اياك ان تشتم ايها الشقى !

استدار ليالك فى صمت وتقدم نحونا . ولكن جينيـا اعترضته فى منتصف المسافة . وشدت عمرته القديمـة المكسورة المقدمة فاغمدتها فى رأسه حتى انفه ، ودفعته فى

صدره دفعة قوية ، وطار لياليك نحو العشب المسيج بسلك فاصطدم بالسلك وانقلب من فوقه على العشب .

وهنا اتضح لنا ان لياليك ليس الا صبيا مثلى ومثـل بافليك ، وان هيئته الرهيبة لا تساوى بعوضة .

ودمدم بنبرة شاكية وهو يحاول ان يزيح العمرة عـن عينيه :

– مالك تدفعيننى ؟

ثم جلسنا بعد ذلك فى المقهى الصيفى ، تحت مظلـة مبللة مخططة ، نشرب القهوة مـع الكونياك ونمز بالايس كريم . واحتست جينيا كاسا صغيرة بامتعاض ، وسقطـت الدبابيس والبنس من خصل شعرها الغزيرة الكبيرة دفعـة واحدة ، واحمرّ وجهها ، وراحت تصـف نفسها بصوت عال بـ«العربيدة» و«الضائعة» . وشعرنا بقليل من الخجل بسببها ، وخشينا ان ترفض الساقية تقديم المزيد من الكونياك لنا ، لان جينيا لم تكن فى يوم من الايام اشبه بالمراهقة كما هى الآن فى هذا المقهى ، بشعرها المشعث وفستانها المنحسر باستمرار عن ركبتيها المستديرتين . وقالت جينيا ضمن ما قالت انها تود ان تلقى مصرعها فى اول رحلة فضائية ، لانه لا يمكن ارتياد الفضاء بدون ضحايا ، فمن الاحسـن اذن ان تموت هى بدلا من ان يموت آخرون افضل منها . كنا نعلم انها تتحدث باخلاص دون ان تدري بتفوقهـا الروحى علينا . وكان هذا يحط من كرامتنا . فنحن لم نكن مثلها ، حتى تحت تاثير الكونياك ، كنا بحاجة الى فرصة مـــا للنجاة ، اى فرصة . . .

ولم تشاركنا جينيا بعد ذلك لقاءاتنا . دعوناها غير مرة ولكنها كانت تعتذر لضيق وقتها . وربما لم يكن لديها وقت بالفعل ، فما اكثر ما كانت تريد عمله . فماذا لو انها انما انت من اجلى فى تلك المرة الوحيدة ، وبسببى تراجعت بعد ذلك وقد قالت لنفسها بامانة ابية : لم أوفق معه . .

سألت جينيا :

– جينيا ، لماذا لم تخبريني من قبل ؟

– وما جدوى الكلام ؟ انت كنت جد مغرم بنينا !

فقلت لها وقد راودني احساس الاسى والفقدان المحزن :

– واين ومتى نلتقي ؟

– بعد عشر سنوات ، في تسعة وعشرين مايو ، في الثامنة مساء ، عند منتصف المسافة بين أعمدة مسرح البلشوى .

– واذا كان عدد الاعمدة فرديا ؟

– سيريوجا ، الاعمدة هناك ثمانية . . . – واردفت بعظمة وايمان وبصوت حالم – في ذلك الوقت ساكون قد اصبحت فلكية شهيرة . واذا تغيرت ملامحي كثيرا فسوف تتعرف عليّ من صوري في الجرائد والمجلات .

– حسنا ، وانا ايضا ساكون في ذلك الوقت شهيرا . . . – قلت ذلك وتوقفت فورا ، فلم اكن اتصور تماما في اي مجال ساشتهر ، بل حتى لم اقرر بعد الى اي كلية اقدم أوراقي – على اي حال سوف آتي الى الموعد مستقلا سيارتي الخاصة . . .

كان ذلك حماقة مني ، ولكني لم اجد ما اقوله غير ذلك .

فضحكت جينيا قائلة :

– عظيم ! اذن ستفسحني بها في المدينة .

مرت الاعوام ، وكانت جينيا تدرس في لينينغراد ، ولم اسمع عنها شيئا . وفي شتاء عام ١٩٤١ ، وكنت اتلقط اخبار اصدقائي بنهم ، علمت ان جينيا تركت المعهد في اول ايام الحرب ، والتحقت بمدرسة للطيران . وفي صيف عام ١٩٤٤ ، وكنت نزيل المستشفى العسكري ، سمعت في الراديو مرسوما بمنح الرائد الطيار روميانتسيفا لقب بطل الاتحاد السوفييتي . وعندما عدت بعد الحرب علمت ان لقب البطل قد انعم به على جينيا روميانتسيفا بعد الممات .

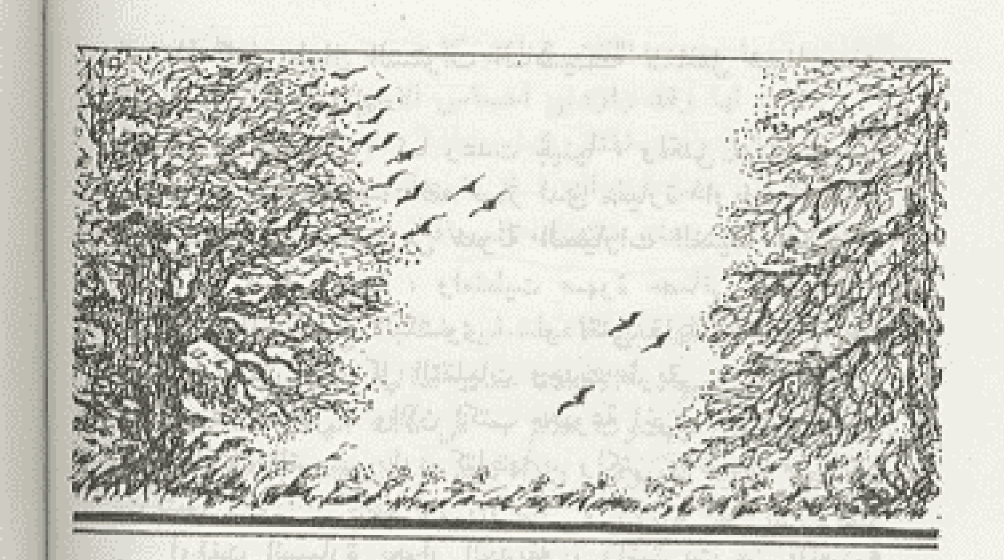
ومضت الحياة في طريقها ، واحيانا كنت اتذكر فجاة اتفاقنا ، وقبيل الموعد بعدة ايام شعرت بقلق حاد ممض ،

كما لو كنت طوال السنوات الماضية لا افعل شيئا سوى الاستعداد لهذا اللقاء .

لم اصبح شهيرا كما وعدت جينيا ، ولكني لم اخل بوعدي في شيء واحد : لقد صار لدى سيارة «اوبل» قديمة ، اشتريتها بثمن بخس من شونة السيارات الغنيمة الخردة . وارتديت بدلة جديدة ، وامتطيت صهوة حصاني الحديدي ، وانطلقت الى مسرح البلشوى . لو انني قابلت جينيا هناك لقلت لها انني بعد كل التقلبات وجدت طريقي : فقد صدرت لي مجموعة قصص ، والآن اكتب مجموعة اخرى . وهي ليست تلك الكتب التي اود كتابتها ، ولكني واثق من انني ساكتبها .

أوقفت السيارة بجوار الحديقة ، واشتريت من بائعة الزهور باقة ومضيت الى منتصف المسافة بين اعمدة البلشوى . بالفعل كانت ثمانية اعمدة . ووقفت هناك قليلا ، ثم اعطيت الزهور لفتاة نحيلة ، رمادية العينين ترتدى خفا رياضيا ، وعدت بالسيارة الى المنزل . . .

وددت لو استطعت ان اوقف الزمن لحظة لانظر الى نفسي ، والى الاعوام الماضية ، ولاتذكر تلك الفتاة ذات الفستان القصير والسترة الضيقة ، وذلك القارب الثقيل البطئ الحركة ، والمطر الذى غطى سطح البركة المصفر ببراعم حادة ، والصيحة المنفعلة : «لقد جرفنا التيار الى الهند !» ، ولاتذكر عمي روحى الصبية التي مرت بسهولة بجوار ما كان يمكن ان يصبح قدري ونصيبي .



الربيع الصامت

كان ذلك الربيع ربيعا غريبا ، اذ لم يسمع له سرجييف صوتا . كان اول ربيع صامت فى حياته . ولم يكن ذلك راجعا الى صمم اصاب سرجييف ، كلا ، فقد كان يسمع جيدا من منزله بالضاحية هدير طائرات «ايل» و«تو» المتصاعد وهى تقلع من مطار فنوكوفو ، والطنين الخافت كالأنين لطائرات مطارى دوموديدوفو وبيكوفو وقد صعدت عاليا ، والانفجارات المرعبة للطائرات المقاتلة وهى تجتاز حاجز الصوت ، والأزيز الزنابيرى المريح للطائرات المروحية القديمة المحلقة فى دوريات مراقبة للطريق ، والطقطقة الجرادية للطائرات الزراعية التى تلقى على البستان والمزرعة والاسطح والدروب قطرات لزجة بيضاء . كذلك كان سرجييف يسمع اصوات السيارات والموتوسيكلات والجرارات ومكبرات الصوت من دار الاستجمام القريبة ، التى تكرر بلا توقف اربعة الحان ذائعة ، وفيما بعد سمع صيحات التمرينات

الرياضية المهللة من مخيم الطلائع ، والتى تجبر الاطفال ، الذين لم يستيقظوا تماما وما زالت رموشهم مطبقة ، على التلوى فى الساحة الندية الباعثة للقشعريرة فى الابدان . يبدو اننا دخلنا الصيف ، فمخيمات الطلائع لا تبدا الا فى يونيو ، ولكن الربيع ايضا دخل الصيف ، اذ لم تزهر بطم الشمال الا فى منتصف يونيو . وفى الفترة نفسها انتفخت كرات الهندباء البرية وازهر سوسن الوادى والمحممات فى وقت واحد مع الاجراس الزرقاء والقرنفل البرى الوردى . ولكن حتى لو تاخر الربيع فما ينبغى ان يصمت . ومع ذلك ظل ربيع سرجييف ابكم ، بلا اصوات ، اذا استثنينا الضجيج الفج ، المتولد نسبيا عن الربيع ، ولكنه لا يعبر عن جوهره . اما صوت الربيع الوليد – القطرات ، وصوت الربيع اليافع – تغريد الطيور ، . فذلك ما لم يسمعه سرجييف .

فى البداية ظن ان الطيور أجّلت موعد مجيئها ، مثلما أجّلت الاشجار والازهار تفتحها لحين حلول الدفء . ولكنه فيما بعد رأى غربان القيظ التى لم تلوث بعد سيقانها الصفراء الزاهية ، وبعدها جاءت الزرازير واخذت ترتب بيوتها الخشبية التى لوثتها السناجب بعد ان قضت فيها الشتاء . ورأى عصفورة الظل المتارجحة على عود حسك ، والسنونوات فى السماء . لقد عادت الطيور من منتجعاتها منذ وقت طويل لتمارس حياتها العائلية الجادة ، الكثيرة المشاغل ، ولكنها لزمت الصمت لسبب ما ، فهى لا تتغنى بالربيع ، ولا تنشد اغنيات الحب .

فى البداية ظن ان الخرس الغريب أصاب البستان وحده ، بيد انه عندما تحسن الطقس وجفت الارض قليلا ، ذهب الى الغابة فلم يسمع لها صوتا . كانت الشحارير تطير من حين الى حين فوق الدروب ، ولكن صفيرها الحاد لم يمزق مرة واحدة هدوء الغابة المطبق ، وصمتت السميلى والحسون ولم تسبّح عصفورة ولم يسلك الكركى البرى حنجرته قبل الغناء الذى لن يبدا ابدا ، ولم يصح ذكر الوقوق المهلل ، واختفت تلك الاصوات الغامضة التى كانت

تنطلق قبيل المساء من وديان الغابة المشبعة بالضباب والعبير القوي ، اما الزقزاق الاسود مع بياض فكان يميل من جناح الى جناح فوق الفسحة عند طرف الغابة ، ويرسم خطوطا متعرجة ، دون ان يصدر عنه انينه الرقيق المعهود . حتى طيور حفاري الخشب تمكنت من استخراج قوتها بالنقر على جذوع الاشجار دون صوت . وطيور العقعق ، التى كانت تسعى امام اعشاشها ، ادت طقوس الفزع الخفيف لمراى شخص غريب دون ان تطلق طقطقتها . الغربان وحدها هى التى كانت تصم المكان بصيحات متحشرجة من حلوقها المجلوّة ، وهى تنقض من الاعالى على الوافد المتطفل . فياله من ربيع بائس ، هذا الذى لا يسمع فيه غير نعيق الغربان ! ومع ذلك فللغربان اغنية بديعة ، وذلك فى الخريف ، عندما تتجمع الطيور اسرابا لتهاجر الى البلاد الدافئة ، وتستعد الغربان للنزوح الى الجنوب قليلا ، عندها يمتلئ نعيقها الوداعى بأسى يعصر القلب .

كم كانت غابات ضواحى موسكو المتواضعة وغيضاتها وفسحاتها على ضفاف نهر ديسنا تموج فيما مضى بالرنين ، وكم كانت تتالق بغناء المنشدين فى الربيع ! كانت البلابل تصدح من العشية الوردية الرائقة حتى آخر الليل ، ومن غشاوة ما قبل الفجر حتى الضحى المتاخر . فهذه الناحية هى اكثر الاماكن المسكونة بالبلابل فى ضواحى موسكو كلها . كانت البلابل تغرد فى اطراف الغابات ، وفى الغيضات القديمة ، المتبقية من عزب السادة القدامى ، وفى اجمات البتولا والزيزفون ، وفى آكام الحور الرومى بحذاء الطرق والاوتوستراد ، وفى خمائل البنفسج والياسمين وصفصاف البساتين ، وفى مقابر القرى حيث تلوح بين الصلبان المسودة القديمة نصب بيضاء بنجوم حمر فوق قبور قدامى المحاربين . ياله من بلابل جسورة ! فبلدة سرجييف ملأى بالقطط والكلاب ، بل فيها قرد متطفل لحوح ، وعدد كبير جدا من الاطفال المنفلتين ، والأجدر بالبلابل ان تاخذ حذرها ، ولكنها لم تكن تعبا بشىء ، وتنطلق تصدح وهى

تتبارى فيما بينها . فمنها من يتفوق بالنقر ، ومن بالزمر ، وكان بينها اساتذة فى فنون الغناء التسعة .

لماذا كفّت الطيور عن الغناء ؟ طوال سنوات اقامته على ضفاف ديسنا راى سرجييف شتى العجائب ، كبيرها وصغيرها . ففى ذلك الصيف المشهود ، الذى اخذت فيه الارض بعد ان حمصتها وجففتها الشمس المسعورة ترن تحت الاقدام وتؤلمها بصلابة درعها ، امتلأ درب الغابة المفضل لدى سرجييف ، والذى كان من قبل رطبا فصار مشققا مثل صحراء قره قوم ، بالضفادع النافقة اللامعة وكانها مطلية باللّك . يبدو انها زحفت الى هنا من البرك والجداول والمستنقعات الجافة ، متذكرة رطوبة وظلال هذا الدرب السابقة ، فجففتها الشمس حتى الموت . وحينذاك خرج من الغابة وعل صغير وهو يركض ويدير راسه بجنون ثم خرّ ميتا . واتضح انه لم تبق فيه قطرة دم واحدة ، اذ امتصه البعوض وشتى هوام الغابة .

فى ذلك الصيف الرهيب اشتعلت الغابات والطين الصفحى فى المستنقعات حول موسكو ، واضاءت السيارات نهارا مصابيحها فلم تخترق انوارها القوية حجب الدخان الابيض وتناثرت اقراصا طيفية . وسار سرجييف ، وهو لا يعلم بعد بالحريق ، فى طريقه عبر المرج بجوار النهر الاسود ، ذلك الفرع الصغير من نهر ديسنا خلف مصب المصنع ، الذى اطلق عليه هذا الاسم لسواد مياهه الاردوازى صيفا وشتاء ، واذا به يكتشف فجاة ان الفضاء المرئى كله يتغطى فى بطء واطراد بغلالة لبنية متذبذبة . وفى دقائق معدودة تحول المنظر الطبيعى المتواضع لضواحى موسكو ، الذى ظل زمانا طويلا مخلصا لفرشاة الرسامين الروس الرواد ، الى الشبحية القمرية لمناظر ليوناردو دافنتشى ، اذ فَقَدَ كل شىء فيه ملامحه المحددة ، وتمدد وذاب فى الغلالة الدخانية الشاحبة الزرقة ، ومن يقظة اصبح حلما .

وفى مرة اخرى اكتشف على الطريق الزراعى كثيبا داكنا

من فراشات ميتة ملتصقة ، بجوار بركة جافة ، امتدت منها الشقوق كخيوط العنكبوت . وكانت فراشات اخرى تحط على الكثيب ، وتغرز خراطيمها عميقا فى كتلة الجثث ، ثم تطوى اجنحتها ، وتفارق الحياة .

وذات مرة هبط امام سرجييف ذكر وقوق ، وهو الذى لا يمكن ان تعثر عليه ابدا مهما بحثت عنه ، هبط بصورة سافرة دون ان يحفل به على غصن صنوبرة كبير بقطرات صمغ كهرمانية منتفخة ، تبدو وكانها ملبسة بالسكر عند منابت الابر ، وصاح بملء صوته ، ناشرا جناحيه ومثبتا ذيله كالوتد . وصاحبت صيحاته الرنانة الملتاثة سرجييف حتى طرف الغابة .

وفى احدى جولاته حدث ان افسد ظهوره على طيور العقعق معاقبتها لثعلب صغير ، يبدو أنه نهب اعشاشها . اذ استغل الثعلب اضطراب معاقبيه الصارخين وهرب ، تاركا على العشب مزقا من فرائه الأحمر . وفى تلك اللحظة حدث ما جعل سرجييف يجاهد للنجاة بنفسه . فمن حيث لا يدرى انقضت عليه اعداد هائلة من الذباب الاخضر الصغير فغطته من قمة راسه الى اخمص قدميه ، وقد قررت ان تمتص دمه كما فعل البعوض بالوعل الصغير ، وراح الذباب يندس فى عينيه ، فى حدقتيه مباشرة ، وفى فمه ، وفى اذنيه ، ويشتبك بشعره ، وينفذ الى عبه . ولم يكن ثمة مجال للهرب من هذه المصيبة المضحكة والمرعبة . وحل الغيظ المسعور محل السخط المقرون بالفكاهة ، ثم تحول الغيظ الى ذعر ، فانطلق سرجييف هاربا من الغابة ، وهو يدمى قدميه فى الجذوع الساقطة وسط الاعشاب ، وصاحبه الذباب حتى نهاية الفسحة ثم توقف عن ملاحقته وتعلق فى الجو سحابة زمردية متالقة طنانة .

وباختصار كانت تحدث شتى العجائب ، ولكن مثل هذه الاعجوبة الحزينة ، اعجوبة الربيع الاخرس ، لم تحدث من قبل . وعبثا كان سرجييف يصيخ السمع ، وعبثا كان يسرع لملاقاة الطبيعة المستيقظة صباحا ، وعبثا كان يركض فى

المساء الى آجام البلسان الظليلة خلف النهر ، التى كانت تاوى اليها فى الماضى اعلى البلابل صدحا . لقد ماتت موسيقى العالم المزدهر العاشق .

وذات مرة قالت زوجته :

— ما أروع غناء البلبل فى حديقة جارنا ! اتدرى ، يخيل الى انه بلبلنا الذى كان عندنا فى العام الماضى ، ولكن يبدو اننا لم نرق له لسبب ما ، فغير محل اقامته .

وسالها سرجييف :

— متى سمعته ؟

— أسمعه كل مساء . وربما كان يصدح صباحا ، ولكنى استيقظ متأخرا .

خلافا لزوجته كان سرجييف يستيقظ مبكرا . وقبل ان تبلغ الساعة السادسة خرج الى البستان . كان الندى يغطى الأكمام والاوراق وغصون الياسمين المجرى ، وانتشرت رائحة وليدة ساحرة لعالم يستيقظ ، وران سكون بلورى . ثم دوى هدير طائرة مقلعة من مطار فنوكفو . ومرقت شاحنة بجوار المنزل مقرقعة بصندوقها المفكك . وانتظر سرجييف ، ولكنه لم يسمع اصواتا اخرى عائدة الى حياة الطبيعة الناعمة . وفكر ساخرا بان البلبل تأخر فى النوم مثل زوجته ، فعاد الى البيت وجلس الى طاولة الكتابة .

وفى المساء ، عندما كانوا جالسين فى الشرفة يشربون الشاى ، لاحظ سرجييف وجه زوجته **المصغى** فتذكر البلبل . كان البلبل يغنى لها وحدها ، اما سرجييف فظل لا يسمعه . خيل اليه انه يسمع «تيخ ، تيخ ، تيخ» المأمولة ، ولكن اتضح انها أصوات عملية ، فقد كانت الجدة تخرط القريص الطازج لحساء الكرنب .

وسالته زوجته :

— احقا لا تسمع ؟

— لا اسمع .

— ماذا بك ؟

— يبدو اننى شخت .

– ما دخل الشيخوخة هنا ؟ . . . – وصاحت الزوجة – يا جدتي ! أتسمعين البلبل ؟

وضعت الجدة المخرطة وقالت بتأثر :

– ياله من شيطان ! انظر كيف يشدو هذا الملعون !

وعادت تخرط القريص .

ولكن سرجييف سمع ذات مرة غناء جميع الطيور تقريبا ، تلك التي تصنع ربيع ضواحي موسكو . جاءت الى البستان من الغابات والحقول المجاورة لتقدم حفلة تحت نوافذه المفتوحة على الهدوء غير الطبيعي المثير للرهبة . غنت كلها دفعة واحدة ، ودون ان يعوق احدها الآخر ، واتحدت اصواتها القوية المليئة في كورال واحد ، لكن كلا منها كان يؤدي دوره . ما اروع ذلك الصدح ، واي نغمات ، اي تغريد ! . . . ظن سرجييف ان غصون الاشجار وقمم الشوح والاسطح والافاريز واسلاك التليفون غاصة بالطيور ، ولكنه عندما اطل من النافذة لم ير طائرا مغردا واحدا ، ولا حتى القراقف التي كانت الجدة تطعمها بقايا السلامي . ذهل سرجييف حتى الرعب من غياب الطيور التي كان رنين تغريدها المدوي يهز الفضاء الاخضر الساخن المشبع بالشمس . ودق صدغاه . فجلس الى المكتب وضغط على اذنيه براحتيه ، ولكن الغناء الساحر استمر اعلى من ذي قبل واكثر ظفرا . كان ذلك صخب الدم في عروقه المتصلبة الضيقة التي كان الدم يمر خلالها بصعوبة ، بينما ظل العالم الخارجي صامتا كما كان . يبدو ان عليه ان يقتنع بتلك الموسيقى التي يحملها في ذاته ، الأمر الذي له مزاياه ايضا : فقد كان دمه يغني بغض النظر عن فصول السنة .

. . . قضى سرجييف فبراير الماضي في مصح بضواحي موسكو . انتصب بناؤه البرجي الهائل ، المبني من طوب فاتح اللون ، وسط سهل واسع تهب عليه جميع الرياح المارة بروسيا الوسطى . كان واقفا في مهب الريح ، حيث تشعر بانفاس الريح الشاكية القادمة من اطراف المحيط المتجمد ، والزفرات الدافئة لرياح الصحراء اللافحة التي

بردت في طريقها الطويل ، واللسعات المالحة الرطبة من جهة الغرب حيث البحر ، والدفقات العصبية للرياح الشرقية المتقلبة . قال احد الادباء القدامى : «في روسيا دائما ريح». بيد انه بنفس الصورة من عدم التوفيق يمكن القول بانه في روسيا دائما مطر ، أو دائما شمس ، فروسيا ليست بلدا بل عالما باكمله ، يوجد فيه دائما كل شيء . غير ان ما قاله الكاتب القديم يصبح ذا معنى محدد اذا ما تمحورت روسيا اللامحدودة في حيز صغير يشغله مصح «البتولا الباكية» ، فهنا دائما ريح تشد اعصاب نزلاء المصح بالقلق والعذاب والراحة والهلاك . تاتي الريح من الفراغ الذي تلوح خلفه القرى الغارقة في الثلج ، ومن غيضة البتولا الخفيفة المكشوفة التي تحيط بالمصح كالحدوة .

وربما بسبب الريح تشعر وكانك تعيش هنا مكهربا ، في انتظار متوتر لوقوع شيء ما . وبالنسبة لسرجييف اسفر هذا الانتظار عن وصول اربعة اشخاص رشيقين ذوي جمال يشكلون أسرة . زوج وزوجته وابنتهما وحفيدتهما . كان الثلاثة الاول يبدون اصغر من عمرهم بكثير ، اما الرابعة فكانت اكبر بكثير ، فتطلب منه ذلك بعض الجهد ليضعهم في تناسب سليم فيما بينهم . جعل الأب والام اكبر ، واضاف الى عمر ابنتهما قليلا ، اما الحفيدة فحذف من عمرها عدة سنوات ، مما نقلها من مرتبة الآنسة البالغة الى درجة متواضعة لصبية كبيرة .

وساعد التوتر العصبي سرجييف على تخمين فرد آخر غائب من افراد الاسرة (بالطبع ليس زوج الابنة ووالد الصبية الكبيرة ، فهذا طبيعي ، بل فرد آخر) . فطن سرجييف اليه من عيني الأم الجريحتين ، ومن ذلك التوتر الغريب الذي كان يقلص احيانا فمها القوي الطيب ، ومن التجاعيد التي خددت فجاة وجهها الناعم المتماسك الذي لم يستسلم للشيخوخة . ولكن لا حاجة للمبالغة في قوة فراسة سرجييف ، فهو لم يفطن الا الى وجود شخص مفقود ، لكنه لم يكن بوسعه بالطبع ان يعرف ان المفقود ، ومن فترة قريبة جدا ،

هو الابن ، ذلك الشاب الموهوب ، الذى كان يبشر بعالم فذ . وقد أودى بحياته مرض مفاجئ نادر مؤلم ، لا برء منه.

كانت الاسرة تقف صامدة فى وجه الريح . . . لا تلك الريح السفلية النافذة القصيرة الأمد التى كانت تلقى بالثلج الجاف المتفتت على واجهة المصح عندما وصلت الاسرة الى هنا . . بل ريح القدر الساعية بغيظ لا ينفد الى تمزيق شراعهم . . الريح السوداء التى ذهبت ببصر الأب وهو فى منتصف طريق الحياة ، وفى الطفولة المبكرة سلبت الابنة سمعها ، وها هى مؤخرا تختطف الابن . لم يفطن سرجييف على الفور الى ان عينى هذا الرجل الجميل ذى الحركات البطيئة الرشيقة ، العينين السوداوين الموجهتين باهتمام الى من يحادثه . . . لا تبصران . كانت زوجته عينيه . وخلال حياتهما المشتركة الطويلة توصلا الى نظام تعامل من حركات ولمسات فى غاية الخفة ، لا يلاحظها الآخرون ، ومن تنحنحات وتأوهات وكلمات عابرة ، بحيث يستطيع الكفيف أن يتصرف فى عالم الاشياء بثقة شخص مبصر . لم تكن تصدر عنه حركات خاطئة او حتى مترددة ، ولم يكن فى مشيته ادنى اهتزاز ، ولا يحرف راسه جانبا خشية الاصطدام بعقبة مفاجئة ، وبوسعه ان يخبرك بالوقت مخرجا من جيب سرواله ساعة بارقام بارزة ، دون أن تلاحظ انه يرى الوقت بأصابعه . وفوق ذلك كان يدق على الآلة الكاتبة بسهولة . ولكنه رغم قدرته على القيام بأعمال كثيرة ، كانت زوجته **تقوده** .

وظل سرجييف مدة أطول لا يحدس بصمم الفتاة ، معتبرا ان طريقة كلامها الغريبة ، الخالية من التعبير الحى ، والواضحة المحددة النبرات ، ترجع الى الخصائص النغمية لصوتها الغليظ للغاية . ولكنها كانت تتحدث بهذه الصورة لانها لم تكن تسمع نفسها ، ولانها تعلمت الكلام من ذاكرة طفولتها الضعيفة عن عالم الأصوات ، ومن حركات شفاه المعلمين الخاصين وبالدرجة الاولى من والديها ، اللذين كانا يقودانها عبر الصمت المطبق بها بثقة وبصورة لا تلحظ ، مثلما كانت الأم تقود الاب عبر ظلامه .

وفكر سرجييف بصورة جدية تقريبا : ماذا لو اننا لسنا ضيوفا معززين على مادبة الكرام ، كما تصور توتشيف* فى اباء ، بل ضحايا تجربة هائلة ؟ تجربة قاسية ، الهدف منها تحديد مدى عمق الطبقة الانسانية فى الانسان . فاذا كان الامر كذلك فان على الالهة البعيدة ان تحنى رؤوسها اجلالا للقوة المعنوية العظيمة لهذه الاسرة .

كل فرد من افراد هذه الأسرة يؤدى الى النهاية دوره فى الحياة . فالاب المحمل بشتى النياشين والالقاب يصوغ معادلات رياضية مذهلة ، قادرة فى وقت واحد على اعادة خلق الكون فى ابدع صورة وعلى تدميره من اساسه . ولكن العلماء ، هؤلاء القوم المرحين ، المحبين للحياة ، لا يفكرون فى القوة التدميرية لمعادلاتهم ، وانما هم ببساطة يتركون عقولهم تعمل ، فى حين انهم لا يقصدون سوى الخير . ولذلك فهذا العالم الرياضى الاعمى ، المشبع عطفا على كل ما هو حى ، يخترع فى اوقات فراغه محركات سيارات لا تلوث الهواء بل تزيده تشبعا بالاوزون ، ومحركات طائرات لا ترسل الى الارض ضجيجا جهنميا ، بل انغام موسيقى فيفالدى وموتسارت .

والابنة دكتورة فى فلسفة العلوم ، وهى تدافع عن افكارها العلمية فى المؤتمرات والندوات والمحافل الدولية ، متحدثة بالانجليزية بنفس الجهد والوضوح الذى تنطق به الالفاظ الروسية ، بصوتها الغليظ ، الشاذ عن مالوف الاصوات .

واما الأم فتحقق ذاتها فى المأثرة الانسانية السامية ، مأثرة التفانى . فقد تخلت عن مهنتها (وبناء المنازل اكثر من مهنة ، انه رسالة) من اجل زوجها وابنتها ، فاصبحت لاحدهما عينين وللاخرى اذنين . ولكنها لا تشبه الضحية فى شىء . فذات مرة راى سرجييف ، وهو يتزحلق بالزلاجات

---

* توتشيف فيودور ايفانوفيتش (١٨٠٣ ـ ١٨٧٣) شاعر روسى . **المعرب** .

في الغابة ، امرأة شابـة ، بوجه متضرج بالحمرة ، تنقض بزلاجاتها عليه ، وتمر مندفعة من جواره ، لافحة اياه بحرارة منعشة . ومن ابتسامتها الودية فقط ورموشها الطويلة فوق العينين الرماديتيـن الزرقاوين ، عرف سرجييف في هذا المخلوق الرائع الصبي الذي بدا وكأنه يهرس الغابـة في اندفاعه العاصف ، زوجة العالم الأعمى .

واما الحفيدة فكان كيانها كله ينفث سحر الصبا . عينان ذهبيتان ، واذنان صغيرتان ورديتان تلتقطان اصوات العالم برهافة حساسة ، حتى ان لحمتيهما كانتـا تصطبغان بين الحين والحين بحمرة شفافة ، اذ يثير فيها اعجاب المحيطين بها فرحة الخجل والارتباك . هذه الصبية هي ثمرة الابداع المشترك لهذه الاسرة والمكافأة التي استحقتها .

قال العالم الرياضي لسرجييف وهما يحتسيان نبيذا خفيفا في الغرفة :

— لقد تابعت داخليا عبر السنين صـورة زوجتي بل وحتى ابنتي . . وانا أعرف كيف تبـدوان الآن ، وافرح لذلك . لكنني لا اعرف كيف تبدو حفيدتي . وعلى العموم ، فهل هذا مهم الى هذه الدرجة ؟ انها رقيقة للغايـة ، وقد رسمت لها صورة في خيالي ، ولست بحاجة الى غيرها . البصر يمد الانسان بخمسة وثمانين في المائـة من معلوماته عن العالم ، لكنني اعتبر السمع اهم الحواس الخمس . ان يُحرم الانسان من الموسيقى ! . . . ليس عبثا ان تولستوي ، وقد سئم بحتميـة الموت ، لم يأسف الا على شيء واحد : على الموسيقى . فلن يكون لها وجود هنـاك . . . لماذا لا تستخدم جهاز السمع ؟

— وهل سمعي ضعيف الى هذا الحد ؟

— الصمم يتفاقم بسرعة .

اذن فلذلك تطرق الى هذا الحديث !

— الجهاز لا يفيدني . صممي من نوع آخر .

صمت فترة ثم سأل :

— أهي الحرب ؟

تردد سرجييف في الاجابة ، اذ لم يكن يرغب في الدخول في التفاصيل ، اما الرد بالايجاب فيمكن ان ينطوي على ادعاء كاذب بالبطولة . رغم انه من جهة اخرى . . . كانوا قـد بعثوا بسرجييف الى مدينة «آنا» ، في الخطوط الخلفية لجبهة فورونيج ليفحصه اطباء المستشفى العسكري هناك . فمنذ عدة ايام مضت اثار غضب الجنود الالمان بصراخه في بوق من الورق المقوى «هتلر كابوت !» * وغيرهـا من العبارات المهينة ، كجزء من عمله في مجال الدعاية المضادة . وعندما ملّ الالمان تماما من صوته الأبح الذي كان يعكر بلا داع وبالحاح سكون الحقل الخريفي الحزين المقفر ، فيما يسمى بالمنطقة الحرام ، اطلقوا عليه نيران الهاون . ومست شظية القذيفة خوذته وقلبتها على رأسـه ، ولكنه لم يشعر بالم شديد . ليس باقوى من ذلك الألم الذي كان يشعر به ، عندما كان عدوه في فناء المنزل جينكا ميلنيكوف يصيبه من النبلة في جبينه بقطعة حديد منزوعة من بطارية التدفئة على السلم . ولكنه هنا في الجبهة ، مثلما في الماضي ، أحس بالغيظ ، فليس بوسعه أن يرد . فقد كان جينكا يطلق عليه نبلته من كوة النافذة في شقته ، وهنا لا يستطيع الوصول الى الالمان . ودهش سرجييف من ارساله الى المستشفى بعد عدة ايام ، فقد كان يعتبر نفسه في حالـة ممتازة . وبلغ مدينة «آنّا» متنقلا بين عدة سيارات مارة ، ولكنه عرج قبل المستشفى على السوق الصغيرة الفقيرة البائسة ، حيث حصل مقابل بكرة خيوط على كوب من اللبن الرائب . وما أن قرب طرف الكوب البارد من شفتيه ، حتى ألقت طائرة «هينكل» ، خرجت من وسط السحاب ، قنبلة حارقة على السوق ، قنبلة واحدة وحيدة ، وكأنها باضت بيضة . لم تدو صفارة الانذار ، ولم تطلق المدفعيـة المضادة نيرانها ، ولم يسمع ازيز الطائرة المتقطع الذي تشربته السحب القطنية ورطوبة الهواء الضبابية . وحينما استخرجوا سرجييف من تحت الانقاض كان

* «هتلر انتهى» (بالالمانية) . **المعرب** .

قابضا بيده على قعر الكوب المسنن . وبعد ذلك بسنوات عديدة ، اثناء الفحص العام ، اكتشف طبيب الانف والاذن والحنجرة ، وهو يدق بعظام اصابعه على يافوخ سرجييف ، اصابته بالصمم فى اذنه اليسرى نتيجة صدمة الانفجار . وساله سرجييف بابتسامة قلقة : «وهل ستترك لى اذنى اليمنى ؟» ، فتنهد الطبيب العجوز قائلا : «انا لست منجما» . وعلمته الحياة ان يسلم بالقدر ، واصبح يثق بقوى الجسم البشرى الطبيعية اقوى بكثير مما يثق بتنبؤات الاطباء . ولكن محدثه الباسل ، الذى علمته تجربته المرة ان فقدان احدى الحواس الخمس امر شبه حتمى ، كان يعتبر التورية التى تترك ولو ظلا من أمل لا محل لها . فرسم لسرجييف ببرود اعصاب صورة للمستقبل الذى ينتظره . وقال سرجييف فى نفسه وهو يجرع النبيذ بشراهة زائدة بعض الشىء : «طيب . سانضم حينئذ الى عشيرتكم العملاقة اذا واتتنى القوة ، فاذا لم تواتنى فسوف استعيرها منكم . . .» .

. . . فماذا يا صديقى سرجييف ، هل واتتك القوة ام لم تواتك ؟ انت نفسك لا تعرف بعد . لقد تملكك الارتباك عندما اكتشفت انك تسمع بدلا من اصوات الربيع صخب الدماء وهى تجاهد للمرور فى عروقك الضيقة . اذن فقد كنت تظن انك ستخدع القدر ؟ لم تفلح ، وما كان بالامكان ان تفلح . وستنال كل ما قدرته لك الحرب فى شيخوختك . ولتكن سلواك ان كل شيخوخة هى عموما صعبة ، وليست العلل والخسائر الجسدية هى اسوا ما فيها . ولا تصدق ان هناك شيخوخة وقورة . فان جوته العظيم ، الذى احتفظ حتى النهاية بحدة احاسيسه ، وصفاء عقله وروحه ، وصحة جسده الفولاذية ، قد ابتلى بمصيبة أخرى ، مضحكة تقريبا ، وان كانت فى الواقع اشد مرارة من جميع المصائب : لقد توله وهو فى العقد التاسع من عمره بحب فتاة فى الثامنة عشرة . واعتقد هذا الطفل العجوز ، والشاعر الاعظم ، ان اهل الفتاة سيزوجونها بكل سرور من مبدع «آلام فيرتر» و«فاوست» ومعبود أوروبا . ولكن أهل الفتاة اعتبروا ان

العجوز فقد صوابه (وكان ذلك صحيحا الى حد ما) فما اكثر العرسان المناسبين لكنزهم من حيث العمر . . . ابن الخباز ، والصيدلى ، والموظف المبشر بمستقبل . ولم يُقدَّر للقلب الشاب النابض فى صدر الشاعر العجوز ان ينشد آخر اغانى الحب ، ومات الشاعر مقهور النفس . ويبدو ان الفتاة لم تتزوج لا من ابن الخباز ولا من الصيدلى ، ولا من الموظف الواعد . ومن العسير تصديق ذلك ، اذ يبدو هذا سموا مبالغا فيه ، ولكن ربما بالفعل «لم تستطع اغانى الأرض المملة ان تصبح عوضا عن اصوات السماء» التى داعبت اسماع الفتاة الصبية ؟

فلندع الخلود لجوته ، فقد عانى ما عانى وانتهى ، اما معاناتك انت ففى بدايتها . حتى الآن لم تفقد سوى البلابل والقبرات ، ولكن بقيت لك الغربان . وانت تستطيع ان تسمع الكثير من الضجيج الآلى ، والموسيقى العالية ، كما ان الاصوات البشرية لم تغب عنك الا فى السينما ، وهذه خسارة ليست بالكبيرة . فلتستمتع اذن بالعالم الذى ما زال مسموعا واكثرْ من تذكر اصدقاء مصح «البتولا الباكية» . من المؤسف حقا ان رب تلك الاسرة ينتمى الى تلك الفئة «الخفية» غير النادرة فى عصرنا المتخوف . فليس له عنوان او هاتف ، ويعيش فى مكان فرضت عليه السرية الى درجة انه عندما يعود اليه يكاد يختفى من الدنيا . وما اشد حاجة سرجييف اليه الآن .

فى بداية يونيو سار سرجييف على درب فى الغابة يمر اولا عبر غابة بتولا ، ثم عبر غابة شوح معتمة ويفضى الى فسحة بها ثلاث بلوطات عتيقة . كان فيما مضى يسلك كثيرا هذا الطريق الذى يعد بلقاءات مفاجئة ، تارة مع وعل ، وتارة اخرى مع ثعلب واحيانا مع سنجاب وذات مرة راى قطيعا من الخنازير البرية يمر منه عند المساء . ولكنهم فيما بعد شيدوا دفيئات قرب البلوطات ، فهجرت الحيوانات هذا القسم من الغابة . الى اين تمضى حيوانات ضواحى موسكو التى يطاردها البناء ، واين تجد المأوى الآمن ؟ كثيرا ما

تكتب الصحف باعجـــــاب غير مفهوم عن «وعل فى نطاق المدينة» . ما الذى يُفرح فى ذلك ؟ امن المعقول ان شوارع المدينة تبدو لابى القرون اكثر بشاشة من غابات ضواحى موسكو ؟ لم يبق وفيا للدرب غير الشحارير ، كما ظهرت هنا مؤخرا بومات مخبولة تخلط بين الليل والنهار . ففى ضوء الشمس ، حيث ينبغى عليها ان تنام ، مغمضة بقوة عيونها المستديرة الخضراء المصفرّة ، اذا بها تندفع من على الغصون الى وجهة ما ، وهى تصطدم بالاشجار .

وكم كانت فرحة سرجييف عظيمـــة عندما رأى على بعد حوالى خمسين خطوة منه وعلا صغيرا يقضم غصون خميلة . لم يهتم الوعل بالشخص المقترب منه . وجمد سرجييف فى مكانه لحظة ، ثم اسرع نحوه . ولم يبد ان الوعل يفكر فى الهروب وقد فقد كل حرص فى انكبابه النهم على الطعـــام . وكان احيانا يختفى تماما فى الخميلة ، ثم يظهر ثانيــــة فى طرف الممر مبرقشا بظلال الاوراق . ومع كل خطوة تصاعد فى اعماق سرجييف هاجس سيئ . وحينما لم يعد ثمة شك فى ان فقدان السمع ليس خسارته الوحيدة ، ظل يقنع نفسه ببلادة واشفاق ان ما يراه هو وعل حقا وليس تلاعب الاضواء والظلال . لقد اضفى النسيم الذى كان يهب على الدرب واشعة الشمس المائلة حياة كاذبة على الخميلة التى اشتبكت بهـــا اعواد قصب جافة . اين يا سرجييف عينك الصقرية التى كنت تلتقط بها البطة الطائرة على ذبانة البندقية من مسافة ستين مترا ؟ . . .

فى الاسرة التى فرضت عليها السريـــة توجد حفيدة لا تخضع لقيودها ، ولديها هاتف فى موسكو . ولكنها قناة اتصال خطرة . فلا ينقص سرجييف ، فوق كل هذه الخسائر ، الا معاناة جوته .



الطائر الاخضر ذو الراس الاحمر

لم تات بائعة اللبن . . لا بد انها تشاجرت مع زوجها من جديد . ولكن بافلوف لم يكن ليسمح بان يبقى ولداه التوامان بلا لبن ، فاخذ القدر وتوجه الى قرية كورينوفو على بعد ستة كيلومترات . بالطبع سيتاخر مرة اخرى عن العمل (كان يعمل فى بناء مطعم المصنع) ، ولكن هذا لا يهم ، طالما تقتضى الضرورة ان يتناول التوامان اللبن اليوم ايضا .

كان بافلوف ، حتى عهد قريب ، يعرف كيف يعيش موفقا بين شتى الواجبات ، بحيث لا يطغى حبه لاسرته على العمل ، ولا يضر شغفه بعمله – كان يشيد آنذاك فندقا ضخما فى حى زاريادیه بموسكو – بمصالح اسرته . فبعد فترة الصبا التى مزقتها الحرب ، وبعد فقدان الاهل والاقارب ، وبعد العلة القاسية والعوَز ، اصبح بافلوف يسعى الى حياة يسودها الاعتدال والترتيب . ولكن كل شىء انقلب راسا على عقب فى ذلك اليوم الذى قال فيه الطبيب ، بعد ان كشف على التوامين

وفحصهما ، وامعن النظر فى صور الاشعة السوداء : «ان رئاتهما ضعيفة ، والافضل ان يعيشا خارج المدينة» . وخارت نفس بافلوف ازاء احساس ممض بالذنب . ما قد ظهرت الآن آثار ما تكشف لاول مرة فى اواخر خريف عام اثنين واربعين فى مستنقعات جبهة فولوخوف . كان الملازم بافلوف يغتسل من مغسلة معلقة قرب الخندق المسقوف ، واذ به يبصق بصقة دموية غليظة على الحب الجليدى الابيض كالملح الذى غطى اعشاب المستنقعات بقشرة صلبة . وقال بافلوف فى نفسه : «انه الاسقربوط» * مع انـــه كان يدرك جيدا انـــه ليس الاسقربوط ، والا فلماذا هذا الضعف الدائم فى الجسم والعرق البارد والحمى فى الليل ؟ ولكن الاسقربوط يمكن ان يفسر سبب هذه البقعة الدموية القانية على الحب الجليدى ، كما انه اقرب الى الحقيقة ، اذ كان الكثيرون مصابون به . فرغم ان جبهة فولوخوف كانت مرتبطة بموسكو مباشرة بثلاثة خطوط حديدية — عبر فيشيرا ونيبولتشى وتيخوين — فقد كان تموينها سيئا وكانما كان عليها ، ولو بدرجة طفيفة ، ان تشارك مصير لينينجراد المحاصرة ** التى لم تستطع الجبهة ابدا ان تحررها . وظل بافلوف يقنع نفسه بان مرضه هو الاسقربوط طوال الايام والاسابيع والاشهر التالية حتى موعد الهجـــوم الذى كان ينتظره ، مثل جميع افراد الجبهة ، كما ينتظر المؤمنون ظهور المسيح ثانية . كان الجميـــع يعرفون ان هذا اليوم ، يوم الهجوم ، سوف ياتى ، وان الهجوم لن يفشل هذه المرة ، وان حلقة الحصار حول لينينجراد سوف تكسر اخيرا . ومن اجل ذلك اخفى الملازم بافلوف المرض الذى ينهش رئتيه عن نفسه وعن الآخرين . كان قصير النظر الى حد الاجرام ، فقد كان يظن انه يتصرف فى جسده وصحتـــه ومصيره وحده . ففى

* داء من اعـــراضه تورم اللثة ونزف الدم منها بسبب سوء التغذية ونقص الفيتامينات . **المعرب** .

** فى الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١—١٩٤٥) صمدت مدينة لينينجراد لحصار القوات الالمانية الهتلرية ٩٠٠ يوم ولم تستسلم . **المعرب** .

لينينجراد المحاصرة ماتت من الجوع كل اسرته الصغيرة — امه واخته — فلم يعد لوجوده معنى الا بالاشتراك فى اختراق الحصار . وقد تحقق ما كان يرجوه ، اذ رأى جنود جبهـــة فولوخوف وهم يندفعون للقاء اهل لينينجراد عند بلدة «مجلا» ، وساعتها اصابته شظية دانة ، امتدت بعدها ايام المستشفيات العسكرية ، بين الحياة والموت ، ثم مرحلة طويلة من النقاهة الشاقة ، فولوج حياة جديدة بعد انتهاء الحرب بعامين . وبعد ذلك كانت الدراسة الصعبة فى المعهـــد ، والعَوَز ، وعودة المرض اليه ، والاكتئاب من جراء عدم الثقة فى قواه البدنية . ولكنه تجاوز كل ذلك ، وآمن ، وهـــو موشـــك على بلوغ الاربعين ، بانه يستطيع ان يعيش كالآخرين ، . ان تكون له زوجة واطفال . . .

تزوج بسرعة غير متوقعة ، ولم يكن ذلك راجعا ابدا الى انه احب آخر صديقاته اكثر مما احب الاخريات . الامر كله حسمته حركة واحدة . ففى الصباح ، وقبل ان يفترقا ، رفعت هى ذراعيها الى رأسها لتجمع خصلات شعرها المتفرقة فى حزمة واحدة . واذهل وضعها هذا بافلوف ، اذ كان اشبه بشىء يحمل فى طياته الفرحة . فرحة غريبة ، لم يستطع فى البداية ان يعرف كنهها . ظل يفكر فى ذلك بلا كلل ، وهو يستعيد فى خياله صورة امراة وافرة البدن ، برأس هادئ منكس قليلا ، وذراعين مستديرتين قويتين ومرفوعتين ، ويتملى هذه الحركة الساكنة المفعمة بالقوة الحليمة والانوثة والثقة ، فادرك ان صديقته كانت تشبه فى هذه اللحظات الكارياتيد * . اما فرحته فكانت حدسا منه بقدرتها على تحمل اعباء الحياة الزوجية وتحمل ضعفه هو دون وجل . واتضح كذلك انها ، هذه الكارياتيد ، لسبب ما لا تحتاج فى هذا العالم المتنوع بلا حدود الا الى هذا المهندس الطويل ، ذى الرئـــة الواحدة والخدين الهزيلين الغائرين ، اللذين دبت فيهما حمرة كانما مسّهما الصقيع .

* ركيزة مبنى او عمود معمارى على شكل امراة ترفع البناء بيديها . **المعرب** .

وقد تأكد بافلوف فى ساعة الشدة ان حدسه لم يخنه فى ذلك الصباح البعيد ، عندما خمن بحركة واحدة من الذراعين المستديرتين القويتين المرتفعتين ببطء نحو الشعر الغزير ، تلك القوة المنقذة الكامنة فى شريكـــة حياته المقبلة ، التى ستقاسمه السرّاء والضرّاء. فبسرعة لا تعقل ، وبجهود غير ملحوظة عثرت على منزل خشبى بسعر معقول فى بلدة تقع على بعـد ثلاثين كيلومترا من موسكو ، على طرف غابة صنوبر فتية وقرب نهير صاف رقراق . وكان هناك بجوار البلدة مصح يجرى بناء مطعم له ، ومطلوب له كبير مهندسين . وعلى مقربة من البلدة مدرسة ثانوية ممتازة يحتاجون فيها لمدرسة لغة انجليزية ، بينما كانت زوجة بافلوف تعمل بالترجمة الفنية من اللغـــة الانجليزية .

استقبل التوامان الانتقال الى الاقامة الجديدة بلا دهشة او أسف . واندمجا فى حياة الضواحى بثقة وحيوية ، وكأنما كانا يستعدان لها خفية منذ زمن بعيد . لقد نشأ بافلوف وزوجته وآباؤهما واجدادهما فى المدينة ، لكن اسلاف بافلوف الغابرين كانوا من طينة «بسكوفية» * فلاحية اصيلة ، واتضح ان صلة «الكريفيتشى» الامجاد بعالم الطبيعة الخالص قد انتقلت عبر الاجيال ودون مساس الى ابنى المدينة الصغيرين ، اللذين لم يشعرا بأى ضياع فى عالم الاشجار والاعشاب والطيور والآفاق الرحبة والسماء الواسعة . وبسرعة تعرفـــا على بستان الدار الصغير ، وعلى المنطقة المحيطة كلهـــا ، وسرعان ما اخذ السنجاب المقيم بالبستان يقفز على اكتافهما .

اصبح الصبيان بحالة رائعة ، واكتسبت بشرتهما سمرة جميلة دائمة لا تزول حتى شتاءاً ، وكأنما استبدلا جلدهما ، وقويت عضلاتهما ، وظهرت فى مشيتهما رشاقة اشبه برشاقة حركات الوحوش . وعاد بافلوف يشعر بذلك الارتباك الوجل

* اشتهرت مدينة واقليم بسكوف فى شمال غرب الاتحاد السوفييتى بدورهما البارز فى تاريخ روسيا القديمـــة ، وارتبط اسمهما بمعانى الكفاح ومقاومة الغزاة . والكريفيتشى قبائل سلافية شرقية اندمجت فى الشعب الروسى قديما . **المعرب** .

الذى يحل محـــل الاحساس بالسعادة لدى الاشخاص الذين عانوا الأمرين .

مضى بافلوف الآن لاحضار اللبن ، وهو يلوح بالقدر فى يده ، ومن حوله انتشر نهار ازرق ومشمس ، يصر بجليد الصباح الباكر ليوم فى اواخر الخريف ، وركض ظله الطويل النحيل بجواره فى اذعان ، متخلفا عنه قليلا ، على خندق الطريق المغطى بالارقطيون البنى المكتسى حبباً ، وعلى عـــوارض الاسيجة ، وعلى جذوع البتولا ، فغمز بافلوف بعينه لظلـه الذى وان بدا بائساً ، فهو رغم كل شىء ظل شخص ناجح موفق .

خرج من البلدة الى مرج عريض يفضى الى النهير . وكانت هناك سكة تقطع المرج ، وانتشر حبب الجليد على جنبات بعض الدروب والمدقات المشعثة . والى اليسار ظهر مبنى المطعم غير المكتمل بعد وراء سور المصح الحجرى ، والى اليمين ، حيث يمم بافلوف وجهه ، امتدت غابة صنوبر . كانت تبدأ بغيضة فتية صناعية غرست اشجارها ، وفيما بعدها تتسامى صنوبرات باسقة للغابة القديمة ، تلفها زرقة خفيفة . وتبدو الغيضة كلها مكشوفة للبصر عبر الدروب المستقيمة كالاوتار . كانت تلوح جميلة بصفة خاصة فى لحظات الغروب ، حيث تلتهب فى نهاية كل درب شعلة حمراء منذرة . وتفضى الفسحة الواسعة عبر الغابة الى خط نقل الكهرباء ، ومن هناك يمضى الطريـــق مباشرة الى كورينوفو .

وما ان دلف بافلوف الى الغيضة حتى تملكه احساس معهود بالقلق الغريب . ففى هذه الغيضة بالذات كما يؤكد التوامان ، يعيش طائر اخضر مدهش برأس احمر . وكان بافلوف يعتبر هذا الطائر محض اختلاق لخيال اطفال عليل ، وفى كل مرة يفكر فى هذا الطائر يساوره القلـــق ، وكأنما يكمن فى هذا الاختلاق نوع من السوس ، قادر على ان ينخر الاساس الذى تقوم عليه حياتهم الاسرية الموفقة حاليا .

بدا كل شىء ، كما تبدأ جميع مصائب الانسان فى العادة ، من شىء تافه تماما لا توليه اهتماما ، ثم بعد ذلك تقول لنفسك بأسى وحسرة وألم : لماذا كنت غافلا الى هذا الحد ، ولماذا لم

اكتشف العدو فى صورته الاولى الغامضة ؟ لم يغفر بافلوف لنفسه انه لم يلق بالا فى البداية الى ثرثرة ولديه عن الطائر الاخضر الكبير الذى ادعيا انهما ابصراه فى الغابة . فليكن انهما ابصراه ، ماذا فى ذلك ؟ لكنه ذات مرة انصت الى ما يقولان .

سأل التوام الاصغر :

— ما رايك ، هل هو اكبر من الزاغ ؟

كان يصغر شقيقه بست دقائق فحسب ، لكنه ظل وفيا بصورة مؤثرة لوضعية الاخ الاصغر .

فقال التوام الاكبر بثقة :

— طبعا اكبر . انه بحجم الغراب ، لكنه انحف منه قليلا .

فهتف الاصغر بحماس :

— وراسه احمر جدا ، كانه يشتعل ! انه اجمل طائر فى الدنيا ! . . .

فامّن الاكبر على قوله :

— نعم ، لا توجد طيور اجمل منه .

وضحك بافلوف ضحكة هازئة . فمثل هذا الطائر لا وجود له فى هذه النواحى . وكان بافلوف يعرف جيدا جميع الطيور الموجودة فى ضواحى موسكو : الزاغ ، والغربان ، والعقعق ، والعصافير ، والزرازير والقرقف ، والحسون ونقار الخشب والوقوق وغيرها وغيرها ! يبدو ان الامر اختلط على الاولاد ، او هو مجرد تلاعب الاضواء من تلاقى اشعة الشمس بخضرة الغابة . . .

وسأل الاصغر :

— وهل لاحظت الزرقة فى صدره ؟

فاجاب الاكبر بحزم :

— كلا ، ليس فيه بقعة زرقاء واحدة . كله اخضر حتى آخر ريشة ، وبراس أحمر !

واعتبر بافلوف انهما اخترعا هذا الطائر فابدى دهشته من ان الاطفال لا يقنعون ابدا بما هو فى الواقع . او ليس العالم جديدا بالنسبة لهم وحافلا بالاسرار المستغلقة ؟ لكنهم يسارعون الى ملئه بشتى المخلوقات الخرافية : بالعفاريت ،

والغيلان ، وجنيات البحر ، ومصاصى الدماء ، والمساخيط ، والساحرات ، والاقزام والعمالقة ، والطيور الخضراء الكبيرة ذات الرؤوس الحمراء . ومنذ أمد قريب ، فى اوائل عهدهم بهذا المكان ، أعجب التوأمان ايما اعجاب بالطيور الحقيقية المتواضعة لهذه النواحى ، اذ كان كثير من طيور الغابات والحقول يزور بستانهم . وكان بوسع التوامين ان يراقبا ساعات طويلة حفار الخشب وهو يدق جذع الصنوبر بمنقاره فى ضراوة ، حتى ليبدو ان راسه المدبب سينخلع بين لحظة واخرى . ولم تكن دهشتهما اقل من ذلك عندما ابصرا طائر السيتا وهو يقفز رائحا غاديا كالمكوك بين جذع شجرة الشوح العالية وغصونها .

وثبت بافلوف لوحا خشبيا بين اغصان زعرور برى ، ونثر الصبيان عليه حبوبا وأخذا يطعمان الطيور . وسرعان ما اصبحا على معرفة دقيقة بأذواق الطيور . فالقرقف مثلا لا يحب القمح ، الذى تقبل عليه العصافير والسيتات ، ولكنه يهوى بذور عباد الشمس . فلو القيت على اللوح ببقايا لحم فان طيور الزرياب الجميلة الهيّابة تتخلى عن حذرها المعهود . ونقل التوأمان حماسهما فى الاهتمام بالطيور الى ابيهما . واصبح بافلوف يعجب بمراقبة العصافير الصغيرة وهى تطرد عن الطعام طيور الثلج الوردية المنتفشة . كانت العصافير ، كالمنبوذين الحقيقيين ، على علاقة عداء شديد بالعالم المحيط . وكانت تعرف انها لن تتلقى احسانا من البشر ، وان مذاود اطعام الطيور ليست معلقة من اجلها ، فمضت تنتزع نصيبها بالقتال . كانت تنقض على اللوح سربا ، فتطرد الطيور الصغيرة ، وبمعارك قصيرة ضارية تبعد طيور الثلج ، وتسرع بالتقاط الطعام قبل ان يعوقها أحد عن ذلك .

فلماذا استنفد ما فى العالم المحيط بهذه السرعة بالنسبة للصبيين ؟ ولماذا قررا ان يضيفا اليه طيورا خضراء برؤوس حمراء ؟ كان بافلوف يفكر فى ذلك بتلك الجدية التى ينظر بها الى كل ما يتعلق بالاولاد ، ولكنه لم يجد جوابا على اسئلته . واحيانا كان يذهله ويحزنه انه لا يدرك نفسية

الاطفال الى هذه الدرجة . الم تكن لديه خبرة من طفولتـــه الخاصة ، او لم يكن هو نفسه طفلا ؟ ! ولكنه كان يشك فى ذلك احيانا . لم تعرف طفولته اوقات فراغ ، وكانت عهدا من الهموم الدائمة والمشاغل المستمرة . ولم يكن فى اى وقت مثقلا بالأعمال كما فى سنوات الطفولة . فابوه لم يكن له وجود فى حياته الا فى صورة فوتوغرافية مصغرة لمجموعة من جنود الجيش الاحمر على رؤوسهم خوذات حادة القمم وبنجوم حمراء كبيرة . كانت امه تقول له : «هــا هو ، الثالث فى الصف الثانى» ، وبعد ذلك اخذ هو يقول ذلك للآخرين مندهشـــا دائما : لماذا ينبغى ان يعتبر آباه الشخص الثالث فى الصف الثانى بين هذه المجموعـــة الكبيرة من المحاربين الشبان المتشابهى الوجوه ؟ لقد خلف له الشخص الثالث فى الصف الثانى تركة ثقيلة : ارملة طيبة ، قليلة الحيلة ، بلا مهنة ، وابنة صغيرة مريضة المعدة . كانت ارملة الشخص الثالث فى الصف الثانى هى أم بافلوف ، وابنته هى اخته ، وكلتاهما بحاجة الى عناية دائمة . وفى اوقات الفراغ من الدراسة والعمل فى منظمة الطلائع كان بافلوف ينقل على ظهره الزجاجات الفارغة من مخزن الخمور ليسلمها فى طرف المدينة الآخر . وكان ذلك يكفل له دخلا صغيرا ولكنه مضمون . وفى سن مبكرة اصبح يعمل فى البداية مرافقا ثم مربيا فى مخيمات الطلائع الصيفية . وكان خياله ذا وجهة عملية بحتة ، فلم يتصور نفسه ابدا فارسا منتصرا على الافعوانات والعمالقة ، بل كان مهموما بأمور اخرى : اين يجد عملا ، ويستدين نقودا ويحصل على الحطب والكيروسين ، ويدبر امور المعيشة الصعبة . فى هذا كان يفكر بافلوف الصغير وهو يأوى الى الفراش ، وكانت احلامه ايضا عملية ، فلم تكن تعود عليه براحة حقيقية .

وعندما افاق بافلوف من الحرب والمرض ومناقشة مشروع التخرج من المعهد المضنية ، كان شبابه قد مر ، دون ان يخلف ذكريات سارة عنه ، او أسفا عليه ، وشرع بافلوف يحيا حياة جديدة وهو رجل بالغ ، كانما لم تكن لديه طفولة او يفاعة او صبا . واصبحت حياته الجديدة مع زوجته وولديه

غالية عليه الى حد لم يسمح معه لأشبـــاح الماضى بالتردد عليها . اما الآن فقد أسف على انقطاع صلته بطفولته هذا الانقطاع الحاد ، اذ لولا ذلك لربما استطاع ان يفهم ولديه بصورة افضل . . .

كاد بافلوف ينسى ذلك الحديث الذى سمعه خلسة ، ولكن الطائر الاخضر عاد يكشف عن وجوده اللامنظور . فى هذه المرة تحدث الصبيان عنه علنا ، فى حضور والديهما ، اثناء الغداء .

قال الاكبر :

– لقد رايته صباح اليوم . حلق فوق راسى وحط على الصنوبرة .

فسأله الاصغر :

– على صنوبرة الثعلب ؟

– لا ، على المحروقة . وكان واضحا جدا ! ظللت ساعة كاملة اتفرج عليه .

ولوح له الاصغر بسبابته بان لا تكذب !

فتراجع الاكبر متضرج الخدين :

– حسنا ، ليس ساعة . ولكن طويلا ! تاملته جيدا . عينه كقطعة كوبيك * جديدة ، صفراء وبراقـــة ، ومنقاره ليلكى . وهو ايضا رآنى ، ولكنه لم يجفل .

– ربما كان لا يخاف من الناس . . .

فتنهد الاكبر قائلا :

– بل يخاف . انا ايضا فكرت : ربما يكون مستأنسا ، وتقدمت نحوه . وظل ينظر الىّ ، ثم خفق بجناحيه واختفى على الفور .

– وهل اقتربت منه كثيرا ؟

– لو كان على غصن اقل ارتفاعا للمسته بيدى .

– كفاكما ثرة ! كلا !

قالت الأم بحدة غير معهودة فيها ، فادرك بافلوف انها

* الكوبيك عملة معدنية صغيرة تساوى واحد من مائـــة من الروبل . المعرب .

ليست المرة الاولى التى تسمع فيها هى ايضا عن الطائر الاخضر ذى الراس الاحمر ، وان هذه البدعة الملحفة تزعجها مثلما تقلقه ، هو بافلوف وتثير أساه .

وبعد ذلك سارت الامور من سيئ الى اسوأ . جن جنون الصبيين بالطائر الاخضر . ولم يعد لهما من هم سوى هذه البدعة ، واخذا يفخران بها ، وكانهما اكتشفا فى الطبيعة بالفعل مخلوقا رائعا كان مجهولا من قبل . ولم يكن فى حديثهما ما يدل على رغبتهما فى اثارة والديهما وجرهما الى الاشتراك فى لعبة ما . لم يكن يعنيهما ان كانا يصغيان اليهما ام لا . كانا يخاطبان احدهما الآخر فحسب ، فى بساطة وجدية ، فجزع بافلوف من جدية هذه اللعبة المتبادلة باوراق مكشوفة . وتراءى له فيها شيء خطير ، مرَضى .

وشيئا فشيئا فرض الطائر الاخضر نفسه على حياة الصبيين واخضعها له كاملة . فما ان يعودا من المدرسة حتى يهرعا الى غابة الصنوبر ويظلا هناك الى المساء . وحسبما ادرك بافلوف فقد كان هذا الطائر ذا طبع متقلب : فتارة يطول انتظار التوأمين له فلا يظهر لهما الا لمحا ، وتارة أخرى ينعم عليهما بصحبته ، منتقلا من غصن الى غصن على مهل . وكان يأتى دائما من ناحية الحقل ، ثم يحوم بعد ذلك فى المنطقة الواقعة بين الصنوبرة المحروقة والصنوبرة التى رأى الصبيان تحتها ثعلبا ذات مرة ، فسمياها «صنوبرة الثعلب» . كانت هاتان الصنوبرتان تقفان على طرف بقعة جرداء تميزها كتلة بيت نمل حمراء وخميلة غبيراء . وادعى الصبيان ان الطائر غير العادى ، الطائر الاخضر ذا الراس الاحمر ، كان يأتى الى هنا . وكان طائرا طيبا آمنا ، وبدا ذا طبع رائع يفيض سماحة وصفاء وجسارة . لم يكن يخشى احدا . . لا الغربان ولا العقعق ولا الثعالب . ورغم منظره المغرى ، بالوانه الزاهية ، فقد كان شجاعا بحيث يسمح للناس بالاقتراب منه الى مسافة ذراع . ولكنه كان بالنسبة لبافلوف طائرا فظيعا . . ثمرة حلم مريض وتجسيدا مجنحا لذنبه الذى لا ذنب له فيه بحق ولديه .

وبوازع الروح العملية السوية ، التى اعتبر بافلوف ان

الصبيين ورثاها عن أمهما ، قرر التوأمان ان يضفيا على بدعتهما الوهمية هذه مسحة مادية ، فعزما على اطعام الطائر . كان الخريف الجاف بلا امطار يستقبل آخر ايامه . وقد انتهت الثمار من الغابة منذ أمد بعيد ما عدا ثمار الغبيراء ، ورقّت اوراق الاشجار الذهبية وراحت تنتظر اول هبة ريح لتترك اغصانها . وكان صقيع الصباح يلسع الارض ببرودته ، وانحشرت كافة المخلوقات الصغيرة فى لحاء الاشجار وتحت الاوراق المتحللة ، واصبحت الطبيعة شحيحة الطعام . ولم يكن للطائر الاخضر منقار قوى لكى يستخرج قوته من جذوع الاشجار مثل حفار الخشب ، ولم تكن لديه قدرة العصفور على التهام اى شيء والتعيش على هبات الطريق الريفى ، ولا لصوصية العقعق أو وحشية البوم أو قوة ووقاحة الغربان . ولم يكن يجيد ، مثل الطيور المستقرة بهذه النواحى ، العثور على دردة أو بذرة او ثمرة غبيراء جافة فى فترة الشح ، ولم يكن طائرا ملحافا مثل القرقف الذى يتسول الطعام دائما من اهل البلدة . كان طائرا عزيز النفس ، وعلاوة على ذلك فهو غريب عن هذه الاماكن فيما يبدو . واذ ادرك الصبيان كل ذلك ، راحا يطعمانه غير باخلين بالجهد او الصبر . فى البداية كان عليهما ان يعرفا ما هو الطعام المفضل لدى الطائر الاخضر . فاخذا يحملان الى الغابة بالتناوب حبوب الحنطة والقمح وبذور عباد الشمس ، وكسر الخبز ، والعدس ، وطحين الشوفان . وسرعان ما اتضح ان الشبح الأخضر يفضل البذور . ولسوء الحظ فقد كانت العقعق والعصافير والقرقف ايضا من كبار عشاق البذور . فتبادل التوأمان الحراسة لطرد هواة السطو . ولم يكن ذلك بالامر الهيّن ! فقد حاولا بالصراخ والصفير والقفز الجنونى ابعاد اللصوص ، غير ان الطائر الأخضر كان يعتبر هذا الهيجان موجها ضده فيبتعد عن موضع الطعام .

وتهاوت تماما اسس حياة التوأمين المنتظمة والمتنوعة . لم يعد لديهما وقت للقراءة وللعب الشطرنج والانشغال بجهاز الراديو القديم . اصبحت حياتهما محصورة فقط فى نطاق المدرسة والدروس والطائر الاخضر ، علما بان المدرسة

والدوس اصبحت فى عداد الواجبات المضنية ، بينما كان الطائر الاخضر ذو الراس الاحمر هوى القلب . وكان بافلوف على استعداد لان يبدى اعجابه بفروسية ولديه فى خدمة حلمهما لو كان هذا الحلم ممكن التحقيق ، ولكن هذا التفانى كان يتبدد عبثا على بدعة وهذيان . . .

– هلا اريتما اباكما هذا الطائر ؟

قالت الام ذات مرة من اعماق هدوئها البارد . ولكن بافلوف ادرك بحدسه المستتر قلقها .

وقال الاخ الاكبر ببساطة :

– لا مانع .

فى تلك اللحظة آمن بافلوف او كاد بوجود الطائر الاخضر ذى الراس الاحمر فى الواقع . ولكن عندما ساروا فى صف واحد على درب الغابة ، وعندما شغلوا نقطة المراقبة تحت الصنوبرات ، اصبح على يقين تام بأن شيئا لن يحدث . ومع ذلك كان تحليق اى عقعق ، وصرخات الزرياب الحلقية ، التى تنذر الغابة بوجود غرباء ، وخفق القرقف بين الخمائل العارية ، وهسيس الاوراق الجافة على الارض وقد حركتها الريح . . كل ذلك كان يجعله ينتفض تشوقا واملا .

وهكذا امضوا عدة ساعات فى انتظار بلا طائل . وكان التوأمان مهمومين حزينين ، لكن لم يبد ابداً انهما مرتبكان او محرجان . ورغم انهما كانا عادة لبقين حساسين ، فقد امعنا فى لعبتهما الكريهة الى حد الخشونة .

وقال لهما بافلوف فى قسوة :

– حسناً ، لقد حققتما ما كنتما تريدان ، وجعلتمانى اومن بوجود هذا الطائر . اما الآن فكفى ، المزحة اصبحت كذبة ، كذبة حمقاء بلا معنى .

شحب الأخ الاكبر وقال ممتقعا :

– أنت احمق !

وردد الأصغر :

– انت احمق يا بابا !

وانفجر باكيا .

احس بافلوف بالالم حتى فى هذه اللحظة ، وهو يتذكر ما حدث . وقد زاد من المه انه يسير الآن على ذلك الدرب الذى فقد فيه قلبي ولديه . ها هى ذى الفسحة اياها ، وها هى ذى الصنوبرة المحترقة ، وها هو ذا بيت النمل ، وها هى ذى الصنوبرة الاخرى ، وها هى ذى الغبيراء . وفى الشمس الساطعة ذاب الحبب الجليدى فاصبح كل شىء براقا مبللا : ابر الصنوبر ، وقواعد الجذوع والعشب الاخضر الجامد . وعلى غصن شجرة جلس عصفور نافشا ريشه ، مدورا مثل كرة رمادية بنية .

. . . حصل بافلوف على اللبن فى كورينوفو وعاد ادراجه .

وبعد ان تجاوز خط نقل الكهرباء واوشك على بلوغ غابة الصنوبر ، احس انه من المضنى ان يعود من نفس الطريق ، فدار حوله ، مارا بغابة بتولا خفيفة . ولسبب ما فاحت من لحاء البتولا الرطب رائحة ملابس مغسولة ، وفى الهواء الساكن لم تهتز ورقة واحدة ، ومع ذلك كانت الغيضة مفروشة بطبقة كثيفة من الاوراق الذابلة الصفراء . وبجوار جذمور نخر لاح شىء ساطع الخضرة . اقترب بافلوف منه وحرك بسن حذائه تلك الكومة الطرية من الريش الاخضر خضرة ساطعة والخفيف الى درجة ان عدة ريشات منها طارت فى الهواء من ملامسة قدمه . فى هذه الكومة الساطعة الخرافية لاحت بضع ريشات رفيعة مستطيلة حمراء كأنها قطرات دم قانية . يبدو ان الكاسر الذى انقض على الطائر الاخضر ذى الراس الاحمر لم يترك منه عظمة او لحمة ، وخلّف فقط حلته الجميلة غير الصالحة للاكل بجوار الجذمور ، او ربما هى الريح التى جمعت الريش المتبعثر على الأوراق المتحللة بجوار الجذمور . . .

امتلأ قلب بافلوف بالفرحة والمعاناة . فلأول مرة آمن الآن بان التوأمين صبيان قويان ، سيتغلبان دون جهد على الضعف البسيط فى قفصهما الصدرى ، ويشبان قويين طيبين يركن اليهما . ولكن لماذا لم يستطع لا هو ولا زوجته ان يرتفعا الى مستوى الايمان البسيط بالمعجزة التى تكشفت لابنيهما ؟ لماذا نفضت الأم يدها من الأمر ببساطة ، أما هو

فقد عذب نفسه واساء الى ابنيه بعجزه البائس عن تقمص ايمانهما ؟

كان من المحتمل ان يصل التوأمان الى هذا الموضع من الغابة بحثا عن الطائر الاخضر . ففتش بافلوف حتى وجد غصنا مدببا ، وحفر به حفرة غير عميقة فى التربة اللينة عند السطح والصلبة من الداخل بسبب الصقيع ، ودفن الريش وقد غطاه بالاوراق العطنة . واخذ بافلوف معه ريشة حمراء ، لانه كان بحاجة الى دليل مادى بعد أن زرع فى ابنيه عدم الثقة باساءته اليهما .

قال لابنيه بعد عودته الى البيت :

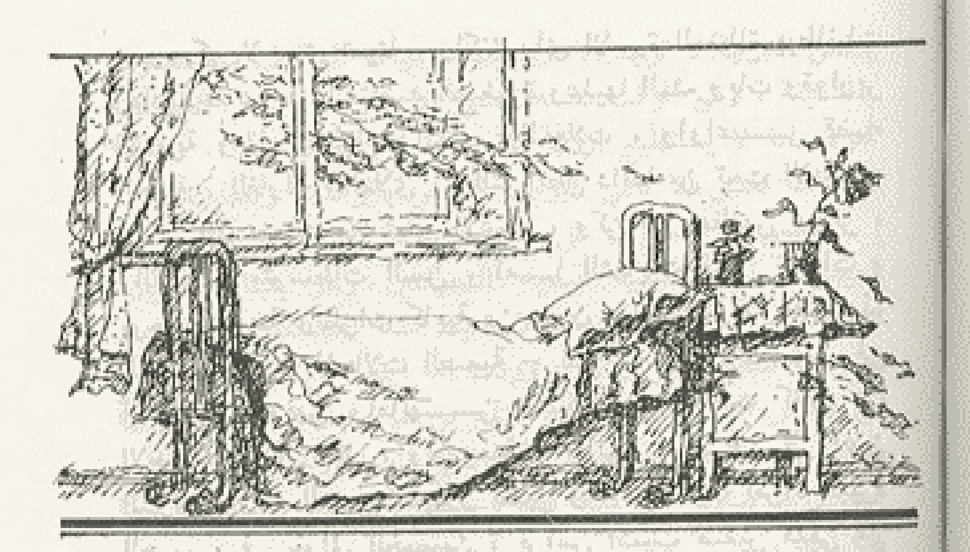
— لقد رايت طائركما . كان متوجها الى الجنوب . وسقطت منه ريشة ، ها هى ذى .

تناول التوام الاكبر الريشة بحرص ، ومررها على خده ، ثم اعطاها لأخيه ، فكرر هذا نفس الحركة .

وسال الاصغر حالما :

— ترى هل سيصل ؟

— كان يطير عاليا ، بقوة وانسياب ، حتما سيصل .



سوف تعيشين

صعد الى الطابق الثالث حيث قسم النساء الباطنى فى مصعد شحن واسع كثير الصخب ، يتسع لحمل نقالات المرضى وعربة قدور الطعام . وكانت عاملة المصعد عجوزا رهيبة المنظر ، ذات وجه ملحم غاص بالشامات المشعرة وصدر لا يحاط به ، محشور فى رداء المستشفى بل ومزقه عند خياطة الاكمام . وكان المصعد يتجاوز محطات الوقوف فى كل مرة ، فتشد العجوز ذراعا صغيرة لتعيده الى اسفل ، وهى تسبه قائلة : «ايها الشيطان !» وكأنه حصان جافل .

خفض كرافتسوف بصره كانما يشعر من حوله انه لا يرى المرضى الراقدين فى عنابرهم خلف الابواب الزجاجية ، ولا المتسكعين منهم فى الطرقات فى ارواب قصيرة لا تزرر عند الصدر فوق القمصان الداخلية ، ومرق بسرعة الى العنبر الذى ترقد فيه أمه . غير ان جميع تفاصيل حياة المستشفى كانت تنفذ الى وعيه بصورة ما . كان بالفعل يسعى جاهدا الى غض

بصره كي لا يرى شيئا ، ولكنه رأى الأسرة المغطاة ببطانيات رمادية قديمة ، والمناضد الصغيرة وعليها المشروبات وقوارير الادوية وبقايا الطعام والكتب والمجلات ، وأواعـــى قضاء الحاجة ، الفارغة والملأى ، والتى تطل دائما من تحت الاسرة ، ورأى المريضات من شتى الاعمار ، وكن فى معظمهن عجائز ، والقليلات متوسطات السن ، أمـــا الشابات فكنّ نادرات ، بوجوه ترابية ونظرات كابية من عيون مرهقة – فقد كان هذا القسم مخصصا للحالات الصعبة – نساءٌ مستغرقات بعمق فى آلامهن ومخاوفهن وآمالهـــن وشكوكهن ، بحيث كففن عن الاحساس بأى خجل ، ولم يعدْنَ يبالين بمظهرهن فى أعين الزوار . وفى العنبر المجاور لعنبر والدته رقدت امراة كبيرة الجسم ، فى حوالى الخمسين ، برأس اشيب صغير ملقى على الوسادة ، وهى تعانى منذ عدة أيام فى حالـــة بين الموت والحياة . وكان جلد وجهها المسود مشدودا بقسوة على وجنتيها وفمها المنفرج الذى بدا وكأنه لا يتنفس . وانزلقت البطانية وتجمعت عند قدميها ، وانحسر قميصها متجعدا فى كومة . ومن عند عنقها اللوزى الغامق المعروق دب الصبا فى جسدها بصورة غريبة فبدا مرمريا فى بياضه وامتلائه وجموده المهيب . واحس كرافتسوف وكأنه ارتكب اثما او فعلة سيئة اذ وقع نظره على الجمال التمثالى لهذا الجسد المعذب ، فأسرع يتجاوز العنبر .

كانت امه تصاب دائما بالارتياع كلما جاء . تتسع عيناها الرماديتان المائلتان الى الزرقة ، واللتان اصبحتا بلا لون ، بينما تتهدل زاويتا فمها ، وتروح يدها اليسرى تعصر قبـــة القميص فى تشنج . وكان كرافتسوف يدرك المبالغة فى هذا الارتياع : فقد كانت امه تريد ان تظهر له ان مجيئه مفاجاة تامة لها ، وانه ليس هناك ما يستدعى حضوره على الاطلاق .

فيقول لها مجاريا :

– كلا ، كلا ، كل شىء على ما يرام . . كل ما هناك انى وجدت ساعة فراغ . . .

وكان كرافتسوف يجد «ساعة الفراغ» هذه كل يوم ولكنه ظل يتظاهر دوما بأنها محض صدفة ، لانه كان يعلم ان امه

بنفس الدرجة لا تريد الاخلال بنظام حياته المألوف والمحسوب بالدقيقة ، وفى الوقت نفسه تخشى الا يزورها ابنها . غير انها تعرف انه لا يستطيع ان لا يأتى . نعم ، تعرف هذا ، ولكنها مع ذلك تخشى الا يأتى اليوم ، فتشعر بالوحشة وتتعذب . . .

جلس كرافتسوف على مقعد متهالـــك مطلى بطلاء زيتى أبيض ، وطوق ركبتيه بيديه النحيلتين ، وهو يتمايل قليلا ، موجها نحو امه وجها مستطيلا ضيقا عند الصدغين ، وابتسم ابتسامة ضعيفة غير واثقة . وردت امه ايضا بابتسامة فيها نوع من التآمر الماكر . لم يكونا متآمرين على حياة احد آخر ، كما يحدث احيانا بين شخصين يحب كل منهما الآخر حبا مفرطا ، غير ان ما بينهما كان ملكا لهما وحدهما ولا يمكن ان يشاطرهما فيه احد .

وسألته امه :

– متى ينقلوننى الى عنبر عادى ؟

– لا توجد هناك اماكن .

– مستحيل ان اصدق . المرضى هنا يأتون ويذهبون .

– اعتبرى نفسك معاقبةً . كان عليك ان تلزمى الفراش لا ان تحلّى محلّ الممرضة الليلية .

– ولكنها كانت تذاكر للامتحانات ، ورسبت المسكينة فى امتحان الفيزياء . كانت هذه ثانى مرة ترسب فيها .

– وهل يصح النهوض من الفراش وخياطة الجرح حديثة ؟ ادفعى ثمن ذلك من وحدتك .

– انا لا أضجر ابدا من الوحدة ، لكننى اشعر بالحرج ، فحالتى ليست من السوء بحيث تستدعى وضعـــى فى عنبر منفرد .

ضغط كرافتسوف بأصابعه على ركبتـــه بشدة . لقد استأصلوا من جسد امه قطعة بحجم التفاحة ، والآن يسلطون على جسمها المسكين اشعة اكس . وليس معروفا بعدُ ماذا يخبئ لها المستقبل . وربما استدعى الامر عملية اخرى ، بينما امه فى الثامنة والسبعين ، وقلبها مستهلك ومصاب بذبحة .

وقالت امه بالحاح :

– ولكنك لم تطلب وضعـــى فى عنبر منفرد ؟ أليس كذلك ؟

– بلى .

الا تفهم امه حقا الى اى مدى ترسخت فيه مبادؤهـــا الحياتية ؟ لا ينبغى ان تطلب ابدا . لا تاخذ الا ما هو مقرر للجميع ، لا تتمتع باى امتيازات ، خذ دورك فى جميـــع الطوابير ، لا تشتر التذاكر الا من الشباك العمومى ، احب عملك فى حد ذاته لا من اجل المنفعة التى يمكن ان يعود بها عليك . وبفضل ذلك ظل ، وقد تجاوز الخمسين من عمره ، مجرد قائم باعمال مدير معهد ابحاث علمية ، لانه رفض رفضا قاطعا ان يمنحوه شهادة الدكتوراة تقديرا لمجموع مؤلفاته .

ومع ذلك فقد شكّ كرافتسوف فى ان وضع امه فى عنبر منفرد حدث صدفة ، بل لأن اسمه كان يعني شيئا لأولئك الذين سمعوا عن ذلك المجال العلمي الضيق البعيد عن الاضواء والذى كان يعمل فيه . لكنه كان هنا عاجزا عن فعل شىء ، لانه كان يتوقف دائمـــا ولا يتجاوز ذلك الخط الذى يصبح التواضع بعده مثل النفاق . بيد ان امه ، حفيدة احد الثوار الشعبيين ، لم تكن تقبل المساومات ، حتى ولو كانت من باب اللباقة او وليدة التسامح ازاء الضعف البشرى او الارهاق .

لزما الصمت . وراحت امه تاكل العنب الذى حمله اليها فى كيس وكانما غفلت عن وجوده . كانت تقطع الحبـــة من العنقود ، وتضعها فى فمها ، وتضغطهـــا بلسانها على سقف الحلق ثم تمضغها ببطء وتركيز وشبه عبوس . وبعد ذلك تزدردها بصوت مسموع . وفكر فى ان المرض كما لو كان قد ابرز هرم امه . فليست الماساة فى التجاعيد والبقع السوداء على الخدين والجبين وليست فى الزائدة اللحميـــة على الجفن الاعلى التى تشبـــه بذرة البنّ ، وليست فى النمش الكثيف والقاتم فى اليدين النحيلتين الدقيقتين ، وليست فى شيـــب الشعر الذى رق واصبح خفيفا ، وانما الماساة فى هرم روحها. ما كانت قبلا لتسمح لنفسها بان تلتهم الطعام بهذا الاستغراق وهذا النهم . وعموما فلم تكن فى السابق تاكل الا قليلا ، بل

ولم تكن تاكل وانما تذوق الطعام وهى تعده فى المطبخ . انه لا يستطيع ان يتذكر امـــه وهى تتلذذ بالطعـــام او حتى تمضغه . كان يكفيها القليل من الوقود لكى تشتعل . كانت قصيرة ، نحيفة ، وقد حافظت حتى الكبر على حدة ووضوح ايماءاتها وسرعة وخفة حركتها ومشيتها ، ولم تسمح لنوائب الدهر ان تخرجها من مملكة العواطف السامية ، اما الآن فقد نسيت كل شىء فى الوجود ، حتى ابنها ، وراحت تستمتع بنهم وعلى طريقة العجائز بـ«الحاجة الحلوة» .

كان يدرى سبب انزعاجه الذى يكاد يبلغ حد الحنق : لقد كان يخاف اى تحول فى حالة امه ، اى انحراف بسيط عن مالوف صورتها . ففى سنها يكون الثبات وحده افضل النعم ، فوراء كل تبدل يكمن المرض او الهرم . رات الام نمو ابنها ونضجه ، وتحول الشرنقة الى انسان . اما هو فقد وُهبت له امه مكتملة ، هكذا كانت وهكذا ستبقى . بالطبع كانت تجرى فيها حياة داخلية خاصة ، وتحدث لها تبدلات معينة ، ولكنه لم يرها ولم يشعر بها ، كما لم يلحظ ايضا حتى وقت قريب تحطم قشرتها الخارجية . لم يلحظه لان امه دخلت مرحلـــة الشيخوخة دون خسائر ، او تقريبا دون خسائر . خطت اليها بخطوات ناعمة وبراس مرفوع عاليا . صحيح انه هو ايضا شاخ ، وشاخ كل ما حوله ، اذ اصبح العالم القريب كله اكبر سنا ونضجا، وجمد على هذه الصورة التى لا تخلو أبدا من قيمة . غير ان المسافة بينه وبين امه ظلت كما هى ، الامر الذى كفل ثبات صورتها . ثم بدا وكانما عجلت امه بدخول الشيخوخة الحقيقية دخولا نهائيا بلا رجعة لكنه لم يلحظ ذلك ، لم يلحظ هرمها الا عندما راها على فراش المرض فى المستشفى .

مضت امه بنفس الشراهة تلتهم العنب حبة اثر حبة من ذلك العنقود الثقيل الملىء ، المغطى بطبقة رقيقة اشبه بالبَرَد . فماذا لو كانت تفعل ذلك لضرورة ؟ ضرورة تقتضيها عمليـــة الشفاء ؟ . . . انها لا تشعر بميل الى العنب ، لكنها تجبر نفسها على ابتلاعه ، وعصره بلسانها ، ومضغه بداب ، لكى يصبح الخير الموجود فى عصيره خيرا فى دمها . عندئذ يمكن ان تنظر

الى هذا الاستغراق فى الاكل من زاوية أخرى : ليس من السهل على شخص متقدم فى السن ومريض ان يقوم حتى بهذا الجهد البسيط . وشعر كرافتسوف بالامتنان لامه على هذا الجهد الذى تبذله من اجل نفسها .

كان اكثر ما يخشاه كرافتسوف فى أحرج أيام مرضها ان لا يكون قد بقى لديها شىء من القوى لتقاوم به المرض وقد ألفت طوال حياتها ان تنفقها بلا كلل عليه ، وعلى صحتـــه وقوته ، ورجولته ، ومصيره ، ونجاحه فى الدراسة ، وتدبير امور اسرته . وبدت له امه عزلاء فى مواجهة ضعفهـــا ، فى مواجهة خطر الموت . ولكنها تحملت برباطـــة جاش نادرة اكتشاف المرض فيها ، وجميع نصائح الاطباء المتناقضة تماما ، والعملية الجراحية ، وتلك اللحظات المؤلمة على طاولـــة العمليات ، حيث عانت عذابا كعذاب محاكم التفتيش ، عندما كانوا يجرون تحليلا للورم المستأصل ليحددوا هل يستأصلون جزءا اكبر ام يخيطون الجرح ، ثم ذلك النبأ المباغت – بعد اسبوعين من القرحة – بأن نتائج المزرعة ايجابية (كل ما هو ايجابى فى الطب سيئ) ، ولا بد من عمليـــة أخرى اكبر وبتخدير كامل ، ثم التحول الاخير فى الاحداث ، عندما اتضح ان هناك خطاء فى تحليل نتائج المزرعة ، وبدلا من العملية قرروا لها دورة علاج بالاشعة .

غير ان ما ادهشه واسعده ليس شجاعة امه ، فهى قد عاشت حياتها كلها فى جلَد ، دون شكوى أو أنين مهما واجهت من مشاق ، وانما وجود قوى خفية ما لديها . لقد ساعدت على نجاح العملية الجراحية . ففى الطب تجرى كثير من الامور وفق الحدس ، وبالتخمين ، أو على اساس التحاليل المزعزعة التى يختلف تقييمها من طبيب لآخر ، مثلهـــا مثل رسوم القلب وكشوف الاشعة . وهذه الاخيرة تبدو اشبـــه باللوحات التجريدية التى يرى فيها كل شخص ما يتفق وجهاز التلقى لديه ومزاجه . والمريض هو الذى يعالج نفسه الى حد كبير ، بإرادته وعقله وتشبثه بالحياة وبقدرته على التركيز . وكانت امه تمتلك كل ذلك . وعلاوة على ذلك كان لديها شىء آخر :

لم يكن بوسعها أن تترك ابنها الكبير لتصاريف القدر . كانت تعلم ان أحدا لن يعوضه عن امه العجوز . : لا زوجته التى يحبها بهدوء واخلاص ، ولا ابنته التى ترد على حنان أبيهـــا بتعاطف به نزعة أهمال ، ولا تلك الحفنة من الاشخاص الذين كان يحترمهم ويسميهم اصدقاء ، لغياب الاصدقـــاء الحقيقيين الذين استشهدوا فى الحرب . هكذا سارت حياتهم ، وما كان بوسعه سوى ان يخمن إنْ كان ذلك سعادة ام مصيبة . وقبل مرض أمه لم يكن يعتبر الامر لا هذا ولا ذاك . فهـــل الهواء سعادة ؟ لا بد انه كذلك ، ولكنه لا يتطرق الى ذهن احد من الاحياء ان يصيح بتأثر : «يا لهـــا من سعادة ان يكون هناك هواء !» . ذلك اساس الوجود . صحيح ان الشخص المفلت من قبو خانق او سراديب تحت الأرض ، أو من تحت انقاض منزل منهار يدرك فجأة ان استنشاق الهواء سعادة لا تضاهيها سعادة . هكذا ادرك هو تشابك جوهره بجوهر امـــه كسعادة عظيمة ومصيبة عظيمة عندما اصبحت بين الحياة والموت .

«هيا يا أمى ، هيا ، ابذلى جهدك ! . . . – ردد كرافتسوف فى سره وهو ينظر كيف تلتهم عنقود العنب . . .

. . . هزت شجرة الدردار الباسقة خلف النافذة غصنا ، وكانما ارادت ان تلقى فى العنبر بحزمة من الاوراق مصفرة ولكنها بعدُ قوية سميكة متشبثة باعوادها . ولم تنفصل ورقة واحدة عن الغصن . فهزّه الدردار بعنف كانما يصر على رأيه . وأخيرا انفصلت ورقـــة واحدة عن الغصن ، صفراء بعروق خضراء ، مصابة ببقع منتفخة ، وتأرجحت وهى تطير الى العنبر وتستقر على المنضدة الصغيـــرة . وعلى الفور هدأ الدردار واستكن .

وتذكر كرافتسوف انـــه ظن هذه الشجرة فى البدايـــة زيزفونة ، ثم اعتبرها شجرة لبق ، ولم يفطن الا مؤخرا الى انها من معارفه القدامى . ففى فناء منزلهم بحىّ زاموسكفاريتشيه نمت اشجار دردار ضخمـــة كانت تعلو بذؤاباتها فوق قباب كنيسة بياتنيتسكايا . وفى الايام الاخيرة تذكر اسماء جميع انواع الشجر الاخرى والخمائل والاعشاب فى حديقة المستشفى

الطبيعية . تعرّف عليها فجاة بعد غيبة طويلة فى وسط حياة المدينة ، ودون ارشاد من أحد .

امه هى التى علّمته اسمـــاء جميع الاشجار والخمائل والازهار والاعشاب والنباتات ، وجميــع الحيوانات والطيور والاسماك والزواحف والحشرات . اهتمت مبكرا بان يشبّ ابنها فى عالم له اسمـــاؤه ، لا ان يعيش وسط مجهولات غامضة .

ومع ذلك ، لماذا تذكر فجاة كل شىء من جديد وعرفه ؟ ما الذى أيقظ الذكرى وكيف ؟ لقد حدث هذا فى الوقت الذى ماتت فيه تقريبا ذاكرته الميكانيكية ، فصار ينسى رقم هاتفه المنزلى ، ويخلط اسمـــاء معارفه وزملائه فى العمل ويعتبر الاربعاء جمعة . واذا استثنينا المتاعب الحياتية والاحراجات التى كان يسببها له هذا النسيان ، فان كرافتسوف عموما لم ياس كثيرا على فقدانه هذا النوع الادنى من انواع الذاكرة ، لان ذاكرته التخيلية كادت تصبح أقوى من ذى قبل . وكان يدرك ان تذكره لاسمـــاء سكان هذا العالم غير مرتبط ابدا بالذاكرة الميكانيكية ، بل بشىء اهم واعمق بكثير ، بل ربما باهم واعمق ما فى جوهره . . .

وتناهى صوت أمه :

– هل تذكر حلبة التزحلق ؟ كان الصبى لا يجيد التزحلق أبدا . يخطو بحذاء التزحلق على الجليد كما تخطو البطة ، ثم يلتهم كعكة ضخمة بعد ذلك .

وابتسم كرافتسوف وقال :

– كيف لا اذكر ! كعكة مزخرفة ، غامقة ، بنكهة عسل ، وغير طازجة بعض الشىء .

وقالت أمه بمرح :

– اعتقد ان فرحته الكبرى كانت فى هذه الكعكة وليس فى التزحلق ! كم هو جميل اننا تعرفنا بهؤلاء الناس . ما ان تتذكرهم حتى يغمر الدفء القلب !

تورد خداها الغائران ، وظهر البريق فى عينيها ، ونهضت

جالسة على الوسائد مستقيمة فى جلستها ، فعادت كما كانت فيما مضى .

تحدثا عن معرفتيهما اللذين مرا سراعا فى حياتهم عندما كان كرافتسوف صغيرا لما يدخل المدرسة بعد . وكان ذلك الصبى من عمره تقريبا ، ولكنــه كان تلميذا . وكان يعامل كرافتسوف معاملة الصديق الاكبر القوى والحكيم ، والمسؤول عن سلامته والمحافظة عليـــه . وبنفس الصورة كان يبسط حمايته الفروسية على امه ، تلك المراة الشابة الجميلة ، التى تبدو اشبه بأخته الاكبر منهـــا بامه . وكانت الام والابن متشابهين . . بشعر أسود وعيون عسليـــة ، وبشرة سمراء متوردة .

نعم ، كانما يراهما الآن امامه ، ويحس بانفاسهما النقية النضرة . . ومع ذلك . . هــل كان لهذين الشخصين وجود حقيقى ، ام همـــا من صنع الخيـــال ، او بالأحرى تكونت صورتهما ، كمـــا فى لوحة الفسيفساء ، من شظايـــا الواقع والاوهـــام ؟ فلتحاول اذن ان تعرف كيف تنشا الحكايات المنزلية التى تغلف حياة كل اسرة بضباب الاساطير .

تحدثت عنهما امه فى اليوم الذى اجريت لها فيه العملية . سالته بنبرة كان فيها ضراعة : «هل تذكرهما ؟» . وعلى الفور تذكر كرافتسوف ، بفرحة ادهشته هو نفسه ، ذينك الشخصين الساحرين . . الساحرين فى كل شىء : فى مظهرهما ، وفى الطريقة التى كانا يعاملان بها بعضهما البعض . . بحرية ورقة واحترام . . وكيف كانا يفرحان بكل شىء : بالمعارف الجدد ، وبالنزهة ، وباكوام الثلج ، وبالخيول . ظهرا فجاة فاشرقا كعيد بهيج ، ثم أفلا كما يافل العيد . سريعا ومبكرا ، قبل ان يروى الغليل .

كانت امه المتحفظة فى مرضهـــا ، كما فى ايام العافية ، تنتشى بحيوية غير عاديـــة عندما ياتى ذكر هذا الزوج . وبالمناسبة ، فهى التى سمّت الام وابنها «زوجا» ، رغم ان العرف لم يجر بذلك . وكانت الحرارة تدب فى قلب كرافتسوف عندما يتذكر هو وأمه شتى التفاصيل الصغيرة لتعارفهم القصير .

ان كل هذه الاشياء الحياتية الرقيقة ما كان بوسعها ان تعني شيئا للغرباء ، ولكنها بالنسبة لهما عامرة بالاهمية والعمق . وكانت الام تذكر اكثر مما يذكر ابنها ، بل اكثر حتى مما كان بوسعها ان تذكر ، ولكن كرافتسوف لسبب ما لم تدهشه سعة اطلاعها الغريبة .

ومع ذلك فمن اين ظهر هذا الزوج الرقيق واين اختفى ؟ . . . ولماذا لم يترك اى اثر مرئى لظهوره ؟ لا رقم هاتف فى المفكرة القديمة ، ولا بطاقة بريد ، ولا اى شيء من النثريات ، ولا تذكارا او هدية . ولماذا بعد هذا الاقتراب يختفى فجاة والى الأبد ؟ لم تقع مشاجرة ولم توجه اهانة ، ولم يحدث سوء تفاهم بينهم . امِنْ الجائز انهما رحلا من موسكو ، وهذا كل ما هنالك ؟ هذا هو الاقرب الى الاحتمال ، فلماذا اذن لم يكن لقاء أخير ووداع ، او حديث هاتفى على الاقل ؟ اذن فهو رحيل مفاجئ ، بحيث لم تكن هناك فرصة للوداع او حزم الحقائب . . هذا هو التعليل الوحيد ، رغم انه مشكوك فيه . وقد يبدو انه ليس هناك ما هو اسهل من ان يسال أمه عن ذلك ، امه التى تذكر الكثير . ولكن كرافتسوف يعرف انه لن يسالها ، اما اليوم فقد اتضح له ، لاول مرة ، لماذا لن يسالها .

لقد ربته امه فى كنف البرودة . ولم يرَ أباه الذى استشهد فى الحرب الاهلية . ولم تكن امه تحب الحديث عن ابيه . لكنها كانت مستعدة فى الوقت نفسه للاجابة على اى سؤال من اسئلة ابنها . وكانت تجيب برقة واقتضاب كما فى الاستمارات . اما هو فلم يكن بحاجة الى بيانات الاستمارات ، كان بحاجة الى شيء آخر تماما ، وحينما تاكد من انه لن يحصل من امه على هذا الشيء **الآخر** ، لم يعد يسالها عن ابيه . لقد تولت الام كامل المسؤولية عن ابنها ولم تكن بحاجة الى تاييد معنوى من الأب الراحل . ولم يستطع كرافتسوف ان يعرف مكانة ابيه فى قلبها . كان يخيل اليه احيانا ان ينابيع امه قد جفت من هول الفجيعة التى لم تستطع ان تتغلب عليها حتى النهاية ، واحيانا اخرى كان يخيل اليه ان امه لم تحب أباه ،

وكانت تريد ان يكون لها طفل ، ودون ان تعلم ما يخبئه لها القدر كانت مستعدة لان تربيه وحدها . وكان الاب يدعى كيريل اليكسييفتش ، واسم عائلته اسوكين . اما كرافتسوف فكان يحمل اسم عائلة امه واما اسم الأبوة فكان عائدا لأبيه ولو كان هذا ممكنا لاعطته الام اسم أبيها هى .

ومع ذلك كانت الام تخشى ان تتاثر شخصية ابنها لغياب العنصر الرجالى ، فربت كرافتسوف تربية اسبرطية . فمنذ ان وعى نفسه والبكاء والشكوى محرمان عليه . وتعلم ان يعيش بعيون جافة . ولم يرَ هو نفسه امه باكية ابدا ، حتى عندما رحل الى الجبهة لم تفقد رباطة جاشها . قالت له فقط : «مع السلامة يابنى ، لا تنس الرسائل» ولم توصله الى الباب ، ولم تتطلع من النافذة . لم تقبله امه ابدا ، حتى وهو صغير حتى عندما كانت تهنئه بعيد ميلاده . كانت تشد على يده بقوة وتسلمه الهدية . مائة عام من الصمت . تلك كانت حياتهما المحشورة فى الغرفة الصغيرة جدا بمنزل قديم فى حى زاموسكفاريتشيه . لم يكن ذاك صمت جفاف ولامبالاة ، بل صمت حب قوى للغاية ، حب بالغ القوة ، يخشى ان تؤدى مظاهر الضعف والشفقة والدموع الى هلاك الابن الحبيب . لو كان الأب معهما لصارت الأم ربما مختلفة . ولما لم يكن هناك معادل للعنصر النسائى الرقيق فقد اصبحت الأم صلبة كالحديد .

لم يكن كرافتسوف يعد نفسه محروما على الاطلاق . بالطبع كان يرى ان علاقات رفاقه باهلهم مختلفة ، ولكنه لم يحسدهم ، بل كان ينظر الى حنانهم بشيء من الاشمئزاز . كان يشعر بأن حياته مع امه طريفة بلا حدود . اذ كانت تفتح العالم امام عينيه بلا كلل . . فى الطبيعة ، وفى الكتب ، وفى الفن ، وفى الاشخاص المحيطين بهم والراحلين ، وفى التاريخ ، وفى الجغرافيا ، وفى الآثار ، وتربى فيه الاحساس بالكينونة العالمية لا الوجود المعيشى . وكان يدهشه كيف تعرف امه كل ذلك وهي التى لم تنهِ المدرسة الثانوية ، وتعمل مترجمة نصوص تقنية .

وايا كانت مادة الحديث بينه وبين امه ، سواء عما عايشاه او قرآه ، وايا كان العمل الذى يقومان به معا ، سواء تنظيف الغرفة قبيل اعياد مايو ، ام فلاحة حديقة المنزل ، ام تمليح الفطر ، ام جمع حاجياته استعدادا لاداء الخدمة العسكرية . . . كان يجرى بينهما حوار غير مسموع ، يسمو بالواقع اليومى الى درجة الحياة العليا . ومع ذلك ظلت المائة عام من الصمت هى قسمتهما . كم كبتا فى نفسيهما من حنان وكم كلمات بائسة ، حمقاء لا لزوم لها ولا غنى عنها صمتا عنها ، وكم من دموع جمداها ، وكم من خفقات روحية اخمداها !

وربما لم يحسا أبدا بحرمانهما بهذا الوضوح مثلما احسا به عند ظهور صديقة امه ايام المدرسة مع ابنها الذى كان يكبر كرافتسوف قليلا . نعم بالطبع ، كان هذان الشخصان موجودين فى الواقع . . الام والابن بشعرهما الاسود وعيونهما العسلية ووجهيهما الملوحين . . اللذين اسراهما بطيبتهما المرحة وانطلاقهما الروحى الكامل . قضوا معا يوما بأكمله ، وشاهدوا فيلما ، وربما «الفرسان الثلاثة» بطولة دوجلاس فيربنكس ، ثم شربوا بعد ذلك الشاى مع مربى التوت ، وقلبوا صفحات «قصص البارون مونهاوزن» المصورة . ثم وقف كرافتسوف مع امه على بسطة السلم يتابعان بنظراتهما الضيفين وهما يغيبان فى بئر السلم المظلمة العميقة . ولم يحدث شىء بعدها ، فقد سافرت الأم مع ابنها الى موطنهما فى الشرق الاقصى . . .

وها هما يظهران من جديد فى هذا العنبر ، بعد اشد الساعات رهبة فى حياة كرافتسوف ، الذى خاض الحرب جنديا فى المشاة ، وبالتالى فليس بحاجة الى الهبوط للجحيم ليعرف ما معنى الرهبة .

امه هى التى بادرت بالحديث عنهما . والتقط كرافتسوف الخيط ، فراحا يصنعان بشغف واندفاع صورة ذلك الزوج الرقيق ، ويتذكران كلماتهما وفرحاتهما ، وضحكهما الرنان الخفيف ، وكيف كانا يحبان بعضهما البعض ، وكم كانا طيبين بشوشين ، مفتوحى القلب للآخرين . وكلما اوغلا فى التذكر

انهالت الذكريات اكثر ، وكانت تلك اسعد لحظات حياتهما ، لانهما لم يكونا يتحدثان أبدا عن اناس بعيدين ، بل عن نفسيهما ، وعما حدث بالفعل وعما لم يحدث . قالا الآن ما تراكم خلال قرن من الصمت ، وقد حملا للآخرين فى خجل كل ما لم يقولاه ، كل الاشياء الرقيقة والبائسة والمكبوتة ، والتى ظلت مع ذلك حية تحت غطاء السنين . . .

خلال ذلك اطلت ممرضة العنبر عدة مرات ، ورغم انها لم تقل شيئا فقد ادرك كرافتسوف ان عليه ان ينصرف . ومع كل ما فيه من كياسة وحرص على عدم ازعاج الآخرين بوجوده ، فقد كان يتأخر فى كل مرة عن الانصراف حتى يوشكوا ان يطردوه من العنبر طردا . اما فى هذه المرة فقد تحلى عاملو المستشفى بصبر نادر .

وعندما نهض قالت امه بنفس الحيوية والانشراح :

— غدا! لن نلتقى فى الغالب . سيضعوننى مرة أخرى على طاولة العمليات .

— كيف هذا ؟ . . . — لم يشعر كرافتسوف بأى خوف وقد خدعته نبرتها المرحة .

— عندى نزيف . ليس فى الأمر اى خطورة . كل ما هناك انهم تجاوزوا الحد فى جرعة الادوية المنشطة . هذه ليست حتى عملية ، لا تقلق . . .

وها هو فى الطرقة من جديد . تجاوز الجسد المرمرى شبه العارى براسه الذى يبدو وكأنه رأس من طين رُكب على الجسد ، ووجد نفسه فى البرودة الرطبة لبسطة السلم . وهبط ركضا على الدرجات المتآكلة ، فاحتوته الحديقة المتلفعة بالمساء فى احضان خريفها . وبعد ان خرج من البوابة فبلغ طرف فضاء متسع لم يصبح ميدانا بعد ، عندها فقط ادرك ان الحديقة ايضا ، بأشجار القيقب والدردار والزيزفون ، مشبعة برائحة المستشفى الراسخة .

وقال كرافتسوف فى نفسه وهو يتطلع الى زرقة السماء الخفيفة فوق الفضاء — الميدان : «لو كنت من المؤمنين لكان من الاسهل علىّ ان اصدق بتكرار معجزة «سارة» التوراتية مع

امى من ان اومن بتفاؤل الاطباء المعهود . فماذا لو انها تتعرض لضربة أخرى لنفس العلة ؟ العلة ! يا لها من كلمة ناعمة مترهلة ! هذه ليست علة بل كابوس البشرية ، والطالع الذى ولدنا جميعا تحته . . . واذن فنحن ننحدر ثانية على الدرب المعروف الى القاع ، الى الجحيم ؟ . . .»

لماذا لا يصرخ ؟ لماذا لا تتقلص شفتاه بصرخة اليأس ؟ ولماذا تبقى عيناه جافتين ؟ الكثيرون يمرون بجواره فلا يسترعى انتباه احد ، وهذا يعنى ان وجهه هادئ تماما . بيد ان جميع المارة هادئو الوجوه . وهم خارجون من المستشفى او ذاهبون اليه ، وبالقرب من هذا المكان محطة سكة حديدية ، حيث يفترقون لأجل طويل او قصير ، وخلف المحطة مقابر ، حيث يفترقون الى الأبد . فاذا ما نظرت الى المارة خيل اليك ان العالم خلو من المآسى . وتراءى له فجأة ان اصواتا حادة رهيبة تشبه الانين والشهقات والعويل تشق الخلفية الصوتية المألوفة والمستكنة كالهدوء لضواحى المدينة . كانت تلك اصوات الألم الخفية ، وسمع بينها صوته . . صرخة مخنوقة من فم مطبق الشفتين . . .

لماذا نبدو جميعا غير مستعدين للموت ، لموتنا ام لموت الاقربين الى هذا الحد المخجل ؟ . . ان الموت لا يمكن ولا ينبغى ان يكون مأساة من حيث انه شئ طبيعى وحتمى . يبدو ان العلة فى اننا لا نعيش حتى نصف المدة المقررة . اننا جميعا نرحل مبكرا للغاية ، قبل ان نستكمل صورتنا الارضية ودون ان نحقق ذواتنا حتى النهاية فى العمل والابداع والحب ، حتى دون ان ندرك جيدا معنى وجودنا . ان موتنا هو موت اطفال ومراهقين وفتيان ، ومن النادر ان يكون موت بالغين ، ولا يكون أبدا موت شيوخ الا فى اندر الاستثناءات . فانا لا استطيع ان اسلم برحيل امى الشابة ابنة الثامنة والسبعين ، اذ لم نشبع بعد من الكلام والنظر الى بعضنا البعض والارتواء من بعضنا البعض . لم نكد نتعرف حتى نفترق . . هذا ظلم صارخ رهيب !

وفكر كرافتسوف : ان الانسان ما زال فى البداية . نحن

ما زلنا فى اولى مراحل وجودنا . . البدنى والخلقى والذهنى . اننا نصاب بالذهول من نجاح الرباعين فى رفع ستمائة وخمسين كيلوجراما فى الرفعات الثلاث ، مع انه من المفروض ان يرفع الانسان هذا الوزن فى رفعة واحدة لو تعلم كيف يستخلص القوة الكامنة فيه كلها . لقد رأيت شابا مصابا بالشيزوفرينيا ، كان نحيلا ضامر الصدر ، يتشاجر فى عرس ببيت احد رجال الاطفاء . لقد حررت نوبة الجنون كل مخزون القوى البشرية الحقيقية فى جسد هذا الفتى الضئيل فاخذ يلقى برجال الاطفاء العمالقة ، وكانهم قطط صغيرة . . .

وصل كرافتسوف الى جسر العبور المقام فوق السكة الحديدية . كانت هنا محطة لقطارات البضاعة ، وراحت قاطرات الحركة تلهث وهى تدفع مجموعات من عربات البضاعة الفارغة والمشحونة ، وتطلق قبل كل حركة الى الامام والى الخلف صفارات رفيعة تمزق نياط القلب . وتحت تاثير هذه الصفارات ، ورائحة الدخان الخانقة والدفء ، المنبعثة من الخط الحديدى ، انهالت عليه الطفولة . لا ذكريات الطفولة ، بل الطفولة ذاتها تدفقت الى لوحتي الكتفين الهزيلتين والى صدره المكتوم الانفاس ، والى اطراف اصابعه التى دب فيها بعض الخدر . احس بجسده الطفلى وشوقه الطفولى الى امه ، فقد كانت رائحة المازوت ومخلفات الخبث نذيرا دائما بالفراق .

لقد اعاد اليه مرض امه الطبيعة والاسماء التى يحملها العالم المزدهر الحى ، وطفولته وبكارة الاحاسيس المستهلكة . لقد كانت حياته خلال عشرات السنين الاخيرة سيئة شحيحة . لم يسعَ الى ان يكون عبقريا ، وظل فقط يراوح فى مكانه على عتبة الحقيقة ، دون ان يتقدم نحوها خطوة واحدة . ان التخصص المهنى الضيق هو نهاية العلم الحقيقى . وكان لا بد ان تصيبه ضربة هائلة ، تخرجه عن مداره المألوف ، وتعيده الى ذاته صغيرا ، الى ذاته الراجفة ، ذاته المصعوقة من مرأى القضبان المبللة او الدردار العجوز . . لكى يؤدى الغاية التى جاء من اجلها الى الدنيا . لقد توصل الى ذلك الاكتشاف

الرئيسى الذى بدا لكثير من ذوى العقول النابغة مستحيلا . . اكتشف علة الوجود الاولى ، بداية البدايات ، وجد الاجابة على السؤال الذى يعذب الطفل الصغير والحكيم العجوز : من اين جاء كل شيء ؟ لم يأتـه الجواب فى تجريدات المعادلات الرياضية ، بل فى ابسط الكلمات المفهومة لكل انسان . ولم يذهله اكتشافه بقدر ما اذهلته بساطة ووضوح ما كان يبدو وكأنه سر الاسرار . كانت الاجابة فى متناول الجميع ، ولم يكن ثمة ما يثير الدهشة سوى بلادة التفكير الانسانى العاجز عن التحرر من اسر الصيغ المعتادة .

وهل نحن نفهم ان قدماء المصريين كانوا يعيشون فى عالم ذى بعدين ، بينما لم يعرف الاغريق القدماء مفهوم الزمن ؟ عندما يعلن عن اكتشافه ستصاب البشرية بصدمة اقوى من الانفجار الذرى . ولكن الاجيال التالية سوف تستغرب وتسخر من اسلافها وكيف امكنهم ان يعيشوا وهم لا يدركون جوهر الوجود .

ولو لا مرض امه لما كان هناك اى اكتشاف . ان المعاناة تتضمن قوة ابداع هائلة . وقد ايقظت فيه امه بمرضها هذه القوة المبدعة . وكأنما هى قد فطنت منذ امد بعيد ، بفراسة حبها ، الى انه لا يتحرك فى اى اتجاه ، بل يدعى — دون قصد — حركة الفكر . ان التربية فى كنف البرودة ، مع كل ما تكفله من مزايا الصلابة المشكوك فيها ، تحمل فى طياتها خطر تجمد ينابيع الالهام والتجلى . وعندئذ اقدمت الام على عمل عظيم من اعمال الحب لتنقذ ابنها .

والآن ، وبعد ان انقذت ابنهـا من اجل العمل والابداع والتفكير ، تريد ان تعيش . أفمن المعقول انه غير قادر على رد الجميل لأمه بعمل عظيم مثل عملها ؟ لا يجب ان تترك لتواجه المرض وحدها بقواها المنهكة .

وفكر كرافتسوف : «الآن جاء دورى . سوف نتغلب على الموت معا . ينبغى فقط ان نشحذ كل حبنا ، كل ايماننا ، كل احتياجنا الى بعضنا البعض وكل استحالة حياتنا بدون بعضنا

البعض ، كل ذكرى الماضى ، وكل مغزى الحاضر ، والاهم ، كل مغزى المستقبل» .

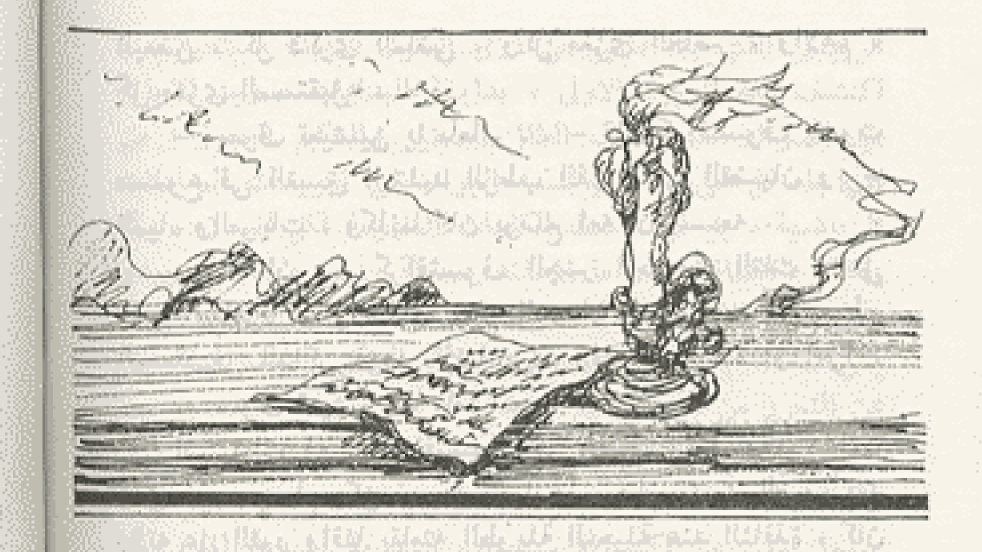
— سوف تعيشين يا ماما . . . — قال كرافتسوف بصوت مسموع فى الغسق المتلبد الرطب الذى اخفى القضبان وبرج المياه والعربات ، وكأنما كان بوسع أمه ان تسمعه .

وبعد ان عبر كرافتسوف الجسر الحديدى التفت . على رابية صغيرة ، فوق اشجـار الدردار العتيقـة ، لاح سطح المستشفى الداكن فردد كأنما يردد رقية او صلاة او أمرا :

— سوف تعيشين يا ماما . . .

استيقظت زوجة كرافتسوف فى وسط الليل وقد داهمها قلق غريب . لم يكن زوجها بجوارها . ولم تشعل الضوء فقد رأته على الفور واقفا بقامته الطويلة النحيلة عند النافذة . كان يعانى فى الفتـرة الاخيرة من الارق ، لكنه لم يكن يعترف بالحبوب المنومة . وقف فى ردائه البشكير القديم وهو لا يحول بصره عن النافذة المظلمة . وخيل اليها ، ربما بسبب النعاس ان رأسه يرسل اشعاعات خضراء ضعيفة . وكان الهواء مشبعا بالاوزون مثلما اثر عاصفة رعدية قوية ، فأى عاصفة يمكـن ان تهب الآن وسط هذا الخريف الكئيب ؟ واطلقت زفرة ثم اغمضت عينيها .

وظل كرافتسوف واقفا بجوار النافذة شاحذا قواه ضد الموت . . .



كيف تمّ شراء الغابة

(رواية)

توقف جفوتوف فجأة ، رافعا رأسه الثقيل ، جانبا ، كحصان كاد يصطدم بسياج البيت . فمن نوافذ الطابق الثانى المواربة تردد من جديد صوت ربة الدار الغليظ العميق ، الذى كان المعزف يطغى عليه احيانا :

لن يدرك الا من عرف
حنين اللقيا
كم تعذبتَ
وكم تتعذب . . .

كانت هذه الكلمات وهذا اللحن قد علقت باذنى جفوتوف خلال الايام الماضية ، ولكنه لم يلاحظ الا الآن ان ربة الدار تغنى عن نفسها وكأنها رجل : «كم تعذبتَ» . وقال فى نفسه ان هذا صحيح . فقد كانت السيدة ناديجدا

فيلاريتوفنا تشبه الرجل حقا بطبعها ، وعودها الجاف القوى ، ووجهها القاسى الملامح ، وصوتها ، وطريقتها فى تصريف الاعمال بنظرتها السديدة وتحديدها الفورى لجوهر الأمر . ولكن صوتها ، الغليظ بالنسبة لامرأة ، كان فيه نبرة رفيعة ، الامر الذى لم يكن جفوتوف يطيقه . كان يحب الاصوات «الباص» ، وفى سنوات صباه كان هو نفسه يغنى بصوت باص نقى طازج فى جوقة المنشدين بالكنيسة . لكنه اصيب فيما بعد بنزلة برد فى زوره فبُحَّ صوته ، علاوة على انه اصبح فى شغل شاغل عن الغناء . وعلى العموم فلم يزعجه صوت المغنية بقدر ما ازعجته هذه الاغنية المتكررة يوما بعد يوم ، والتى كان وكيل الاعمال فاسيلى سرجييفتش يسميها «رومانسة» * . ترددت خلف النوافذ العالية شبه المفتوحة نظرا لدفء بل وحرارة اكتوبر غير العادية ، عندما عاد صبى المراسلة من مكتب البريد .

كانت السيدة تنتظر رسالة ما ، ولكن الرسالة لم تصل . وفى البداية لم يلق جفوتوف بالا الى هذا الامر بحكم العادة التى تأصلت فيه مع السنين ، عادة التفكير فى اموره وحدها والتنصل من هموم الآخرين . كان قد اتفق مع وكيل اعمال السيدة فون ميك — الذى سبق ان تعامل معه بما فيه فائدة للطرفين — فاسرع بمغادرة قريته «زاترابيزوفكا» ، ولكنه علم عند مجيئه ان السيدة «معتلة المزاج» وان الحديث الذى كان يسعى اليه قد تأجل الى ان تحين فرصة افضل . ولم يدهشه ذلك وبالطبع لم يثر قلقه . لقد اعتاد جفوتوف خلال ربع القرن الذى امضاه فى عقد الصفقات الضخمة : شراء الغابات والاراضى ، والضياع المهملة او المفلسة ، والورش الصغيرة التى لا تدر دخلا والمعامل الخاسرة ، اعتاد طباع الوجهاء وعلية القوم المتقلبة الغريبة ، وكان يعرف ان أنجع وسيلة لمقاومة نزواتهم هى الصبر والجلد .

* تحوير للتسمية الصحيحة «رومانس» وهو لون من الاغانى العاطفية كان منتشرا فى القرن التاسع عشر . **المعرب**

صحيح ان ناديجدا فيلاريتوفنا بدت لـه مختلفة عنهم ، فقد كانت صريحة ، حازمة ، متمسكة بوعودها . وليس عبثا ان اطلقوا عليها فى عالم رجال الاعمال «رجل فى تنورة» . ولكن الظاهر ان الرجل فى تنورة ليس رجلا حقيقيا . ففى هذه المرة كان سلوكها غير عملى على الاطلاق . بالطبع ليس هو ، جفوتوف ، الا عظمة سوداء ، عبداً من عبيد الارض الاقنان بالأمس القريب ، وأين هو من آل فون ميك وملايينهم . ولكن لو حالفه التوفيق فى هذه الصفقة ، فربما تخطى فون ميك ذاتها . والشىء المهم — وقد داعبت هذه الفكرة روح جفوتوف الجهمة ودغدغتها بصورة غريبة — انه سيجنى مكسبا لا بأس به من مد السكك الحديدية ، اى من ذلك العمل الذى عاد على المرحوم المهندس فون ميك بملايينه فى زمن قصير بصورة خرافية . صحيح ان جفوتوف لم يكن ينوى مد الخط الحديدى بنفسه ، فوضعه لا يؤهله لتولى مثل هذا المشروع الكبير . فلم يكن يقرأ الا بجهد ، ولا يجيد من الكتابة سوى التوقيع ، ولكنه فى المقابل كان ملما بالحساب بصورة رائعة . وعموما فليس مد السكة الحديدية بالأمر العويص ، ولكن الحصول على امتياز المشروع فى بطرسبرج شىء آخر . . من اجل ذلك ينبغى ان تكون لا ايفان جفوتوف الفلاح ، بل فون ميك النبيل ، أو شريكه فون ديرفيز . لا بأس ، تكفينا فلنكات القضبان لناخذ نصيبنا . ولكن ذلك يتطلب قبل كل شىء شراء الغابة ، وليس اى غابة ، بل غابة ناديجدا فيلاريتوفنا ، القريبة من ذلك المكان الذى سيمر الخط الجديد عبره . وينبغى شراؤها اليوم قبل ان يتسرب نبأ المشروع الى أحد آخر ، بما فى ذلك فون ميك نفسها ، قبل ان تقفز اسعار الخشب الى اعلى من اعلى صنوبرة .

لم تكن قيمة غابة فون ميك تكمن فى قربها من مكان المشروع القادم فحسب ، بل فى تميزها بميزة خاصة . اذ كانت غابة فى عز أوانها ، منتقاة الاشجار ، جديرة بان تصنع منها صوارى السفن لا فلنكات القضبان ! بل انك لن

تجد غابة مثلها لا فى المحافظة كلها ، بل فى جميع الاراضى المجاورة بأسرها . وجلب الخشب من مكان بعيد يعنى فقدان نصف المكسب . فاذا أضفنا الى ذلك الرشوة الضخمة مقابل العطاء ، فان هذه الصفقة الخرافية المكسب — التى لا يتراءى مثلها الا فى الاحلام — تصبح قليلة الدخل ، وتسبب من الجهود والمشاكل ما يجعل من الافضل الاستغناء عنها . كلا ، ينبغى شراء غابة فون ميك ، خاصة وقد طلبت فيها سعراً متساهلاً للغابة . ذلك بفضل جهود الوكيل فاسيلى سرجييفتش . كان السعر معتدلا الى درجة ان ايفان بروكوفيتش جفوتوف ، وقد قضى يوما أو يومين يستمع الى «الرومانسة» المؤثرة ، عرض من نفسه زيادة طفيفة فى السعر ، كما وعد الوكيل بزيادة مكافاته . ولم يكن ذلك راجعا الى نفاد صبره بل لأن كل يوم يمر كانت له قيمته . كان يخشى المنافسة ، واخشى ما يخشاه ان تعرف فون ميك نفسها بامر المشروع . وفى نهاية الاسبوع بدأ يرتاب جديا فى ان تكون شائعة ما قد تسربت الى علمها . وربما كانت الرسالة المنتظرة مجرد ذريعة لكسب الوقت والتحرى عن الامر ، وربما كانت المسالة أبسط من ذلك ، اذ كان على الرسالة ان توضح الامور فيما يتعلق بالغابة .

صحيح ان الوكيل فاسيلى سرجييفتش غمغم بكلمات ما عن شئون قلبية لصاحبة الدار ، ولكن جفوتوف لم يعر أهمية لكلماته . لم يكن يحب الثرثرة الفارغة عن مسائل لا تخصه ، وعموما لم يكن يحب سماع الشائعات الملفقة عن الناس . فلم يمض عام على وفاة زوج ناديجدا فيلاريتوفنا ، كارل فيودوروفتش فون ميك المجيد ، الذى جمع هذه الثروة الخيالية ، وليس من الجائز لها ان تفكر فى أحد غيره ، وهل من الممكن ان يوجد من يضاهى المرحوم ! لا يوجد ، اللهم الا شريكه فون ديرفيز . كما أنها ليست فى سن تسمح لها بذلك ، فهى تقترب من الخمسين ، ولديها اسرة ضخمة ، ومشاغلها ، لا حصر لها . كلا ، ليس ما تفوه به الوكيل سوى حماقة . ولكن ماذا لو انها ليست حماقة ابداً ، بل

مكراً ؟ أليس من الجائز أنه يغرر به بالاتفاق مع سيدته ؟ وفى تلك الاثناء تحاول هى الاتفاق مع احد غيره ، او تكون ، وهذا هو الاسوأ ، قد اتصلت سراً بمهندسى السكك الحديدية ؟ الطيور على اشكالها تقع . وربما تشم فون ميك رائحة القضبان من على بعد مائة فرسخ . فكل ثروتها ، وكل أموالها تفوح منها رائحة قطران الفلنكات والزفت ودخان القاطرات .

انظر فى المدى . . لا أستطيع
وتظلم العيون .
فمن أحبنى ؟
أين تراه ؟ . . بعدت خطاه . . .

لم يكن فى صوتها خداع . تردد صافيا ، قويا ، حزينا . وقرر جفوتوف فى نفسه انها تحن الى زوجها الراحل . السادسة والاربعون هى فترة الازدهار الاخير فى عمر المرأة . . . ولكن هذه الفكرة لم تحمل له الاطمئنان المنشود . بقيت اذن الرسالة ، الرسالة الغامضة ، التى كانوا لا ينتظرون حضور ساعى البريد بها فيرسلون كل صباح الى مكتب البريد بالصبى الأحمر الشعر والانمش الوجه فانكا ، ابن الطاهية والحاجب . كانت الرسالة تثير قلقه . ان كارل فيودروفتش لن يرسل بأخباره من العالم الآخر ، وخاصة عن طريق البريد ، واى أخبار من العالم الآخر يمكن ان تنتظرها هذه الارملة الثرية بمثل هذا القلق والألم ؟ من الصعب ان يتصور ان ارملة كارل فيودورروفتش يمكن ان يميل قلبها الى شخص آخر بعد هذا الزوج الذى لا ينسى . اوه ، يا لسواد المياه ! . . .

قطع جفوتوف الفناء ، وخرج من البوابة . وامتد «بوليفار القيامة» امامه ملتويا ، مغطى بالاوراق المذهبة . كانت الأوراق تحوم فى الهواء وتسقط على الأرض التى لم تزل خضراء العشب وعلى الدروب الرملية . وعبق الجو برائحة غريبة على المدينة ، رائحة الاوراق والعشب والتربة

الساخنة . وسبحت خيوط عنكبوت فى الهواء ومست وجه جفوتوف برفق . واغمض عينيه فاختفى من امامه تماما كل ما له صلة بالمدينة ، وفاحت رائحة الارض والعشب والغابة بقوة . وفى وعى جفوتوف شبه المخدر تمايلت صنوبرات غابته السامقة المستقيمة . يا إلهى ، ليس هناك غابات كهذه فى وسط روسيا كله . اين أنتِ يا غابات الماضى ؟ لم يبق غير اشجار نخرة وشجيرات وليدة تشرع فى الجفاف والذبول قبل ان تبلغ نضجها . أوه ، اى غابة تنتظره على أحر من الجمر ، غابة عملاقة ، حسناء ، حلم ، وهذا هو عز الأوان لقطعها ونشرها الى فلنكات ! . . .

«سأزيد سرجييفتش خمس «بجعات» * اخرى علاوة على اتفاقنا الأخير وليحدد لى اليوم حالاً موعدا مع السيدة» — قرر جفوتوف وهو يمسح من على وجهه خيوط العنكبوت اللزجة الناعمة . وأحس كأنما انزاح عن صدره حمل ثقيل . فعندما تقدم على الاتفاق يصبح كل شىء سهلاً ، متاحاً .

وعاد جفوتوف الى الفناء . على قمة زيزفونة عجوز صاح بصوت زجاجى حاد لقلق أزرق لم يهاجر بعد الى البلاد الدافئة ، وكان يعود كل ربيع الى هذه الشجرة ذاتها كما يقولون . ومر جفوتوف بحذر بعيدا عن الزيزفونة حتى لا يتبرز عليه اللقلق . فهذا الطائر الكريه ، اذا لم يرق له شىء ما ، يقذفك من أعلى بسائل لزج لا تستطيع له بعد ذلك غسلاً أو كشطاً . لقد قلبت شمس الصيف المستمرة حتى الآن كل ما فى الطبيعة ، فازهرت اشجار الكرز من جديد فى عمق الفناء . كذلك يبدو ان البنفسج يوشك ان يتفتح ثانية ، وظهرت بين الاعشاب ازهار صيفية مبكرة صفراء وزرقاء ، اما الحمام فاخذ يهدل هديلاً صارخ الشهوة يكاد يصم الآذان . لقد شملت الفوضى الكون ، فازعج هذا جفوتوف كما يزعجه كل خروج عن القواعد . فيم يفكر العلى

* اى خمس ورقات مالية من فئة المائة روبل فى روسيا القيصرية . **المعرب** .

القدير ؟ اذا كنت قد وضعت القوانين فلتعمل على أن يتبعوها ! . .

وبعد توجيه هذه الملاحظة للرب توجه جغوتوف الى الجناح الذى كان ينزل فيه الوكيل عند حضوره الى موسكو . اما اسرته فبقيت فى اوكرانيا ، بالقرب من املاك فون ميك الرئيسية . كان فاسيلى سرجييفتش يتناول طعامه فى مطعم الخدم ، بالرغم من حقه فى تناول طعام السادة . ولما كان ينحدر من الطبقة الوسطى لسكان المدينة فقد أولع بالأطعمة الروسية البسيطة كحساء الكرنب بالفطر والعصيدة والبطاطس المهروسة بالفرن . . . وكانت الطاهية ، أم حامل الرسائل فانكا ، تعد الطعام بصورة رائعة . ولهذا فقد كان جغوتوف ايضا يتغدى فى مطعم الخدم رغم كل محاولات الوكيل لثنيه عن ذلك . ولكن ساعة الغداء كانت ما تزال بعيدة ، فراح جغوتوف يفكر اين يبحث عن فاسيلى سرجييفتش ، واذا بقامته الطويلة المهيبة تنبثق فجأة عند حظيرة المركبات . لم يخرج الوكيل من هناك ولم يمر عبر الفناء ، والا للمحه جغوتوف قبلاً . كانت هذه القدرة السحرية على الظهور من الهواء ، كالعصفور ، لدى هذا الرجل الضخم الواضح الأناقة تذهل الكثيرين .

كان الوكيل يرتدى سترة طويلة من جوخ انجليزى غامق وسروالا من نفس القماش يتدلى على قنطرة حذائه الجلدى الطويل ، وصديريا بصف واحد وبازرار تشده الى الصدر ، وقميصا من نسيج بالغ الرقة ، ورباط عنق حريريا اسود . صورة طبق الأصل لنبيل من نبلاء موسكو ! وعندما رأى جغوتوف ابتسم وجهه الممتلئ الحليق المائل الى الطول ، بسالفيه الغزيرين الكستنائيين ، وتقدم لملاقاة التاجر ، وقد باعد قليلا بين ذراعيه البضتين الناعمتى اليدين .

وهتف الوكيل من بعيد مبتسما بفرح :

— صباح الخير يا ايفان بروكوفيفتش الموقر !

لم يكن ثمة ادنى زيف فى ابتسامته الصريحة وحركته المرحبة الباشة . كان بالفعل يحترم ايفان بروكوفيفتش من

صميم قلبه الذى وإن لم يكن منزهاً فهو ليس بحاقد أبداً .

ونظر الوكيل الى قامة الضيف الغليظة القصيرة الخرقاء ، المكتسية رداء طويلاً حتى عرقوبيه يشبه القفطان فى تفصيله ، والى منديل رقبته الباتستة المسود من العرق ، والى عمرته العالية السوداء التى تكلل راساً كبيراً كالقدر ، غائصاً بين الكتفين ، فازداد اعجابه به حتى ملأ صدره . وقال فاسيلى سرجييفتش فى نفسه : يا إلهى ، لم يكن يلبس على هذا النحو سوى بائعى الخمور فى الحانات فى ايام صباي ! لو قدّرنا قيمة كل ما عليه من ملابس لما بلغت قيمة حذائى المفصل بالتوصية . اما فى منزله فهو يخطر فى قميص مزركش من نسيج يدوى مسدل وسروال مخطط ، مثل أسطى من اسطوات موسكو . فماذا أساوى انا الى جانبه بكل عظمة مظهرى ؟ بوسعه أن يطوينى كالورقة ويدسنى فى جيبه . من زمان جمع مئات الالوف ، وها هو يسعى الى المليون . اما انا فامكر واتحايل ، وادور كثور فى ساقية ، واتلوى واتملص دون ان اجمع ما يكفى ولو للبدء بمشروع خاص صغير ! مع ان الله على ما يبدو ، لم يبخل عليّ بالعقل أو حسن المنظر ، ووهبنى حاسة معرفة الناس ، ومع ذلك . . . فانظر ماذا يعنى ان تبدأ من الصفر . كان المرحوم والدي يدير عمله جيدا ، ولكنه افلس فى النهاية وترك أسرته معدمة . اما والد جغوتوف ، وان مات عبدا من عبيد الأرض ، فقد أوصى لكل من ابنائه الأربعة بثروة ، فدارت عجلتهم . بالطبع ايفان بروكوفيفتش اشطر من اخوته واقدر منهم بكثير ، وقد خلّفهم بعيدا وراء ظهره ، رغم انه الوحيد بينهم الذى لم يترك بيته الريفى وينتقل الى المدينة . وهكذا ظل مقيما فى «قصر» أبيه ذى الارضية الترابية والجو الخانق والرائحة العفنة والصراصير . بينما يملك ثلاث ضياع رائعة ، وفى احداها قصر سادة حقيقى بأعمدة . ولكنه لايتعجل الانتقال الى هناك باسرته الكثيرة العدد . وربما بلغ جغوتوف ما بلغه من نجاح لانه لم يغره المسكن الفخم ، ولا الملابس العصرية ، ولا الخمور المعتقة او «غيرها من اباطيل الدنيا» كما تغنى السيدة ناديجدا فيلاريتوفنا فى رومانسة

رائعة وضع موسيقاها الموسيقار الموسكوفي تشايكوفسكي الذي اكتشفته هي مؤخراً .

اقترب جفوتوف من الوكيل ، ونزع عمرته ودسها تحت ابطه ، واخرج من جيب قفطانه العتيق منديلا حريرياً مسح به جبينه الذي دب فيه الصلع وبقيت فيه شعرات خفيفة فاتحة . ثم دس المنديل وارتدى العمرة تاركاً على مقدمتها اللامعة اثر بصمات اصابعه الداخن المتلاشي . ثم قرّب وجهه العريض الوجنتين ، الأسمر ، الواسع المسام من اذن الوكيل ولفظ بضع كلمات بصوت أبح متحشرج .

وباعد الوكيل بين يديه الناعمتين المعتنى بهما ، واللتين كان ينقعهما يوميا في الخل ليحافظ على بياضهما النبيل ، وقال :

— يا إلهي ، ماذا تقول يا ايفان بروكوفيفتش الكريم ! سأذهب ، طبعا سأذهب ، ولكن صدقني ، لن تكون هناك فائدة من سعيي . إننا لا نماطل لنزيد السعر ، صدقني يا سيد جفوتوف ! ان اهم شيء عندي هو ثقتك بي . وآمل الا تكون هذه هي المرة الأخيرة التي . . .

فقاطعه جفوتوف :

— طيب ، دعنا لا نتطلع الى ما سيكون غداً . هيا نسوي حساب اليوم . لا أظن انها فقدت عقلها . فلتشرح لها كما ينبغي ، قل لها ان المشتري لا يستطيع الانتظار اكثر من ذلك ، فاعماله متعطلة ، واحواله واقفة ، واسرته وحدها هناك ، وابناؤه يبكون .

— كل هذا قلته ! في اليوم الثاني بعد عودتها من إيطاليا . وبالامس ايضا فتحت الموضوع . ولكن جوابها واحد : لا وقت عندي الآن للغاية .

فقال جفوتوف باقتضاب ودون أن يرفع صوته :

— اذهب ، لعلّ الله يشملنا برحمته .

تنهد فاسيلي سرجييفتش مهموما . كان حريصاً على منصبه كوكيل اعمال ويخشى أن يثير غضب السيدة ، ولكنه كان يقدّر وضع ايفان بروكوفيفتش ، ويقدّر وضعه هو ايضا ، اذ لن تتاح له فرصة مثل هذه . بالنسبة لبروكوفيفتش ربما

تسنح فرصة اخرى ، بل وعلى الأرجح ستسنح ، حتى لو كانت اقل ربحا من هذه . فسوف يحصل على نصيبه على اي حال . اما هو ، فاسيلي سرجييفتش ، فمن المستبعد ان تهبه الحياة مثل هذه الهدية مرة ثانية . وسواء أراد ام لم يرد فعليه ان يذهب . . .

تنقل الوكيل خلال عمره بين اماكن كثيرة . ولم تكن حياته في اي مكان أفضل ولا اصعب مما هي عليه لدى فون ميك . كان راتبه ومعيشته أفضل بما لا يقاس ، كما أن ثقة السيدة الحكيمة كانت تغض الطرف في صمت عن تلك الجباية المتواضعة التي يقتطعها الوكيل من دخل الضيعة لحسابه الخاص . كان هذا يناسبها ، وكان فاسيلي سرجييفتش يعرف انه طالما لم يتخط الحدود ، فبوسعه ان يكون مطمئنا . وكان يقدر راحة البال مثلما يقدر النقود . وفي حقيقة الأمر فما كان ليقدر النقود الا لانها تضمن راحة البال اكثر من اي وسيلة اخرى . غير انه كان لدى فون ميك الكثير من الشواذ الغريبة الصغيرة التي كانت تنغص حياة القائمين على خدمتها بأشد مما تفعل المظالم الكبيرة أحياناً . كانت تطالب لا الخدم والوصيفات فحسب ، بل ومدير المنزل والوكيل نفسه بأن يسيروا بخطوات لا وقع لها . ومعاذ الله ان يندّ عن خطواتك اي وقع ، ناهيك عن أن يتردد دبيبها . صحيح ان السلالم والطرقات وجميع الغرف ، ما عدا القاعة ، كانت مغطاة بالسجاجيد الشرقية والابسطة الطويلة التي تخفف وقع الخطوات ، ولكن أليس من الجائز ان يصرّ النعل او ينبثق الهواء في رقبة الحذاء ، عدا انه من السهل ان تزل القدم عن البساط فتطأ الارضية الباركيه أو درجات السلم البلوطية . وكان سمع ناديجدا فيلاريتوفنا حاد الرهافة . كانت تسمع أضعف هسيس عبر الجدران والأبواب ، فيتجمد فكها الأسفل على الفور . وعندئذ لا تحاول أن تتوجه اليها بتقرير أو رجاء أو خبر هام . وكان يثير جنونها بصفة خاصة صوت اصطفاق الأبواب . فكان ينبغي فتح الأبواب وغلقها بحيث لا يند عنها صرير بعوضة . وحسب قول الوصيفات

فقد كان تنظيف غرفتها عذابا ما بعده من عذاب . وقد نجا فاسيلي سرجييفتش من هذه المصائب بفضل منصبه ، اذ كان يقضي معظم الوقت متنقلا ، ولم يكن مقيما بصفة دائمة بجوار ناديجدا فيلاريتوفنا ، بيد أن كثيرا من الممنوعات كانت تشمله هو أيضا . ممنوع ان يتنفس بصوت عال ، أو يشن بانفه ، او يسعل ، أو يتمخط ، او يصدر هرير عن امعائه ، او تفوح منه رائحة حساء الكرنب ، او البصل ، أو العجين المخبوز ، او الزيت النباتي ، او البيـــرة ، ناهيك عن المشروبات الكحولية ، او التبغ او **المعلف** – والمقصـــود بذلك اى رجس قد يعلق بك من حيث لا تدرى ، فيلتقط انف ناديجدا فيلاريتوفنا المرهف رائحته على الفور . وكان القائمون على خدمتها لا ينفكون ينظفون أفواههم ، ويمضغون الباستيليا المنعشة أو الاعشاب الزكيـــة ، ويتعطرون بالكولونيا التي كانت الفرّاشة تصرفها لهم شهريا . وقد تبدو مثل هذه الاشياء بسيطة ، تافهة ، وماذا تكون هذه الأمور الفارغة بالنسبة لهؤلاء الخدم ، أقنان الأمس ، الذين ذاقوا الجلد بالسياط والعصي وتحطيم الأسنان باللكمات ، ومع ذلك فلم يكن الخـــدم يمكثون طويلا عند ناديجـــدا فيلاريتوفنا ، رغم انها نادرا ما كانت تطرد احداً ، اللهم الا اذا ارتكب معصية نكراء كالسرقة او غواية الوصيفات او السكر والعربدة ، وانما كانوا يهربون لأن اعصـــاب هؤلاء الخدم عبيد الأمس ، كانت ضعيفـــة لا تتحمل هذا التوتر المستمر ، فكانوا يضحون بالراتب الممتـــاز لكي يحتفظوا باهوائهم وعاداتهم بل ولمجرد فراغ البال ، اما في جوهر الأمر فمن اجل ان يحتفظوا بشخصياتهـــم . لكن فاسيلي سرجييفتش لم يكن مستعدا للتضحية بمركزه وراتبه ، اذ كان يقامر مقامرة كبيرة ، فاذعن للنظام الحديدي دون تذمر.

عندما اقترب فاسيلي سرجييفتش من الدرج الأســـود المفضي من الفناء الى مخدع السادة ، شـــد قامته فاحس باستجابة العضلات المرنة وقوة المفاصل ، وحرك قدميه عدة مرات ليليّنها ، وفرقع باصابعه متخلصا من الضوضـــاء

الزائدة المحتملة في الجسم ، ودس في فمه قطعة باستيليا ومضغها بعناية ، ثم أضفى على وجهه تعبير احترام رزين وعلى قامته هيأة المهابة ، وتسلل من الباب وكأنه روح أو شبح ، دون أن يحرك تقريبا مصراعي البـــاب المواربين ، وصعد أو بالأحرى سما الى الطابق الثاني ، واصـــاخ الى الهدوء الذي كان محسوسا يملأ هذا البيت الكبير الجميـــل كله ، فسمع هسيسا ضعيفا في الصالون الصغير الذي كان يقوم فيه معزف السيدة المفضل ، المصنوع من خشب الورد . وخمّن اكثر مما سمع صوت غطاء المعزف وهو يفتح برقة . نعم ، انها ناديجدا فيلاريتوفنا تنوي ان تعزف من جديد . لا يبقى امامه سوى شيء واحد : أن يتجمد في مكانه دون حركة . وهذا ما فعله فاسيلي سرجييفتش ، ومع ذلك فقد جعلته نغمة عالية مفاجئة ينتفض بشدة . ولام نفســـه على ضعف اعصابه ، ثم تحول مرة ثانية الى تمثال ، ولكن المعزف صمت بعد النغمة الثانية ، ثم صفق الغطاء بشدة ، ومن جديد لم يستطع الوكيل ان يكبت الرجفـــة . والجدير بالذكر ان ناديجدا فيلاريتوفنا كانت تبيح لنفسها اى صخب .

ودله سمعه المتوتر على ان ناديجدا فيلاريتوفنا قـــد مضت الى غرفة مكتبها . فسلّم فاسيلي سرجييفتش أمره الى الله في سره ، وانزلق على الطرقـــة وخربش بظفره باب المكتب .

– ادخل ! . . . – تردد صوت فون ميك الحاد النافذ الصبر .

. . . كانت واقفة الى النافذة ، ممسكة بطيات قماش الستائر السميك بأصابعها الطويلة النحيفة المقصوصـــة الاظافر ، ولم تلتفت الى الداخل وهي تعلم من هو ، الأمر الذي لم يشك فيه الوكيل اطلاقا . كان الخدم يقولون ان ناديجدا فيلاريتوفنا «ترى بظهرها» .

– اسمحي لي ان أبلغك . . بخصـــوص . . السيد جفوتوف .

– أي جفوتوف ؟ – قالت ناديجدا فيلاريتوفنا بصوت

بعيد غير مالوف ، وكان في نغمـــة صوتها شيء جعل قلب الوكيل المهموم ينبض لحظة بدفقـــة قلق طيبة نحو هذا الانسان الغريب عنه .

– لقد سبق أن ابلغت سعادتك . . . الذى يريد أن يشترى الغابة . انه يعرض الآن آخر سعر . . ويرجو أن يبلغك انه بعد ذلك . . .

– اخرج – قالت فون ميك وكأنها اسقطت شيئا .

لم يفهم الوكيل فسأل :

– ماذا ؟

– اخرج من هنا ! – قالت ناديجدا فيلاريتوفنا بصوتها المالوف القوي .

وانسحب الوكيل متراجعا وخرج . . .

وفكرت ناديجدا فيلاريتوفنا وكأنها تستيقظ من حلم : «عمَّ يتحدث ؟ . . غابة . . اي غابة ؟ آه ، الغابـــة ! يا إلهي ، وما شأني بالغابة ؟ . . . كم هو وحيد كل من يحيا في هذه الدنيا . طالمـــا تسير اموره جيدا فهو عزيز على الجميع ومرغوب فيه ، خاصة اذا كان قادرا على منح الآخرين النقود وسبل الراحة والاهتمام والرعاية وكل منفعة . عندئذ يحيطه الاقارب والاغراب بالتدليل . ولكن عندما تسوء حاله ، ويدركه الاضطراب والحيرة وعذاب الروح ، عندما يصبح قلبه مشغولا بعذابه الخاص ، عندما لا تمتد يده بالاحسان ، يصبح وحيدا ، في الفراغ . يتحول عنه حتى الأطفـــال ، المفعمون بأنانية الطفولة ، ويفقد اهتمام الاقارب ومن يدعون بالاصدقاء ، اسوأ انواع الطفيليين ، وحتى الخدم ، الذين لا يخدمونك الا بالدرجة التى يجبرونك بها على خدمتهم . الا يعرف هذا الوكيل اللص والمرتشى انني لا استطيع ، ولا اريد ، ان افكر فى الاعمال ، وفى غابة ما يريد ان يبيعها برخص التراب لمحتال آخر ، لكى يضع فى جيبه رشـــوة دسمة ؟ ومع ذلك يلح عليَّ الحاحاً غريبا منذ ذلك اليوم المشؤوم الذى عدت فيه من الخـــــارج فلم أجد رسائل . حسنا ، دعيك منه ، هذا التافه ! . . . وما شأنى به اذا

كانت حتى يوليا ، ابنتى وصديقتى ، لا تدخل عليَّ دائرة خوالى ، مادةً يد العون ، واذا كانت ميلوتشكا الصغيرة تنظر اليَّ بعيني ذئب ! ربما كانت تفوح من المعذبين رائحة خاصة تجعل الكائنات الحية الأخرى ، حتى قليلة الادراك مثل ميلوتشكا ابنة الاربعة اعوام ، تشم منها التعاســـة ومرض الروح ، فتبتعد عن المعذَّب فى تقزز وخشية ؟ . . . اين اختفت كل أولئك الخادمات والوصيفـــات والمربيـــات والحاضنات اللواتى كن يملأن المكان ؟ ذبن مثل العفاريت مع اول صيحة للديك . أحقاً تتبدى صيحة الألم المحبوسة فى الصدر وفى الحلق بهذا الوضوح ، لدرجـــة انها نفذت الى قلوبهن الضئيلة المطمورة ؟ . . .

«بيوتر ايليتش ، يا صديقى العزيز ، ماذا فعلت بى ؟ وبنفسك ؟» . . . قالت فى سرها مخاطبة صورة تشايكوفسكى الصغيرة التى رسمها على الخزف رســـام المنمنمات الماهر سيفاستيانوف من بلدة مستيرا . كان وجه بيوتر ايليتش المرسوم بخطوط دقيقة فى اطار لحية وخطها المشيب يتهلل برونق يكاد يكون ملائكياً . بشرة وردية رقيقة ، وشفتان قانيتان ، وعينان لامعتان بالزرقة ، تتدفقان حيويـــة وفى الوقت نفسه مرهقتان ، لا تعرف ان كانت نظرتهما راجيـــة ام مذنبة . . هذا الوجه ظل على الهامه وروعته حتى تحت ريشة رسام مستيرا الحاذق «الضئيلة» . مثل هذا الوجه كان ينبغى ان يحمله ذلك الانسان الذى ألف كونشرتو البيانو الأول و«فرانشيسكا دا ريميني»* ، اللذين يجمعـــان بين العاطفة المشبوبة والحزن ، بين الاعجاب والتنبؤ بالهلاك . ولكن مالها والمظهر الخارجى لخالق هذه الموسيقى ! فحتى لو كان قبيحا ، أسود الوجه ، أحول ، أحدب ، لمـــا كان اعجابها به وتبجيلها وحبها السامى الملهم له اقلَّ درجة . وفجأة دفعتها قوة ما بعيدا عن النافذة . ولم تشأ ان تعترف

* فانتازيا سيمفونية استوحاها تشايكوفسكى من «الكوميديا الالهية» لدانتى – (النشيد الخامس من الجحيم) . **المعرب** .

لنفسها بانها تدرك قوة ومغزى هذه الدفعة التى جعلتها تقطع الغرفة ، وتفتح باب الصالون الصغير على مصراعيه ، وتمر عبره فى مسار متعرج غريب ، وهى تنعكس فى مرايا وزجاج الأبواب العالية المسدل عليها قماش الستائر السميك من الناحية الأخرى ، وترى نفسها فى هذه الانعكاسات كضربة فرشاة قوية او تداخلا بين المساحات اللونية ، او بقعا ملونة ، وذلك حسب المكان الذى كان ينعكس فيه قوامها الطويل المستقيم ، فى فستان منزلى اخضر فاتح زمردي ، نصفه السفلى مرسل من الأمام ، ومشدود فى تكسرات من الخلف . وكان الحزام ذو الابزيم المعدني يساعد على استقامة عودها المائل الى النحول . وكانت تعرف كيف تبدو ، وتحس ذلك بجسدها اكثر مما تراه فى انعكاساتها المزعزعة المتواثبة على الأسطح الصقيلة . وجمدت امام المعزف ، وكان عليها ان تقرب وجهها تماما من غطائه اللامع لترى وجهها يهم نحوها منه . رات جبينا عاليا صافياً ، مسّته تجعيدتان افقيتان خفيفتان ، وخدين شاحبين ، وفماً ضيقا دقيق الشفتين ، وفكا سفلياً غير مكتمل ، لا يتناسب والوجه الكبير ، وعينين كالقناع . . سوداوين ، تقبعان هادئتين واسعتين فى محجرين مظللين ، عينين براقتين بديعتين لا تكادان تبصران ، كان عليهما ، لكى تبصرا الشيء ، ان تبتلعاه تقريبا . هاتان العينان اللتان لا فائدة منهما تقريبا ، كانتا رائعتين ، وهما اللتان انقذتا وجه ناديجدا فيلاريتوفنا وسميتا به .

كان ما تنقله هاتان العينان لصاحبتها عن العالم المحيط جد قليل ، مما جعل حواسها ، وخاصة السمع ، تبلغ حداً مدهشا من الرهافة لتعوضها عن هذا النقص . وكانت الطبيعة هى التى وهبتها ملكة السمع المرهف بالطبع ، ولكن فون ميك نمته الى هذا الحد من الدقة ، ليس بالدرجة الأولى عن طريق ممارسة الموسيقى بقدر ما هو عن طريق الاصاخة الدائمة المتوترة الى اصوات العالم وصخبه وحفيفه ، الى تلك الخلفية الصوتية غير المحسوسة من قبل ، والتى يستقبلها

السمع العادي على انها الهدوء . الى هذا الفراغ الزائف ترسل موسيقى الكون أمواجها ، وهذه الموسيقى هى التى كانت ناديجدا فيلاريتوفنا تسمعها . السمع بالذات هو الذى منح ناديجدا فيلاريتوفنا هذا الكمال النادر للقدرة على تلقى الحياة . فقد كانت الأصوات تحتوى على الصورة واللون . لم تكن فون ميك ترى العالم محدد المعالم وساطع الألوان الا من خلال العوينات – اما بالعين المجردة فما كانت الاشياء المحيطة بها لتبدو الا ملفعة بضباب وحيد اللون ، مثلما فى لوحات كاريير . وهكذا كانت ترى فى الموسيقى وضوح خطوط العالم المحيط واشكاله وألوانه ، تراها لا رؤية ذهنية مجردة بل بعين داخلية صافية وحادة البصر . أليس لهذا السبب كانت تشعر دائما بظمأ الى الموسيقى ؟ فبعد وفاة زوجها وتحللها من معظم الواجبات تجاه المجتمع الراقى ، ملأت البيت بالموسيقى باقتناء فرقة موسيقية صغيرة ولكنها مختارة بذوق رائع . ولم تكن الفرقة تكف عن العزف إلا فى ساعات راحة ناديجدا فيلاريتوفنا ونومها ومزاولتها شئون البيت ، اما فى غير ذلك من الأوقات فكانت تصاحبها فى كل ما يشغل يومها : فى القراءة ، وفى احلامها ، وفى احاديثها مع بناتها وابنائها ، وفى قياسها لفساتينها ، وفى شغل الابرة ، وحتى اثناء الرمى بالمسدس ، هذه الهواية التى كانت تحمل لها متعة صوتية فحسب ، لانها لم تكن تصيب الهدف أبداً .

ومنذ زمن قريب تقلص برنامج الفرقة ، الذى كان متنوعا للغاية ، واصبحت لا تعزف الا تشايكوفسكى وحده تقريبا . اما فى الأيام الأخيرة فقد صمتت الفرقة تماماً ، اذ أصبحت ناديجدا فيلاريتوفنا لا تطيق سماع الموسيقى ، سوى تلك الأصوات المفاجئة المشبوبة والمضنية ، التى كانت تنطلق فجاة من حلقها او من تحت اصابعها ، التى بدا وكانها تريد سحقها على مفاتيح المعزف .

وها هى اصابعها قد امتدت الآن من تلقاء نفسها الى العاج المائل الى الصفرة ، ثم تقلصت بصورة غريبة ، كانها

تريد ان تطبق على عنق الموسيقى التى كانت على وشك ان تولد .

لن يدركَ الا من عرف
حنينَ اللقيا
كم تعذبتَ . . .

اندفعت الدموع الى عينى ناديجدا فيلاريتوفنا ، فالقت براسها الى الوراء ، وظلت واقفة هكذا فى وضع «الضارعة» فى لوحة لوقا كراناخ حتى ارتدت دموعها عائدة ، مبللة فقط زوايا العينين . كانت الخطوات المترددة فى الطرقة اشبه بحفيف السنونو ، ومع ذلك سمعتها ناديجدا فيلاريتوفنا وعرفتها على الفور . فاستقامت ، وعدلت راسها على جيدها الطويل المستقيم ، ولم تلتفت عندما فتح الباب دون صوت . وكانما تردد صفير جسد طائر يشق الهواء ، وضمت كتفيها ذراعان نحيلتان دافئتان .

— ماما ، اعذرينى على تطفلى ، ولكنك غنيت بحرقة الى حد اننى لم . . اتحمل . . . انت لم تغنى ابدا هكذا ! ماذا بك يا ماما الحبيبة ؟ هناك مصاب ألمّ بك ، صارحينى . كم احبك ! . . .

أحبك ! . . . استجاب قلب ناديجدا فيلاريتوفنا المعذب وغير المدرك لذاته . . . لهذه الكلمة فورا . واستدارت نحو يوليا وقبلتها فى جبينها بتأثر . كانتا متشابهتين الى حد كبير ، ولكن قسمات الأم انعكست فى وجه يوليا فى صورة مخففة باهتة ، سواء عيوبها — فقد كان ذقن يوليا اكثر استدارة وانوثية — أم مزاياها — فقد تحولت عينا الأم السوداوين لدى يوليا الى مجرد عينين جميلتين وليس الى نبعين إلهيين .

— هل انت بصحة طيبة يا ماما ؟

— بكامل صحتى . . . هو الصداع المعهود . . . —

ولأول مرة بعد وفاة زوجها أحست ناديجدا فيلاريتوفنا بالرغبة فى الاعتماد على ذراع أحد ما — ما يقلقنى . . كلا ،

ما يعذبنى ، هو مصير تشايكوفسكى . لا يهدأ لى بال !

فسألتها يوليا بصوت خافت :

— أتحبينه الى هذا الحد يا ماما ؟

— ليس ذلك الحب الذى يدور ببالك . فذلك الحب استنفدته لآخر قطرة مع أبيك — وكانت صادقة وهى تقول ذلك — اننى اعبد تشايكوفسكى ، ابجله ، **واشفق** عليه . ففى ذلك الحب الآخر ينبغى ان يرى المحب حبيبه ويكون معه ، اما انا فلست بحاجة الى ان أرى تشايكوفسكى ، يكفينى فقط ان اعرف انه بخير ، لا يشعر بخوف ، وان موسيقاه ستستمر ، هذه الموسيقى التى تهبنى متعة لا يضاهيها شىء . احواله الآن سيئة ، اننى اعرف ذلك . . . اعرفه بقلبى .

وسالت يوليا بحذر :

— وهل كتب اليك انه . . . ان احواله سيئة ؟

— كلا . آخر رسالة وصلت من اسبوعين . وكنت قد سالته عن السيمفونية الرابعة ، عن سيمفونيتنا . . . — وتهدج صوتها .

تناولت يوليا يدها فقبلتها . ولاحظت باسى ان بشرة امها الناعمة الرقيقة بدأت تخشوشن . . . آه يا ماما المسكينة ! . .

تمالكت ناديجدا فيلاريتوفنا نفسها ، وظل صوتها وحده متوترا بانفعال مكتوم :

— هذه الرسالة هى أروع واعمق ما كتب عن الموسيقى . ساعطيك اياها لتقرئيها . كلها عن الموسيقى . ولا كلمة عن نفسه او متاعبه . تواضع مذهل ، خارق ! — ولمعت عيناها السوداوان — ان فى ذلك حتى عدم لباقة منه تجاه صديق مثلى . اذ يجب ان يجعل ألمه ألمى ، وعذابه عذابى ، وبلواه بلواى . . .

— قد تكونين مختلطة يا ماما ، وليست احواله سيئة الى هذا الحد ؟

— انا لا اخطئ — قالت ناديجدا فيلاريتوفنا بنبرة شبه

غاضبة — انا اعرف كل ما يجرى له بالضبط كما لو كان ذلك يجرى لى .

— ماما ، أريد أن اسالك العفو على حديث سابق بيننا . . . لم اكن محقة . لقد اسأت الظن بالسيد تشايكوفسكى . . . وربما كنت اغار منه عليك . سامحينى يا ماما . انه رجل محترم ، مستقيم للغاية . . .

كان تشايكوفسكى منذ فترة قد طلب فى احدى رسائله السماح له باهداء السيمفونية الرابعة الى ناديجدا فيلاريتوفنا . وقد قرأت هى ويوليا الرسالة معاً ممسكتين بها من اطرافها . وهتفت ناديجدا فيلاريتوفنا : «انه يهدي اليّ السيمفونية الرابعة !» فلاحظت ابنتها بلهجة باردة وقد قرأت الرسالة الى النهاية : «انه يسألك سلفة يا ماما !» — «هذه أول مرة أنال فيها مثل هذا الشرف !» — «لماذا ، الكثيرون طلبوا منك سلفات» — «أنا أتحدث عن السيمفونية» — «وأنا اتحدث عن المال» — «أنت لا تفقهين شيئا يا بنيتى . السيد تشايكوفسكى يولينى ثقة عظيمة بهذا الطلب التافه وشرفا عظيما باهدائه موسيقاه اليّ . والآن دعينى !» .

تذكرت ناديجدا فيلاريتوفنا حرفيا ذلك الحديث التافه ، الذى كان بعيداً عن ذرى الجبال التى حلقت فيها روحها بالقرب من روح تشايكوفسكى ، بحيث لم يكن ممكنا ان يغضبها او يؤلمها . لكن آلمتها كلمات يوليا : «انه رجل محترم ، مستقيم للغاية» . اهكذا يقال عن تشايكوفسكى !. .

— مرة اخرى لم تفقهى شيئا فى السيد تشايكوفسكى يا بنيتى ! — قالت فون ميك باستعلاء — كل هذه الكلمات البائسة تصلح لعامة الناس . السيد تشايكوفسكى لا يمكن قياسه بالمقاييس العادية ، انه عبقرى ! — وصوبت نحو ابنتها للحظة خاطفة بريق عينيها السوداوين الرائعتين غير المبصرتين تقريبا ، وخرجت من الغرفة . . .

. . . المذهل انه حتى يوليا ، يوليا القريبة منها بكل ذرة فيها ، لم تدرك الشيء الرئيسى . وبجانب الأسى تحركت فى

نفس ناديجدا فيلاريتوفنا نشوة خفية باكتشافها الهائل . لا أحد يفهم تشايكوفسكى ، ولم يفهمه أحد ، حتى نيكولاى روبنشتين اخلص اصدقائه . ولم يجرؤ سواها ، هى ناديجدا فيلاريتوفنا فون ميك ، على اطلاق صفة **العظيم** على تشايكوفسكى . وهى التى اكتشفت فيه **العبقرى** . لقد رأت فى استاذ كونسرفتوار موسكو المتواضع ، الذى يضع مؤلفات موسيقية ، عبقرياً يضاهى باخ وموتسارت وبتهوفن . ولم تكن تلك نزوة أو بدعة لراعية فن ثرية ، تبيح لنفسها بطبعها المستبد الجامح ان تعاقب وتعفو ، وتعلى وتخسف . كلا ، لم يكن ثمة سوى صواب السمع الموسيقى والروحى الذى لا يخطىء . كانت ناديجدا فيلاريتوفنا تعرف عن ثقة ان تشايكوفسكى ، عاجلاً ام آجلاً ، ولكن فى حياته من كل بد ، سيحظى بالاعتراف العالمى ، وسيصبح شهيراً كما لم يشتهر اى موسيقار روسى آخر ، ولن تقل شهرته عن شهرة موتسارت . كان ذلك بالنسبة لها واضحاً الى حد انها دهشت لصمم المحيطين به اكثر مما ازدهت بفراستها . ولكنها لم تسمح لأحد بان يحدس بنشوتها الغريبة . لم يكن يعلم ذلك سوى روح كارل فيودوروفتش فون ميك . لم تكن ناديجدا فيلاريتوفنا تؤمن بالله ، بل بخلود الروح . وكان تشايكوفسكى مكسبها العظيم ، مثلما كانت سكة حديد كورسك — كييف مكسباً للمهندس فون ميك الشاب ، المتوقد ، السريع الشحوب ، مكسباً عاد عليه باول ملايينه . آنذاك اتضح ان هذا الفرخ الصغير ابعد نظرا واكثر فطنة وذكاء وحزماً وموهبة من ذئاب عجائز مجربة ، ففاز بالجائزة الكبرى . وها هى ذى الآن ، هذه السيدة ذات الغرائب ، كما كانوا يسمونها فى المجتمع الراقى ، والعاشقة المتحمسة للموسيقى ، تستشف ما لم يستشفه لا الاخوان روبينشتين الشهيران ، ولا لاروش العالم بكل شىء ، ولا ستاسوف نفسه ، ولا بالاكيريف البعيد النظر ، ولا الجنرال الموسيقار كيوى . لقد ثارت من كارل فيودوروفتش فون ميك لكرامتها التى كانت ترزح تحت ضغط احساسه بالتفوق عليها طوال

حياتهما المشتركة ، رغم انه هو نفسه ، ربما لم يكن يسعى الى ذلك . لقد كان هو كل شيء ، وكانت هي لا شيء . فامام عظمة انجازاته العملية كان كل شيء آخر يفقد قيمته ويصبح لعبة وتزجية للوقت ، يصبح «عالما صغيرا» . . ذلك الملجأ البائس للضعفاء وللفاشلين في الفن والحياة العملية . وعموما فليس هناك ما هو اكثر جحودا وعقما من جهود الهواة المضنية . اذ لا تعود الطاقة الروحية المبذولة باي مردود تقريبا . اما راعي الفن فيبدو افضل بكثير ، رغم ما في هذا الدور من بعض الاحساس بالنقص . ولكن التاريخ يعرف امثلة كاد الراعي فيها ان يصبح على مستوى واحد مع من يرعاه . وبدون تواضع كاذب يمكننا ان تقول ان القليلين هم الذين اظهروا ما اظهرته من بعد نظر ، ذلك لانه من الاسهل كثيرا ان تعلي قدر شخص غير معروف ، من ان تفعل ذلك مع شخص سابت سمعته . ولا داعي حتى لتذكر الفشل المدوي ، والمنصف الى حد ما ، لأوبرات تشايكوفسكي ، اذ ان أعماله السيمفونية ، وكذلك معزوفات الغرف قد نالت من السباب والتهكم والسخريات اكثر بكثير مما حظيت به من مديح . وقد وصفه صديق صباه لاروش على صفحات المجلات «بالصغير» و«البائس» ، فلم يغضب بيوتر ايليتش منه . صحيح ان مؤلفاته يعزفها نيكولاي روبنشتين ، وهذا أمر له قيمته . ولكن أليس روبنشتين هو الذي انكر كونشرتو البيانو الأول المهدى اليه ، اعظم اعمال تشايكوفسكي ؟ واذن فلم يفهم روبنشتين القيمة الحقيقية لهذه الهدية المقدمة اليه بكل هذه البراءة . ثم ان استجابة تشايكوفسكي لها بهذا الاستعداد وتلك الفرحة المعذبة ، تؤكد انه مرهق الى حد الاعياء من عدم فهمهم له ، وانه يدرك حقه في ان يكون مفهوما و«مكتشفا» . لقد اجتازا معاً المسافة الفاصلة بينهما . فما أبعد الشقة بين البشر ، ولكن من ذا الذي يستطيع ان يقيس المسافة والهوة بين استاذ كونسرفتوار فقير غير معترف به وبين أرملة مليونير ؟ لقد أصبحا متجاورين في لمح البصر وبسرعة

الخاطر ، وتعانقت روحاهما ، ولكنهما قررا الا يلتقيا لقاء العين أبداً .

بدا لها رائعا ان بيوتر ايليتش طلب منها سلفة على الفور تقريبا . فجميع من كانت الاقدار تجمعهم بعائلة فون ميك ، كانوا عاجلاً أم آجلاً يطرقون موضوع النقود . معظمهم كان يفعل ذلك عاجلاً ، وكان هؤلاء اشخاصا محترمين ، صرحاء . اما الخطر الاكبر فكان يتمثل في اولئك المنتظرين ساعتهم المواتية ، وكانهم متربصون في كمين لاحكام الضربة . وكثيرا ما كانت العلاقة بهم تنتهي بالقطيعة ، لأن المبلغ الذي يطمع فيه المتواضع الصبور ، كان يفوق كثيرا حدود السخاء المعقول لناديجدا فيلاريتوفنا وسماحتها . اما تشايكوفسكي فقد سألها سلفة على الفور ، سلفة كبيرة حقا ولكنها معقولة تماما ، وبذلك لم يأسر فؤاد ناديجدا فيلاريتوفنا فحسب ، بل سهّل عليها ما تعتزم القيام به ، اذ كانت تنوي تقرير معاش له ، لتحرره من هموم لقمة العيش . كانت أمورها المالية تخضع لنظام صارم — وعلاوة على ذلك فلم تكن تسعى الى اخفاء رعايتها لتشايكوفسكي — ومن ثم أدرجت النفقات على الموسيقار تحت بند في الميزانية باسم : «الموسيقى» . وكان هذا البند يشمل الانفاق على الفرقة الموسيقية المنزلية ، وعلى عازف الكمان الشاب باخولسكي الذي التحق بالعمل منذ فترة قريبة ، وكان مخصصا لباخولسكي دور كذلك الذي كان يؤديه يوسف هايدن * الشهير في قصر الامير استرجازي . وعموما فلم يكن باخولسكي مطالبا بتاليف الموسيقى ، بل كان يكفي ان يعد جميع مؤلفات استاذه بيوتر ايليتش تشايكوفسكي لتعزفها الفرقة المنزلية الصغيرة .

وما ان بدأت الحياة تدب في قلبها حتى هزها نبأ زواج تشايكوفسكي . بالطبع هو حر في التصرف كما يحلو له . فلم يكن في اتفاقهما غير المكتوب بند خاص بعدم الزواج ،

* يوسف هايدن (١٧٣٢–١٨٠٩) — موسيقار نمساوي ، واحد مؤسس المدرسة الموسيقية الكلاسيكية في فيينا . **المعرب** .

وعموما فلا شأن لها بحياة الموسيقار الخاصة ، والتى يقال انها كحياة النساك . ولم تنسب اليه الشائعات سوى حب قصير فاشل للمطربة الايطالية ديزيريه دارتو ، التى أهداها رومانس «فى الحفلة الصاخبة» . ولم تربط الالسنة اسم بيوتر ايليتش باى امراة اخرى . بالطبع لم تكن ناديجدا فيلاريتوفنا تجمع الشائعات ، لكن الشائعات ، مثلها مثل الروائح ، تتسرب عبر جميـع الحواجز ، بغض النظر عن ارادتنا بل ورغما عنها . وهكذا عرفت بأمر علاقته بديزيريه ، بهذا الحب المشبوب والقطيعة المفاجئة غير المفهومة ، رغم انها فى ذلك الزمن البعيـد لم تكن قد بدأت تهتم بتشايكوفسكى وكانت لامبالية ازاء المطربة . وقد سمعت بأمر انطونينا ايفانوفنا ميليوكوفـا قبل ان يخطرها بيوتر ايليتش نفسه بعزمه على الزواج .

كانت انطونينا ايفانوفنا هى التى بادرت بالكتابة الى تشايكوفسكى . ولم يكن بوسع ناديجدا فيلاريتوفنا ، اذا ارادت ان تكون صادقة مع نفسها ، ان تدينهـا على هذا التصرف الجرىء للغاية بالنسبة لفتاة . فلو انطلقنا من هذه النظرة المرائية لما كان من اللائق للارملة أيضا ان تبادر بالكتابة الى رجل غريب اعزب . ولم تكن الارملـة تخجل اطلاقا من تصرفها هذا . لقد ظهرت انطونينا ايفانوفنا فى الوقت الذى كان بيوتر ايليتش يحلم فيه بموضوع اوبرا جديدة ، وبدأ يوجه انظاره نحو «يفجينى انيجين» * ، واذ برسالة هذه الفتاة التى كانت تتردد على دروس الموسيقى ، والتى عرضت نفسها على تشايكوفسكى بنفس الطهر والبراءة والفضيحة التى عرضت بهـا تاتيانا نفسها على انيجين فى رواية بوشكين ، اذا بهذه الرسالة تعطى بيوتر ايليتش المفتاح لهذه الاوبرا التى اطلق عليهـا لاروش السليط اللسان على الفور اسم «انجيل تاتيانا» .

* «يفجينى انيجين» رواية شعرية للشاعر الروسى الكبير الكسندر بوشكين ، وقد حولها تشايكوفسكى الى واحدة من اشهر اوبراته . **المعرب** .

كان لـ «يفجينى أنيجين» مغزى خاص فى علاقة ناديجدا فيلاريتوفنا بتشايكوفسكى . فذات مرة اعترفت له فى احدى رسائلها بأنها لا تحب بوشكين وتحب بيساريف * ، واعربت عن أملهـا بأن يتحرر ، هو تشايكوفسكـى ، من اسر «الرومانسيـة البائسة ويرقى الى الذرى الشماء للروح الانسانية» . وعنفها صديقها العزيز تعنيفا شديدا . فقد احزنه بشدة وادهشـه واسخطـه ان تعجب ناديجدا فيلاريتوفنا ، ولها هذا الحس الموسيقى النادر ، ببيساريف ، الذى يسوّى بين حب الموسيقى وحب الخيار المملح ، ويضع بيتهوفن على قدم المساواة مع طاهى مطعم دوسو ! ورغم ان هذه الضربة كانت قوية ومفاجئة ، اذ كان الصديق العزيز مثالاً للباقة والرهافة ، فقد أحست ناديجدا فيلاريتوفنا ، بعد ان افاقت من هذه الصدمة الخفيفة ، بالفرحـة بل وبالغرور من هذا التقريع . فقد أدركت ان تشايكوفسكى تحدث اليها لأول مرة بصراحة وجدية ودون مواربة ، كمـا يتحدث المرء عن أهم شىء لديه مع شخص يحترمه . وكان هذا رائعا منه ، هذا الانسان الهش كالزجاج ، والذى الجأته الضرورة المضنية الى طلب العون من معجبة ثرية . لكن بيوتر ايليتش كان يرفض بحسـم اى تنازل عندما يتعلق الأمر بالمبدأ . كان لا يطيق اى مسـاس بالفن ، ولذا رفض بيساريف ولم يتسامح مع مراسلته فى شطحتها العدميـة هذه .

وقد جعل ناديجدا فيلاريتوفنا تتشكك لأول مرة فى ان ليرمنتوف هو الشاعر الوحيد بين شعراء المدرسة الرومانسية الجدير بالاعتراف . أفلا تسمع حقاً موسيقى شعر بوشكين ، أم انها تنساق وراء الموضـة ، وراء ضلال العصر الشائع ومروّجه بيساريف ؟ وقالت ناديجدا فيلاريتوفنا فى نفسها باعياء : يا إلهى ، وما دخل بوشكين هنا ؟ ان بيوتر ايليتش

* ديمترى بيساريف (١٨٤٠–١٨٦٨) ناقـد ادبى من الديمقراطيين الثوريين ، اساء تقدير ابداع بوشكين رغم دفاعه عن الواقعية ووقوفه ضد نظرية «الفن للفن» . **المعرب** .

يحول كل ما تمسه اصابعـــه الى موسيقى . ولقد سلمت بـ «يفجينى انيجين» من زمان ، ولم اسلم فقط ، بل انتظر الاوبرا على أحر من الجمر ، مثلما انتظر كل ما يخرج من بين يديه . وسلمت بهذا الزواج الأحمق ، طالما ستتولد عنه موسيقى الهية جديدة . . .

الشيء الذى آلم ناديجدا فيلاريتوفنا ، بل وجرحها ، ان بيوتر ايليتش لم يطلعها على ظروفه هذه الا متأخراً . كان يكتب لها الرسائل ، ويسألهـــا سلفــــاً ، ويتحدث عن الموسيقى ، وعن اوبراه القادمة ، دون ان يشير بكلمـــة واحدة الى ما كان وثيق الارتبـــاط بالأوبرا ، وما جعله حسب شهادة عازف الكمان كوتيك ، يدمدم ، كالسائر فى نومه ، ببيت بوشكين : «قد صار مثلي الاعلى : شئون البيت ، قدر الحساء وليكن كبيراً» . لا يا صديقى العزيز ، ما هكذا يفعلون ! أما كان بوسعك ان تشير الى ذلك ولو تلميحا ، ولو لتجنب شخصا مخلصا لك الحرج لملاحظته الخالية من اللباقة حول «تفاهة موضوع يفجينى انيجين» ؟ بالثقة يحمون الاصدقاء من الاخطاء . وانت لم تحم صديقك .

على اثر تلك الرسالة المنحوســـة علمت بعزم بيوتر ايليتش على الزواج فخجلت من عدم لباقتها غير المقصود ذاك . وهل حقا احست بالخجل ؟ . . ربما كانت تشعر فى اعماق قلبها بالبهجة ، لأنها استطاعت – ولو بصورة غير مباشرة – ان تعرب عن رأيها الحقيقى فى اختيـــار بيوتر ايليتش ، هذا الاختيار الخليق بمساعد رئيس قلم فى احدى الدوائر ، لا بعبقرى . الفرنسيون يقولون ليس مهما من اى زجاجة تشرب ، المهم ان تسكر ، بيد أنه على المرء ان يراعى الذوق حتى فى اختيار الزجاجة . ولكن ربما كان هنا شيء آخر ؟ . . ان جوتة ، وجان جاك روسو ، وامثالهما من الشخصيات المعقدة . . بحاجة فى خضم الحياة اليومية الى ركيزة بسيطة قوية مضمونة . ولكن انطونينا ايفانوفنا ، فيما يبدو ، شيء مختلف ، اكثر تعقيدا . فهى جميلة ، واذا لم تكن جميلة بالمعنى السامى الذى اتفق على تضمينه هذا

المفهوم ، فهى حلوة ، جذابة . لقد قال الاستاذ لانجى ، الذى درست انطونينا ايفانوفنا الموسيقى على يديه فترة قصيرة ، ردا على طلب تشايكوفسكى بأن يرسم لها الاستاذ صورة شفوية ، قال باقتضاب ووضوح : «حمقاء !» ، ثم اضاف مع ذلك فى دقة نزاهة : «ولكنها حمقاء وسيمة !» . لقد روى كوتيك العزيز حتى هذه الواقعة ، وهو يظن انه يرضى بذلك ناديجدا فيلاريتوفنا . احقا يعتقد كوتيك ، هو والآخرون جميعا ، انها ترى فى ميلوكوفا التافهة منافسة لها ؟ وفيم المنافســـة ؟ ان السيدة فون ميك لا تطمـــع فى قلب تشايكوفسكى وبدنه ، وانما هى بحاجة الى روحه ، التى تبدع اسمى متعة فى الدنيا ، وهذا ما لا تقوى اى ميلوكوفا على انتزاعه منها . احقا هو كذلك ؟ . . . لقد درست انطونينا ايفانوفنا الموسيقى ، واذن فليست غريبة تماما على عالم تشايكوفسكى . يا إلهى ، لمـــاذا وقع اختيارهـــا على تشايكوفسكى وحده من بين جميـــع عزاب موسكو ، وما اكثرهم . وكانت تعرف بالطبع ان بيوتر ايليتش ليس غنيا ابداً ، وانه من شبه المستحيل ان تعيش اسرته على راتبه من الكونسرفتوار والموارد العارضـــة من طبع مؤلفاتـــه الموسيقية . فحتى وهو بمفرده كان بيوتر ايليتش يعجز عن تدبير معيشته . فهل كان بامكان انطونينا ايفانوفنا ان تتنبأ برعاية فون ميك له ؟ كلا بالطبـــع ! ومع ذلك كتبت الى تشايكوفسكى تبوح بحبهـــا له كانسان وكموسيقار . لقد قلدت بصورة هزلية سلوك ناديجدا فيلاريتوفنا نفسها دون ان تدرى بذلك طبعا . صحيح ان ناديجدا فيلاريتوفنـــا لم تعرض نفسها على موسيقارها الحبيب ، وكيف تجرؤ على عرض مثل هذه البضاعة ؟ . . ولدى ورود هذا الخاطر الى ذهنها احست بشفتيها الجافتين تتقلصان الما وتقززا . . . جسد امرأة فى السادسة والاربعين انجبت احد عشر طفلاً . . **كلا ، انها لم تفكر فى شيء كهذا ابداً !** – ولم هذه القســـوة على النفس ؟ – قاطعت ناديجدا فيلاريتوفنا نفسها فى افكارها – الانسان يفكر فى اى شيء يخطر له ، وقد يوغل بافكاره فى

محرمات يستحق عليها ، اقل ما يستحق ، الصلب ، أو الشنق ، أو الحرق حيا ، أو ربطه حتى آخر عمره بالمشهرة * . لو أن الناس حوكموا على افكارهم لما نجا احد من الشنق فى الغالب . . حتى النساك القديسون ، فما بالك بامرأة خاطئة تميل الى الشيخوخة ، فى فترة «الصيف الهندى» الخطرة ، كما يقال عن تلك المرحلة الحزينة لآخر ازدهار فى عمر المرأة ، والتى لا شىء بعدها سوى الفراغ والعقم وبرودة الاحتضار .

ومضت ناديجدا فيلاريتوفنا تقنع نفسها : ومع ذلك ، وبكل صدق ، فلم اكن ابغى من بيوتر ايليتش اى شىء سوى الموسيقى . ولكن الموسيقى لا تنفصل عن الانسان ، واذا كنت لا أبغى سوى الموسيقى ، فلماذا اذن سعيت الى مراسلة الموسيقار ؟ واذن فأنا بحاجة الى الانسان ايضا . نعم الى الانسان ، الانسان بمعنى الكلمة ، لا الزوج ولا الحبيب . ولا داعى فى غمرة اذلال الذات لان اضع نفسى على قدم المساواة مع فتاة من حى زاموسكفاريتشيه ** تدعى انطونينا ايفانوفنا ميلوكوفا ، وهل يحق لى ان اتشكك فى نزاهة انطونينا ايفانوفنا ونواياها ؟ نعم ، اننى لا أثق بها . لا أثق ببراءة هذه الاندفاعة التى جعلتها تكتب لرجل وحيد غريب ، ولكنه جد مشهور . نعم ، لا أثق ! ثم ان الفتاة المقتربة من الثلاثين هى فتاة ناضجة للغاية ، ولا بد انها مجربة . . «بائرة» كما يقولون عندى فى غرفة الخدم . لقد كنت تعرفين يا انطونينا ايفانوفنا الى من تكتبين ! رغم انك لم تكونى تعرفين قدره الحقيقى ولا تفهمين موسيقاه . لقد ادركت من بعض الشواهد التى لا تكاد تلحظ فى رسائل بيوتر ايليتش أن هذه الدارسة السابقة للموسيقى لا تعرف حتى موسيقى تشايكوفسكى ، واذا كانت قد سمعتها فانما

* المشهرة هى آلة خشبية كانت توضع فيها يدا المتهم وعنقه للتشهير به علنا . **المعرب** .

** حى شعبى فى موسكو كان يسكنه التجار والعمال . **المعرب** .

سمعتها دون وعى ، دون احتراق ، دون ان تمرض بها . ولكنك كنت تعرفين انك تخاطبين انسانا ساذجاً ، لا خبرة له بكيد النساء ، غير محصن ضد الدهاء او التحايل الرخيص الذى بوسع اى رجل متوسط الخبرة ان يكتشفه بسهولة ويهزأ به . لقد خدعت بوضاعة وفظاظة طفلاً كبيرا فجررته اليك ، ثم تصنعت ، متأخراً جدا وببرود ، خجل العذارى ومحاولة الانتحار . اما هو ، المسكين ، فصدق انهم سيعثرون على جثتك الباردة فى القناة عند المستنقع ، او فى نهر موسكو مقابل «دير العذارى» ، وهو ما يبدو اكثر شاعرية . واذ امتلأ قلبه بالايمان والشفقة ، وخاب امله فى اوبراه التى تسللت انت اليها ببراعة شيطانية ، ومدفوعاً فوق ذلك بخوف أسرته من ان يصبح وحيداً هائماً فى المستقبل . . فقد ضحى بيوتر ايليتش بنفسه ارضاء لانانيتك وبسبب حساسيته المفرطة وموقفه النبيل من الجنس الضعيف .

وفى محاولة يائسة أخيرة للنجاة ، اذ اهتزت كل الأسس النبيلة عندما رأى نفسه مهدداً بأن يصبح على مقربة من امرأة سمينة ، سوقية ، مليحة وجشعة ، راح المسكين يقنعك بأن طبعه صعب لا يحتمل ، وكم هو عصبى سريع التهيج ومنطو ، وصور نفسه شخصا جهما ، عبوسا ، منعزلا وحاقدا على البشر ، يكاد يكون طاغية ، وعلاوة على ذلك لا يملك قرشا فى جيبه . ولكنك انت ، يا صاحبة الروح الحساسة ، التى حكمت على نفسها بالهلاك بسبب لقاء برىء واحد ، لم تحركى ساكنا ازاء هذه الدمدمة اليائسة ، وصمدت صمود بطل اسبرطى ، وتحليت باللامبالاة كطبيب بمستشفى الجذام يصغى الى مريض يشكو الزكام . كيف لا وانت لا تطمعين الا فى رعاية هذه الروح الوحيدة والسهر عليها . الا فلتعلمى ان بيوتر ايليتش ليس وحيدا كما تتصورين . ان لديه اقرباء يحبهم برقة ، اما شقيقته ساشا فهو يعبدها ، ولديه تلاميذ ، ولديه حام قوى هو نيكولاى روبنشتين ، ولديه صديق مستعد ان يحميه من كل الشرور

والبلايا والهموم ، مستعد ان يجعل حياته صافية هنيئة ، مستعد أن يزيل من طريقه اى حجر ولو صغير ، بل وان يعبّد بجسده الطريق اذا تطلب الأمر ! . . . ولكن ما قيمة بيت الأهل ، وما قيمة الاخت ، وماذا يكون المعلم والتلاميذ ، وماذا يكون الأصدقاء امام امرأة اصبح يدعوها فى افكاره زوجته !

المسالة اذن ليست فى ميلوكوفا ، ليست فى هذه التافهة . المسألة انك خدعتنى يا صديقى العزيز . لا لانك اردت أن تخدعنى ، بل لانك انت نفسك خُدعت . نعم ، نعم ! . . . الناس يعللون أنفسهم بأنهم يعرفون الآخرين على حقيقتهم . وهذا لا يحدث الا فى بعض الحالات النادرة ، عندما يسترشد الشخص الذى ندعى معرفته برغبات سطحية مباشرة ويسعى الى اهداف عملية فجة . ولكن هذا لا يعنى فى الحقيقة «رؤية الناس على حقيقتهم» ، بل رؤية جانب واحد ، صغير ، مهما كان مهماً . وما عدا ذلك يبقى مستورا . وعموما فمعرفة كل منا للآخر ضعيفة بصورة مدهشة . ولا ينطبق هذا على البعيدين عنا فحسب . اننا لا نعرف اقرب الناس إلينا ، اولئك الذين يهمنا أمرهم اعمق الاهتمام ، ونراهم كل يوم ، ونرقبهم بوعى وبغير وعى لاننا بامسّ الحاجة الى معرفتهم . الآباء لا يعرفون ابناءهم ، والابناء لا يعرفون أباءهم ، والزوج لا يعرف زوجته التى ينام معها ربع قرن فى سرير واحد ، والزوجة لا تعرف زوجها ، والعشيقة لا تعرف عشيقها ولا العشيق عشيقته ، ولا يسعيان الى معرفة احدهما الآخر ، والا كفّا عن كونهما عشيقين ، والمرؤوسون لا يعرفون رؤساءهم ، والرؤساء بنفس الدرجة لا يعرفون مرؤوسيهم . ان اهم ما فى الانسان مخبأ فى أعماق سحيقة لا تبلغها اشعة الضوء . ولكن الاهم يا صديقى العزيز اننا لا نعرف أنفسنا مثلما لا نعرف الآخرين . ولست غاضبة من خداعك غير المقصود . . . خداع النفس . لقد تناسيتَ شهامة الرجال فاعترفت لى فى رسائلك ان زوجتك تكاد تثير فيك التقزز البدني ، رغم انك

لم تذكر هذه الكلمات . أما فى الحقيقة . . فانت تشعر نحوها ان لم يكن بشغف فبرغبة تبلغ مبلغ الشغف ، أليس كذلك ؟ . . .

كانت ناديجدا فيلاريتوفنا تفخر فى أسى بفراستها ، وبقدرتها على قراءة ما بين السطور واستخراج الحقيقة من قعر البئر السحيقة ، بينما لم تكن لأفكارها واستنتاجاتها اى صلة بتشايكوفسكى . لم يخطر ببالها ابداً ولم تحدس بمأساة هذا الانسان الذى أراد ان يحيا حياة عادية ويصبح مثل الجميع ، فاقتنع يائسا بان هذا السبيل محرم عليه .

كانت روح ناديجدا فيلاريتوفنا الجياشة الصارمة فى احكامها ، والتى صلبها صمت تشايكوفسكى على آلة التعذيب ، فى الوقت الذى كان عليه ان يتحدث اليها ، كانت بين خيارين ، فاما ان تحكم عليه بالادانة لخداعه حكما نهائيا ، واما ان تعفو عنه تماما . وقالت فى نفسها : «هو نفسه كان مخدوعا فى حقيقة عواطفه نحو انطونينا ايفانوفنا فخدعنى دون قصد» . . . وكان ذلك اشبه بحكم البراءة . ومع ذلك كان ثمة شىء ما لا تستطيع ان تغفره لبيوتر ايليتش . ولم يكن هذا الشىء صمته الحالي ، فقد يكون وراءه مرض ، او فاجعة ، او مصيبة ، او شىء خطير آخر مجهول لها مؤقتا . . .

لا أستطيع ان اغفر لك يا بيوتر ايليتش انك ايقظت فيَّ كثيرا من الانوثة التى ودعتها من زمان . واذ شئنا الصراحة ، فقد أيقظت فيَّ ما لم احسه فى حياتى السابقة مع زوجى . وعموما فانا اكره الاحكام القاطعة . أنا لم اخن كارل فيودوروفتش ابدا ، ولكن حتى هذا التأكيد الذى لا مراء فيه هو منصف الى حد معين . لقد خنت كارل فيودوروفتش مرات لا تحصى ، ولكنى خنته معه هو نفسه . وهذه خطيئة فى الحقيقة ، اذا اردنا الا نخدع ضمائرنا . وعلى هذا فلا استطيع ان اؤكد اننى لم اغر على زوجى المرحوم . صحيح انه لم يفعل صراحة ما يستوجب الغيرة . ومع ذلك كنت اغار عليه ، لا من العمل والمشاغل التى كانت تستولى عليه كله

تقريبا فحسب ، بل ومن النساء الجميلات الشابات . وكان يكفي فقط ان تطول نظرته قليلا ، او تتغير نبرته او يختلج جفنه لكى تشتعل الغيرة فى قلبى . فانا عموما غيورة . كنت اغار على ابنائى من المرضعات والحاضنات والمربيات ، من رفاقهم ورفيقاتهم فى اللعب ، ومن بعضهم على بعض ، ومن ابيهم خاصـــة ، وحتى من الحيوانات ، كالكلاب والقطط والخيول . ولكن غيرتى لم تكن ابداً وضيعة . كنت امتدح المرأة التى جذبت انظــار زوجى ، ولا احاول الحط من قدرها ، ولا القى بملاحظة عارضة بخصوص حَوَلها او رائحة فمها الكريهة ، أو غيرها من الدناءات التى تسخو بهـا الزوجات الغيورات . اما الآن فقد انحدرت الى حد سماع القيل والقال عن انطونينا ايفانوفنا ، رغم انى لم ارها رؤية العين ، والى حد التفوه بعبارات لاذعة فى حقها . ولا يهم هنا ان هذه العبارات لن تبلغ سمعها ابداً . هذا اسوأ . . لقد فكرت فيها بصورة سيئة ، دنيئة ، تافهة ، وتمنيت لها السـوء . واذا لم يكن هناك من يعلم بذلك فانا اعلم ولا اغفر لنفسى . وما زلت اكرهها . اننى اخاف هذه الانثى ، هذه الحمقاء ، البلهاء ، الجاهلة ، شبه الحيوان . اخافها كامرأة . ولا اغفر لك هذا يا بيوتر ايليتش . انا نفسى لا ادرى من اين اتانى كل هذا البغض وهذه الخسـة . لقد انتهت حياتى كامرأة بموت كارل فيدوروفتش ، فانسحبت من المجتمع ، واصبحت حياتى هى البيت والاولاد ودروسهم ولعبهم وهمومهم . ولم اترك لنفسى سوى الموسيقى ، وفيها رعيت عالم عواطفى السابق . وكنت سعيدة لا ارثى لشىء الا لوفاة زوجى العزيز المبكرة . وفجاة اذا بامرأة غيورة ، حاقدة ، حســود ، باغضة ، منفرة فى عذابها ، تقتحم علىّ هدوئى وصفائى . وهذه المرأة هى انا . يا إلهى ، اي خزى ! عجوز ! جدة ! ابنتى الكبرى تتردد على المجتمع الراقى من زمان ، وابنى الاكبر حقوقى . وفى شعرى خصلات شيباء ، وبشرتى فقدت نعومتها ، وأصبحت جافة قاسيـة . لقد نسيت متى كنت امرأة ، متى كنت انكشف على زوجى وانجب له الاطفال ،

كانت الطبيعة سخية معى ، فقد صرت أماً احدى عشرة مرة . كانت جد سخية فجف نبعى قبل الأوان . . . — فكرت بغلّ مفاجئ ، وعلى الفور الهبت خديها حمرة خجل لا يطاق . لا ينقصها الآن الا ان تتافف من الطبيعة على اعظم هبـة من هباتها ، على منحها الحياة لكل هذه المخلوقات الرائعـة . ولماذا تعتبر نفسها عجوزا ؟ لم تمض خمس سنوات على مولد ميلوتشكا ، ابنتها الصغرى ، التى اثارت اهتمـام بيوتر ايليتش البالغ . كان ميل الموسيقار والصغيرة الى بعضهما البعض ، هذا الميل المتبادل وغير المفهوم ، مؤثراً ومثيرا . كانت ميلوتشكا تتامل صورة بيوتر ايليتش طويلا ، وفى آخر المطاف اهدتها أمها بشىء من الأسف صورة الموسيقار وعليها اهداء ، موجه بالطبع الى أمها لا الى الطفلة . وذات مرة كانت تكتب رسالة الى صديقها العزيز فسألتها ابنتها : «الى من تكتبين ؟» — «الى السيد تشايكوفسكى» — «ولماذا تكتبين اليـه طوال الوقت ؟» — «لأنى احب السيـد تشايكوفسكى !» — «فلماذا اذن لا تكتبين الى ملك بافاريا ، الست تحبينه هو الآخر ؟» — قالت ميلوتشكا ابنة الاربعة اعوام بنبرة معقدة أربكت ناديجدا فيلاريتوفنا الى حد ما . بالطبع أدركت الام بعد لحظـة انها هى التى تخيلت هذه النبرة المعقدة ، اما فى الحقيقة فلم يكن هناك سوى السذاجة الطفولية الساحرة . كانت ناديجدا فيلاريتوفنا قد ذكرت ذات مرة امام ميلوتشكا انها تحب ملك بافاريا لموقفـه من الموسيقى والموسيقيين . وحفظت ذاكرة الطفلة الحادة هذه العبارة . والغريب ان بيوتر ايليتش ، الذى كتبت له عن هذه النادرة المضحكة والمؤثرة من نوادر ابنتها ، قد لاذ بصمت مطبق ردا على ذلك . وشعرت بأنها تريد الآن فورا ان ترى ميلوتشكا ، هذه الرابطة الحية بشبابها القريب ، القريب جدا ، ميلوتشكا القوية ، الوافرة البدن ، العفية ، الجميلة .

عندما دخلت ناديجدا فيلاريتوفنا غرفة الاطفال ، اسرعت ميلوتشكا بوضع صورة بيوتر ايليتش على الطاولة الصغيرة .

فترای لناديجدا فيلاريتوفنا شيء غيبي في ان ابنتها الصغرى كانت هي الأخرى على اتصال بتشايكوفسكي في هذه اللحظة . ترى ماذا يحمل مثل هذا التوارد الغريب ، الفرحة أم الشقاء ؟ لقد كانت ناديجدا فيلاريتوفنـــا متطيرة مثل كثيــر من الملحدين .

— هل كنت تتاملين صـــورة السيد تشايكوفسكي يا صغيرتي ؟ ما أروع وجهه ، أليس كذلك ؟

فأجابت الطفلة وهي تنظر الى امها مقطبة الجبين :

— بلى يا ماما .

ورفعت ناديجدا فيلاريتوفنا الصورة الى عينيها للحظة ، ثم وضعتها ثانية على الطاولة . واحست ميلوتشكا بارتياح شديد عندما ادركت ان امها لم تلاحظ الثقوب الصغيرة في عيني الموسيقار من اثر غرز الدبوس . اذ كانت ميلوتشكا قد فرغت لتوها من طقوس الانتقام الرهيب بفقأ عيني بيوتر ايليتش .

— هل تحبين السيد تشايكوفسكي ؟

— جدا . . . — اجابت الطفلة بثبات وبرود أعصاب .

— احبيه يا صغيرتي . انـــه شخص رائع ، نادر ! وموسيقار عظيم .

فاسرعت ميلوتشكا تعاهد أمها :

— ها أنذا احبه .

وقبلتها ناديجدا فيلاريتوفنا في جبينها ومفرق شعرها ، فمست بشفتيهـــا ذلك المخلوق الرقيق العطر ، الذي كان ايضا رمزاً لصباها الممتد ، وخرجت من الغرفة دامعـــة العينين .

. . . في طريق عودتها الى غرفتها نظرت الى الفنـــاء المغمور بنور القمر . بدا هذا الفنـــاء الموسكوفي البسيط بخمائل البنفسج الذاوية ، والليلاب الجـــاف على الجدار المصمت للمنزل المجاور ، وبحظائر المركبات والحطب ، بدا في ضوء القمر الفضي الاحتفالي ، الضخم بصورة غير معهودة ، اشبه بفناء ايطالي ساكن يغلفـــه الحزن والأسرار ، وبجوار

خميلة بنفسج فارسي ذابلة لم تسقط اوراقها بعد جلس رجلان على الاريكة يتبادلان حديثا خافتا . كان احدهما يدخن ، فيرسم لهب سيجارته الأحمر أقواساً ناعمة في يد غير مرئيـــة . وخمنت فون ميك من هذه الحركات الناعمة المصاحبة للكلام ان المتحدث هو وكيلها . اما صاحبه الآخر فلم يكن ظاهرا ولا معروفاً لها . واحست بغتة بوخزة حسد لهذين الرجلين الخاليي البال ، اللذين لا شأن لهما بهمومها وعذابهـــا وشكوكها وقلقها . لقد خرجا ليدخنا ويثرثرا في هذا المساء الدافئ من أماسي خريف وادع ، وبعد ان يشبعا تدخينـــا ويعبا من روائح الاعشاب المتحللة والارض الدافئة ويصغيا الى اصوات الموسيقى البعيدة المتلاشية لهذه المدينـــة الضخمة ، سياويان في هدوء الى فراشهما ، فيغيبان في نوم عميق حتى الصباح ، بينما لن تنام هي الا قبيل الفجر ، عندما تتبدى ملامح الستائر متشحة بالرماد ، نوما قصيرا لا يروي الغليل .

كانت ناديجدا فيلاريتوفنا مخطئة في تفكيرها بخصوص الرجلين الجالسين في الفناء . اذ لم يكن الجالســـان تحت البنفسج الفارسي يشعران بالسكينة أو فراغ البال . كانا جد قلقين ، وكان ما يشغلهما هو نفس ما يثير قلق ناديجدا فيلاريتوفنا .

— أحقاً لم تشأ حتى ان تصغي اليك ؟ — سأل جغوتوف بصوته الثقيل — ربما كان هناك سبب آخر لاستيائهـــا ؟ ألست تمكر عليّ يا فاسيلي سرجييفتش ؟

— حرام عليك ان تظن ذلك مجرد ظن لا ان تقوله يا ايفان بروكوفيفتش ! — قال الوكيل بأسى صادق — ليست هذه أول سنة نتعامل فيهـــا على ما اظن . وما غرضي من خداعك ؟ اقول لك واكرر : انها حزينة لان مرعيّها ، السيد تشايكوفسكي ، لا يكتب لها .

— مرعيّها ؟ ماذا تعني ؟ . . ما صلته بها ؟ علاقة ود ام شيء آخر ؟

— لا صلة . انه موسيقار ، يكتب موسيقى .
فقال جفوتوف بدهشة :
— أهي حقا تكتب ؟ كنت اظنها تغني أو تعزف .
لم تثر سذاجة جفوتوف لدى الوكيل احساساً بالتفوق عليه ولا لثانية واحدة ، بل فكر بتأثر : «يا إلهي ، انه حتى لا يعرف ان الموسيقى تكتب ! حياته كفزاعة الطيور ، ويعيش مع البهائم في دار واحدة ، ولكنه يستطيع أن يمزقني بسن واحدة . انا وزوجتي الحبيبة واولادي التلاميذ ، كما تحز العرسة رقبة عصفور . من أنا بالقياس اليه ؟ صفر على الشمال» . وأجاب باستفاضة ورزانة :
— الموسيقى ينبغي أولاً ان تؤلف وتدوّن بالعلامات في النوت ، وبعد ذلك فلتغن أو تعزف او ترقص كما تشاء .
— وما هي الموسيقى التي ألفها ؟
— كل أنواعها . الموسيقى الدينية : «المجرم التائب» و«مزامير داود» والموسيقى الدنيوية : «سارت الفتاة في القفار» و«البرغوث» و«تئن حمامتي الزرقاء» و«النمر الصغير» . . .
عدّد فاسيلي سرجييفتش جميع المؤلفات الموسيقية الهامة المعروفة له ، والتي قد يكون جفوتوف سمع بها . وكان يعتبر ان قسما من هذه الاعمال العظيمة على الأقل لابد وان يكون من تاليف تشايكوفسكي بالفعل ، والا فلا مبرر اذن لسلوك ناديجدا فيلاريتوفنا وغطرسة الموسيقار .
— يا سلام ! . . — دهش جفوتوف ، لكنه استطرد بلهجة صارمة — ولماذا لا يكتب الى السيدة ؟ أيَحزن سيدة هامة مثلها !
— هو ايضا جنرال . . . ولكنه — وهنا خفض فاسيلي سرجييفتش صوته وكأنه يخشى ان يكون لليل آذان — يخسر في القمار كل ما يملك ، وسيدتنا خصصت له معاشا من اجل ذلك . أترى يا ايفان بروكوفيفتش الموقر كم انا صريح معك ومفتوح القلب . لو علمت السيدة بما قلته عن مرعيها فسأفقد وظيفتي .

غير ان ايفان بروكوفيفتش بدا وكأنه لم يسمع هذه الاعترافات ، اذ كان يدير في راسه الثقيل والكبير كالقدر فكرة ما . وتوصل اليها :
— طالما الأمر هكذا . . طالما تقول الحقيقة ، فسوف تصل الرسالة . ان يصمد طويلا ، وسيكتب . ولكن متى ؟ تلك هي المسألة .
فتنهد الوكيل وقال :
— نعم . . . ها نحن ايضا ننتظر . كل صباح نبعث الصبي الى البريد اذ لا نستطيع انتظار الساعي . ويطير الصغير الى هناك كالطير ويعود مجرجرا ساقيه وهو يبكي من بعيد .
فسأل جفوتوف شارداً :
— سأخرج قليلا .
— لانه حتما سيضرب على قفاه اذ عاد خاويا . . . مع انه ، في الحقيقة ، لا ذنب له — قال الوكيل مصدراً حكما عادلاً ، ثم اطفأ عقب السيجارة في الارض — اظن ان الوقت حان لننام ؟
فقال جفوتوف :
— سأخرج قليلا .
— ولم لا تتمشى في المدينة ؟ — قال الوكيل بحيوية — انها مدينة كبيرة ! لدينا هنا غير بعيد ، في شارع تروبنايا ، شتى الملاهي واماكن الطرب والحانات ، بل ومطاعم حقيقية بالشمبانيا والشطائر والكافيار ! وكل المسائل الاخرى اذا ما رغبت . . . — وعاد يخفض صوته الى درجة الهمس قائلا : — وبحرية تامة . وهناك بيوت خاصة يعني . . يمكنك ان تستأجر غرفة ، بمنتهى الاحترام . عندك مثلا دار ماليوشين ، في شارع سريتينكا . . فتيات صبيات وسيدات متزوجات ، واحيانا من النساء الراقيات .
فسأله جفوتوف عابسا :
— ومن أين عرفت ؟ أم تراك ترددت عليها ؟ ربما تريد مصاحبتي ؟

— انا لا استطيع . . هنا تعرفنى حتى الكلاب . أما أنت فلست من هنا ، أنت رجل حر . . .

فقال جغوتوف بلهجة قاطعة :

— لا رغبة عندى ! سأقف قليلا خارج البوابة .

فانحنى الوكيل قائلا :

— كما تشاء .

. . . خرج ايفان بروكوفيفتش من البوابة . وهبت ريح قوية ، وان تكن دافئة ، فحركت لهب المصابيح الغازية مما جعل ظلال المنازل والأشجار والأسوار تتراقص فى حركة دائبة على ارض الشارع الحجرية وعلى بلاط الأرصفة . واخذت الظلال ترتمى الى هذه الجهة تارة ، والى الجهة الثانية تارة اخرى وتتكاثف فوق بعضها البعض وتتداخل وتنفصل ، فبدا وكأن الشارع نفسه يتارجح على امواج الليل . ولم يعجب ايفان بروكوفيفتش هذا السلوك الطائش للشارع فزاولته تماما اى رغبة فى التعرف على هذه المدينة الكبيرة والمريبة ، التى اجتمعت فيها كل هذه الثروات ، وكل هذا الذهب والسلع ، حيث تعقد يوميا صفقات لا حصر لها ، حيث يباع ويشترى كل شىء ، حيث يشتعل الضوء طوال الليل وتعزف الموسيقى ويسيل الخمر انهاراً ، حيث تتبدد فى القمار ثروات طائلة ، وحيث تتوقف امور التجارة والمعاملات على بضعة اسطر لم يرسلها جنرال موسيقار مقامر الى سيدة حساسة عنيدة ، ارملة امهر واجرا رجل اعمال فى الامبراطورية الروسية . فاى شيطان دفعه هو ، جغوتوف ، الرجل المتزوج ، رب الأسرة ، التقى ، المعروف بدقته وصرامته فى الأعمال ، الى وكر الشياطين هذا ؟ افلا يحسن به ان يبصق على كل شىء ويرحل عائدا الى داره ؟ فما اكثر الأعمال الاخرى ، ولن تستطيع جمع كل النقود ، ينبغى ان تترك شيئا للآخرين ايضا . اذا خسرت هنا ، فستكسب هناك . . . ثم ما الذى خسره هنا ؟ حسنا ، فليكن قد اهدر اسبوعاً ، ولكنه فى المقابل شاهد موسكو عندما استقل عربة من محطة كازان الى بوليفار القيامة ، وسيكون بوسعه أن يحدث زوجته عن رنين

الاجراس ، وعن كثرة الكنائس والصلبان الذهبية هنا ، عن الخبز المنتفخ الذى يخبزونه وغرابة ملابس الناس فى موسكو . وماذا لو انه ذهب بالفعل الى دار ماليوشين فى سريتينكا ، ليقضى الليلة هناك مع أرملة أحد الموظفين او الضباط ثم ينطلق عائدا مع برودة الصباح ؟ ولكن أشجار البوليفار القصيرة لاحت فى الظلام قريبة تكاد تلمسها اليد وهى تفر يمينا ويسارا ، فبدت له من جديد اشجار غابة باسقة عملاقة ، غابة يملكها عن استحقاق .

وقرر ايفان بروكوفيفتش فى نفسه : «كلا ، سانتظر يوما آخر ، فربما كتب لها هذا العازف ، وبعدها قد تتضح الأمور . . .» .

. . . من نافذتها كانت يوليا تستطيع دائما ان تعرف هل اطفىء النور فى غرفة امها ام لا . وفى ذلك المساء نهضت من فراشها عدة مرات قلقا على امها . ورأت الضوء مشتعلا هناك حتى بعد منتصف الليل . ولكن البيت كان محكوما بقواعد لا يجوز مخالفتها ولو بدافع ارق مشاعر الحب . فلم تكن ناديجدا فيلاريتوفنا تطيق ان يدخل عليها أحد غرفة نومها . ولم يرها أحد وهى مشعثة اثر الاستيقاظ سوى وصيفة المخدع ، اما بقية أهل البيت ، بمن فيهم ميلوتشكا الصغيرة ، فلم تكن تظهر امامهم الا فى كامل زينتها . وفكرت يوليا وهى تحمر خجلا : «وكيف كانت مع أبى ؟ لا بد ان الظلام كان يسعفها . . .» .

اقتنعت يوليا القبيحة نفسها منذ زمن بعيد باستحالة الزواج السعيد بالنسبة لها . كما ان نفسها الأبية النقية رفضت امكانية الزواج عن غير حب . وفكرت باذعان : «لست وحدى فى هذا الوضع . يبدو ان للرب حكمة فى وجود وحيدات أبديات امثالى . وربما ينبغى ان يكون تحت يده فائض حب ، يتصرف فيه حسب مشيئته» . بيد ان يوليا لم تتلق من السماء بعد ما يشير اليها بأن تهب حبها للمعذبين ، بل كانت حتى لا تعرف بوضوح اين يوجد هؤلاء المعذبون ، الذين بدوا لها فى صورة شحاذى «ممر بتروفسكى» الوقحين ، ومن ثم

فقد سكبت دفء روحها كله على أمها . لم تكن تحب أمها وتعجب بها فحسب ، بل كانت احيانا تشفق عليها بعنف ، وتفكر دائما فيها ، وفى القوة التى تحيا بها روحها وبدنها وقدرتهما على بلوغ غاية التطرف فى كل الامور . ولم يكن العازف الشاب باخولسكى يعجب يوليا ابداً ، ومع ذلك كانت تحس بانبهار انفاسها تحت وقع نظراته المتسلطة ، فتفكر بالاعجاب المقرون بالرهبة فى ذلك العبء الذى حملته امها فى الحياة على كتفيها المستقيمتين . ولم يكن مرد ذلك الاعجاب الى اقدام فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، بشجاعة وبوعى كامل ، على ربط مصيرها بمصير رجل بالغ تماما وليس بسيطا ، مثل كارل فون ميك ، كما لم يكن راجعا الى ان امها وهبت الحياة لعشرة آخرين غير يوليا ، بل كان راجعا الى ذلك الحب والجهد والرعاية والقلق التى انفقتها على كل واحد منهم ، دون ان تفقد شيئا من شخصيتها ، دون ان تفقد شيئا من اهتماماتها الخاصة ، البعيدة عن الاسرة والأطفال (ما أبهت هذه العبارة ، عندما يكون المقصود بها شخصا كامها) .

بعد وفاة الاب انزوت الام فيما يشبه الدير الداخلى . فكل ما كانت تنفقه سابقا بسخاء وسعة على الحياة الخارجية وعلى الزوج ، اصبح الآن مخصصا للبيت والاطفال فقط . ولكن تشددها البالغ ، وتسلطها ، وميلها المفاجئ الى اصطناع حظى" ، جعل الحياة فى البيت اشبه بجو البلاط فى عهد الامبراطورة آنا إيوانوفنا * . كما كشفت فى نفسها فجاة عن نوع من الجهامة ، كانت هى ذاتها تسميها «ميزانتروبيا» ، ولكن هذه الكلمة الاجنبية التى تنطوى على مزيج من الكآبة وخيبة الامل والاغتراب والانزواء ، تحولت فى الواقع الروسى الى شىء يحمل روائح الاقطاعية المستبدة القاسية سالطيتشيخا .

* تميزت حياة البلاط فى عهد الامبراطورة آنا ايوانوفنا (١٦٩٣-١٧٤٠) باصطفاء الاحظياء (كان الكونت بيرون ، حظى الامبراطورة ، هو المسيطر الفعلى على الحكم) وبالتنكيل بالمعارضين والخوف من استبداد الامبراطورة . **المعرب** .

كانت يوليا رغم حبها الشديد لأمها ، وربما نتيجة لهذا الحب ، تراها على علاتها ، دون الوان وردية . وما كان اسعدها بأن ترى امها تستحق من الثناء اكثر بكثير مما تستحق من الادانة . وبعد ذلك «اخترعت» امها لنفسها تشايكوفسكى فزالت عنها الميزانتروبيا كانما لم تكن . وابتسمت يوليا لجراتها هذه فى التفكير . فقد كانت تعرف ان امها لم «تخترع» تشايكوفسكى بل التقت به لقاء الروح بالروح . ولكن يوليا قد راق لها ان تطلق العنان لأفكارها . ومن جديد عاد جو المرح والانطلاق والموسيقى الى البيت . ولم تكن يوليا اقرب من امها فى يوم من الأيام مثلما فى «عهد تشايكوفسكى» ، فشعرت لاارادياً بالامتنان له على هذا التقارب ، رغم ان الغيرة كانت تتحرك فى قلبها جنبا الى جنب مع المشاعر الطيبة .

كانت أمها تعطيها رسائل تشايكوفسكى لتقراها ، وكثيرا ما تقرآنها معا ، ومعا تعزفان موسيقى تشايكوفسكى وتغنيان اغانى الرومانس التى وضع موسيقاها ، وتتحدثان عنه . وسرعان ما كفت يوليا عن الغيرة من الوجود الدائم لشخص ثالث معهما . فلم يكن حبها لأمها انانياً ، كما انها عرفت بأمر الاتفاق المبرم بين أمها والموسيقار بالا يلتقيا ابدا . وربما لو تجسد هذا الشبح الرقيق واصبح بجوار أمها كيانا حياً بكل جلاء خشونته الواقعية - بلحيته وشواربه - لما كان موقف يوليا منه متسامحاً كما هو الآن .

ومع ذلك فقد اهتز موقفها من تشايكوفسكى بشدة فى الأونة الأخيرة . قبل كل شىء شعرت يوليا بالاهانة من ان بيوتر ايليتش ربط بصورة محرجة فى رسالته بين عزمه على اهداء السيمفونية الرابعة الى ناديجدا فيلاريتوفنا وبين طلبه مالاً" . فبدا الأمر اشبه بصفقة تبادل . ولكن غضب امها منها وتفكيرها الخاص اقنعاها بأن الوضوح البيّن لهذا الحرج انما يبرئ ساحة بيوتر ايليتش ويدل على سذاجته التى تكاد تبلغ سذاجة الاطفال . ولذلك فقد كانت يوليا صادقة تماما عندما سألت أمها ان تسامحها على سوء ظنها بتشايكوفسكى . صحيح أنها لم تحظ بالرضى ثانية اذ أباحت لنفسها ان تتحدث

عن تشايكوفسكى كانسان فان ، بينما هو ، كما ظهر ، إله لا تسرى عليه احكام البشر . واذا كان إلها حقا ، فهو اذن إله قاس ، لأن روحا سامية متحمسة قد اسلمت له امرها بينما هو ما ينفك يلقى بها فى براثن اليأس المرة تلو المرة . . .

ففى البداية كان هذا الزواج الأحمق ، ثم تبعه ندم عصبي يكاد يكون هستيرياً على ما فعل ، وبعد اشراقة الضوء القصيرة التى حملت معها ملامح تشايكوفسكى السابق ، خالق النغم ، تفجر الأسى المرير من جديد ، ثم الاذعان المفاجىء للقدر والاستعداد للتسليم بما حدث ، واخيرا ها هو يختفى فى المجهول . وظلت امها تنتظر شيئا ما ، ولم تطلع يوليا على آخر رسالة لتشايكوفسكى ، بل قالت فقط بصوت أصم انها تتمنى له السكينة طالما لم يوفق الى بلوغ السعادة ، فالوئام السيىء افضل من الخصام الطيب . وفى هذه العبارات المبتذلة ، الغريبة تماما على ناديجدا فيلاريتوفنا ، تبدت دلائل الاضطراب الروحى . وحتى هذا لم يكن مخيفا مثلما هى مخيفة حالة الارتباك التى اصبحت فيها الآن . وقد بدأ هذا ما ان عادوا من ايطاليا وتجاوزوا عتبة البيت . كان البريد أول ما سألت عنه ناديجدا فيلاريتوفنا ، فحملوا اليها كل الرسائل التى تجمعت اثناء غيابهم . وقلّبت الرسائل على عجل ، وما ان اكتشفت عدم وجود رسالة من تشايكوفسكى ، حتى انهارت روحها على نحو يكاد يكون محسوسا . ترى لماذا كانت هذه الرسالة مهمة لها الى هذه الدرجة ؟ وعموما ما الذى يمكن ان يكون فى حياة السيد تشايكوفسكى ، حتى يمس امها بهذه الصورة المؤلمة ؟ أليست فى نهاية الأمر تهتم به اهتماما موسيقيا محضا ، واذا كان اهتماما وديا فهو أيضا من خلال الموسيقى . على العموم أمها دائما ما تبلغ حد التطرف سواء فى ودها أم بغضها . لقد أنزل تشايكوفسكى ضربة بكرامتها ، اذ زج فى العلاقة بينهما بامرأة سوقية حمقاء تافهة . وهذا شىء كريه ، ولكنه ليس مميتا ابداً . فليس هناك ما يتهدد حياة بيوتر ايليتش وصحته على الاطلاق ، وليس لمخاوف امها وعذابها أى أساس ، بل مبعثها فقط طبعها الجامح الجبار .

فالصورة التى اخترعتها للسيد تشايكوفسكى لم تقف على قدميها ، واتضح ان تشايكوفسكى الحقيقى اكثر تعقيدا وعكارة وفوضى بكثير . ولم تكن أمها تحتمل الاستقلالية المفرطة حتى لدى الاشخاص غير التابعين لها ، ومن هنا كان خلافها الدائم مع روبنشتين المتمرد . اما لدى الاشخاص التابعين لها - معنويا ام ماديا - فلم تكن تطيق هذه الاستقلالية ابدا . ذلك اذن هو السبب الحقيقى لعذاب امها . - هكذا قررت يوليا فى نفسها وقد ارعبتها فراستها هذه . وتوصلت الى قرار مشرف لروحها الطيبة : بأن تأخذ على عاتقها كل شيء . ستكتب هى نفسها الى تشايكوفسكى حتى لو كان ذلك غير لائق . يبدو ان الاقدار حكمت عليه بأن يتلقى رسائل من نساء مجهولات . ستقول له شيئا واحدا : لا تكن قاسياً . وسيفهم ويرد ، فتستعيد أمها لعبتها المحطمة . . .

. . . اخطأت يوليا اذ ظنت ان ناديجدا فيلاريتوفنا تكابد الأرق . فقد غابت فى نوم مفاجىء كالاغماءة ولم يكن هناك متسع لاطفاء النور . لم يكن ذلك حتى نوما بل نوعا من الوجود الجديد . وبكت فى الحلم بدموع حقيقية واحست بعيونها المبللة ، وكانت تصرخ فتسمع صراخها . وكل ما كان يجرى لها فى هذا الحلم كانت تحسه احساسا جسديا ، وعندما استيقظت ظلت تشعر فى عظامها وعضلاتها بما كابدته .

بدت لها موسكو ، ذات مساء متأخر بارد ، برياح قارسة ومطر دقيق القطرات لاذع كالسياط . وكان بيوتر ايليتش ، فى معطف اسود طويل بياقة مرفوعة وقبعة من الجوخ مسدلة بشدة على عينيه ، يجرها الى جهة ما بقوة والحاح ضاغطا على مرفقها بلا كلفة . وشعرت ناديجدا فيلاريتوفنا بالسعادة وبقدر من الرهبة لاندفاعته المتسلطة ، وارادت ان تعرف منه الى اين هما ذاهبان ، ولكنها لم تعرف كيف تسأل ، وكأنها نسيت كيف تلفظ الكلمات . اما بيوتر ايليتش ، وقد فطن الى السؤال الذى لم يطرح ، فراح يردد بعصبية : «ضرورى !» «ضرورى !» ، «ضرورى !» - واخيرا تمكنت من انتزاع الكلمات : «لماذا ضرورى ؟» . ولكن مرافقها لم يرد عليها ،

وسرعان ما بلغا مباني عاليـــة جهمة كانت فى الوقت نفسه كنائس ومسارح . وهناك كانوا يقيمون صلاة المساء ، ولكن القائمين عليها لم يكونوا قسسا بل ممثلين ، وامام المدخل كانت تبـاع تذاكر . ولكن ذلك لـم يثر دهشة ناديجدا فيلاريتوفنا التى كانت تتوقع شيئا مشابهـا ، بقدر ما عزز هواجسهـــا المنذرة بالسوء . واكتشفت فجاة ان الكنائس صامتة ، والصمت المطبق يلف كل شىء . «الاصوات ماتت !» — قال تشايكوفسكى بنفاد صبر وبمزيد من العصبية وقد خمن سؤالها مرة ثانية . «الا تعرفين حقا ان الاصوات ماتت ؟» . وكانت تعرف ذلك ، ولكنها لسبب ما اخفته عن تشايكوفسكى ، وعن نفسها . فقدت جميع الكمنجات والشيللوات والنايات والابواق والقرون اصواتها ، ولم يعد مفتاح معزف واحد يلد صوتا ، ولم تعد اى حنجرة تلد اغنية . ماتت الموسيقى لانه قد وقعت خيانة . ولم تستطع ان تحدد اى خيانة هذه . لقد ماتت الموسيقى فى بيوتر ايليتش ، ولهذا شمل الصمت كل ما حولهما . ولان كل جوهر فقد شكله ظهرت تلك الكنائس — المسارح الرهيبة .

ولم تدهش عندما تمددت كتل المبانى السوداء الضخمة وكأنما ذابت فى الفضاء ، اما هما فقد وجدا نفسيهما بجوار مياه سوداء ثقيلة كالزيت . وعلى الفور عرفت فيهـا القناة — فرع نهر موسكو ، كما عرفت المكان : قرب بولشايا بوليانكا وراء الجسر الحجرى الصغير . وعلى خلفية الغسق الذى أطبق فوراً تبدى واضحاً الركن المدور لذلك البيت الغائص فى الارض والذى يقال ان باجينوف * هو الذى بناه . كان كل ما هنا مالوفا كما فى اليقظـــة : برج الاطفاء العالى فى آخر الشارع ، والصيدليـــة فى البيت المواجه لبيت باجينوف ، ومصباح الشارع على الناصية . وسارت نحوهما راهبتـــان بخطوة رجالية فظة ، وهما تكنسان الأرض الحجرية المبللـة

* فاسيلى باجينوف (١٧٣٧-١٧٩٩) معمارى روسى ، احد مؤسسى المدرسة الروسية المعمارية الكلاسيكية . **المعرب** .

بذيل مسوحهما الثقيلين المتسخين ، وكانتا ايضا تنتميان الى عالم الواقع المالوف ، مثلهمـا مثل مشوه الحرب الذى كان يحاول اشعال غليونـــه بواسطة قدّاحة شرر ، مخبئاً الفتيل الملتهب تحت ذيل سترته . وفى الوقت نفسه كان كل ذلك : المطر والريح ، وبرك الميـاه ، والكورنيش ، والصيدلية ، والراهبتـــان ومشوه الحرب . . رموزا لوجود آخر ، بائس مقفر ، لم يبق فيه شىء يستحق من اجله الحياة . وفجاة اذعنت للمقدّر المحتوم ، وغذت الخطو فبلغت السلم الحجرى الهابط الى المياه قبل تشايكوفسكى . كان الماء يبقبق بصورة كريهة وكان النهر يمصمص بشفتيــه الغليظتين اثر الاستيقاظ . وكانت هناك اشياء تسبح فى المياه المظلمة العكرة العليلة : قطع خشب ما ، وعلب معدنية فارغة ، وجثث حيوانات صغيرة ، وغيرها من قاذورات المدينة ، وهى تتقلب مندفعة مع التيار لكى تذوب فى البحر فى نهاية الرحلة .

تقدم بيوتر ايليتش المتخلف قليلا نحوها بخطوة غريبة راعشة ، وكأنما اصابه تقلص عصبى ، ونزع قبعته وقفازيه ومدها اليها هى وعصاته . ودهشت ناديجدا فيلاريتوفنـا : لماذا يفعل هذا ، فقال لها بيوتر ايليتش بنفس اللهجـــة العصبية : «الا تعلمين حقا انه ينبغى تسليم القبعة والقفازات والعصى الى المشجب ؟» . فسالت ناديجدا فيلاريتوفنا بوجل وبلا معنى : «والمعطف ؟» . فاجابهـا بيوتر ايليتش بحدة : «لسنا فى مسرح ! ليكن سلوكك مهذبـــا !» . واندفع فجاة يهاجم كارل فيودوروفتش فون ميك ، الذى لم يكلف خاطره طوال هذه السنوات من الحياة المشتركة بان يعلم زوجتــه كيف يكون سلوكها وهى تشهد انتحارا . وقال متهكمـــا : «مهندس ارستقراطى !» واضاف بسخرية شيطانية «ارستقراطى المانى !» . وفكرت ناديجدا فيلاريتوفنا فى أنه كان من الممكن ان يدع زوجها وشانه . ولكنها بشكل عام كانت معجبة ببيوتر ايليتش فى هذه اللحظة ايما اعجاب ، اعجبها حتى فى تقريعه المتهور وغير المبرر للارستقراطيين ذوى الأصل الألمانى ، الذين ارتكبوا هفوات جسيمة فى تربية زوجاتهم . كان بيوتر

ايليتش يبدو رائعاً . . اطول وارشق مما كانت تظنه ، وقامته انحف وادق ، ووجهه احدّ واخشن . كانت فيه ملامح رجولة وظفر على الرغم مما ينطوى عليه العمل المقدم على ارتكابه من ضعف . وسحر ذلك ناديجدا فيلاريتوفنا الى درجة انها لم تحاول ان توقفه أو تثنيه عن عزمه .

اما بيوتر ايليتش فقد نزل الى النهر . وفى البداية جس المياه بقدمه المنتعلة حذاء لامعاً ، مثلما يفعل المستحمون الخائفون من نزول الماء ، ودمدم بشىء اشبه بـ«بر - ر - ر !» . ثم راح يغوص تدريجيا : الى عرقوبيه ، ثم الى ركبتيه ، فإلى فخذيه ، وها هما ذيلا المعطف الطويل يعومان حوله . وشعرت بلحمها ودمها كيف ترتفع البرودة القاتلة من قدميه الى بطنه فصدره . ومضى بيوتر ايليتش متقدما ابعد فأبعد وهو يغوص اعمق فاعمق ، مبعدا عنه الألواح العطنة والزجاجات الفارغة وعلب الكارتون فى تقزز . وهنا ادركت ناديجدا فيلاريتوفنا أخيراً ان بيوتر ايليتش سيغيب الى الابد ، سيختفى تحت المياه ليطفو فى مكان بعيد عن هنا ، وستحمله المياه السوداء اللامبالية هو ايضا الى البحر . فصرخت صرخة رهيبة حادة ، والتفت بيوتر ايليتش نحوها خائفا وقال : «اسكتى ! الشرطة قد تسمعك !» ، ولكنها استمرت تصرخ حتى ايقظها صراخها ، ورات ، وهى مستيقظة ، تشايكوفسكى يسير نحوها مبللا غاضبا . وقالت ناديجدا فيلاريتوفنا فى نفسها : «لقد انقذته» واستيقظت تماما . ولم يبد لها الحلم غريبا الى هذا الحد ، فقد كتب بيوتر ايليتش فى رسائله عن عزمه على حل كل العقد بالموت . وكتب كوتيك العالم بكل الامور ان بيوتر ايليتش قد حاول ان يصاب ببرد حتى يموت ، ولذلك فقد غاص بالفعل فى نهر موسكو ليلاً حتى رقبته . فلماذا مرت ناديجدا فيلاريتوفنا على هذه السطور بتكشيرة شاردة متقززة ولم تعرها بالا وهى التى تولى مثل هذا الاهتمام لكل ما يتعلق بتشايكوفسكى ؟ كان ينبغى عليها أن ترى فى هذا الخبر كناية عن الدرك الاسفل الذى بلغه صديقها العزيز . وما كان ينبغى فى هذه الحالة ان تلجأ الى التجريد ، بل تستشف

الجوهر البسيط والمرعب . فتشايكوفسكى لم يحاول ابداً ان يصاب ببرد فى مياه نهر موسكو الدافئة ، بل اراد ان يغرق ، ويصفى كل حساباته مع الحياة الحقيرة . لكن شيئا ما اخافه ، وجعله يسرع بالخروج الى الشاطئ . «صرختى هى التى منعته - هكذا قررت ناديجدا فيلاريتوفنا - روحى هى التى صرخت ، روحى التى تتبعه خفية . . .» .

سيتضح فيما بعد ان صرخة ما هى التى اخافت بيوتر ايليتش بالفعل . فقد سطا الاشقياء الكثيرون فى هذه الناحية من المدينة على احد المارة ، فصاح هذا عالياً مستنجدا بالشرطة . وكان بيوتر ايليتش يخشى الى حد الرعب جميع ممثلى السلطة ، وخاصة البوابين ورجال الدرك ، فاسرع بالخروج من المياه فى الوقت الذى لم يكن يفصله فيه عن العدم سوى نصف خطوة . وعندما علمت ناديجدا فيلاريتوفنا بذلك آمنت تماما بان تلك الصرخة المنقذة كانت صرختها ، رغم انها دوت متحشرجة من حنجرة عابر تعرض للسطو . فاذا كان الاله جوبيتر لم يتورع عن ان يتحول الى ثور من اجل بلوغ اغراضه الغرامية ، فلِمَ لا تستخدم ناديجدا فيلاريتوفنا لغرضها الغيبى حنجرة احد البسطاء لكى تنقذ تشايكوفسكى ! .

طمأن هذا الحلم الغريب ناديجدا فيلاريتوفنا بعض الشىء . كلا ، ان بيوتر ايليتش لم يبالغ قط فى تصوير عذابه مع هذه المراة ، ولم يكن مخطئا الا فى اعتقاده بامكانية العيش معها فترة أطول . اما فى الواقع فلم يكن ثمة مجال لانتعاش جديد . ولسوف يعود اذن الى صديقته الحقيقى ، وستصل رسالة ، حتما ستصل ، مع أول بريد قادم .

. . . ثمة شخص آخر فى هذا المنزل قضى ليلة سيئة ، دون ان يحمل له الاستيقاظ عزاء . ذلك كان ايفان بروكوفيفتش جغوتوف . منعه من النوم تفكيره فى ابناء اخته الارملة الفقيرة ، الذين أوكل اليهم اعماله فى غيابه . وظل طول الليل يفكر باسى وغضب : ترى كيف يسيّرون

الاعمال هناك بدونه ؟ وكانـــت أعمال جغوتوف وممتلكاته كثيرة . . فلديه فى احدى الضياع مزرعة خيول ، وفــى الأخرى ورشة قطران ، وفى الثالثة يجرى بناء معمل نسيج ، وعلاوة على ذلك كان لديه نزلان وحانة . ولم يكن ابناء اخته بلداء ، فجميعهم ، الأربعة ، رجال كبار ، متزوجون ، وافرو الأبدان ، بجباه ضيقة ، ووجنات بارزة وعيـون كالشقوق ، ورغم هيآتهم الوحشية كانوا يتميزون بخبـث نادر . وكان ايفان بروكوفيفتش يحكم قبضته الفولاذية عليهم ، شحيحا فى مكافاتهم ، ومع ذلك جمع كل منهم راس مال يكفى للبدء بمشروع خاص . هذا بينما لم يكن يتركهم بلا رقابة لاكثر من يومين او ثلاثة . اما الآن فقد طالـت غيبته اسبوعا الا يوما ، وفى مثل هذه المدة يستطيع حتى من هم اقل منهـم شطارة تحقيق الكثير . بالطبع لن يصيبوه بخسارة مباشرة ، فليسوا بالاغبياء ، ولكنهم قد يستغلون هذه الغيبة فيدسون انوفهم عميقا فيما لا ينبغى ان يعرفوه . ففــى عالم الأعمال كثيرا ما يحدث ان يتحول الشخص القريب ، صديق وشريك الامس ، الى منافس وعدو لدود . وابناء اخته لا ضرر منهم طالما هم هكذا ، فلا ينبغى اذن ان يطلق أيديهم . ولذلـك أصر جغوتوف على ان يذهب الوكيل الى السيدة قبل وصول البريد . فهى الآن منتعشة بآمال الصباح ، وقـــد شبعت نوما ، ولم تجلس الى المعزف بعد ، واذن فقد يوفق فــى سعيه على الفور . انه يعرف كيف تجيد ناديجدا فيلاريتوفنا حسم الامور بسرعة ودقة وحزم .

كان الوكيل يخشى الذهاب خشية الموت . ثم خطر لــه فيما بعد انه من الممكن ربط بيع الغابة بتصليح مصنـــع السكر ، الذى كتبت عنه ناديجدا فيلاريتوفنـا وهى بعد فى ايطاليا ، ثم نسيته تماما بعد عودتها مثلما نسيت كل ماعداه من أمور لا تقل استعجالا . ورسم الوكيل علامـــة الصليب وتوجه الى جناح السادة .

اما جغوتوف فمضى الى غرفة الخدم . هناك كـان يجلس

الصبى فانكا ، ابن الطاهية والحاجب ، هرمس * هذا البيت ، الذى كانوا يرسلونه الى البريد كـــل صباح دون انتظار للساعى الأعرج البطىء . وكان هذا الصبى سريع الساقين ، نشيطاً ومتعلماً .

— لم تذهب بعد ؟

فاجاب الصبى :

— أبداً يا سيد جغوتوف .

— اذا أحضرت رسالة ستحصل على ربع روبل — وعده جغوتوف ، ولسبب ما هدده بقبضته الثقيلة الحمراء الشعر .

اذهلت ضخامة المبلغ فانكا فقرر الا يجلس فــى خمول منتظرا رحمة القـــدر . فبطاقة الدخول الى الملهى حيـث يعرضون عروس البحر تساوى عشرين كوبيكا . اما بالخمسة كوبيكات الباقيــة فيمكن شراء لدائـــن وحلوى مطاطـة وسكريات . يا لها من فرصـــة ! . . . حصل من أبيه المزين بشرائط الذهب ، على ورقة وحبر ، وانتحى جانبا فى الفناء ، وشحذ كل صفوفه الدراسية الثلاثة فدبّج رسالـة . سيسلم هذه الرسالة الى جغوتــوف مقابل ربع الروبل ، وبعدها سيختفى عن نظر التاجر الى ان يرحل . وهذا فــى حالة اكتشاف السيدة فون ميك للتزوير . وها هو ما كتبه :

«عزيزتى نادية ! ابلغكم فى بداية رسالتى اننى بخير وبصحة طيبة واتمنى لكم مثل ما انا فيه . انا أؤلف مختلف انواع الموسيقى الجميلة وخاصة الدينيةً ولا العب القمار الا قليلا وفــى صحبة ممتازة . ومــن عندنا يهدونكم السلام ويتمنون لكم السعادة والعز فــى حياتكم . صديقكم العزيز السيد تشايكوفسكى» .

وطوى الورقة نصفين ودسها فى عبه . واغمد الطاقيــة فى رأسه وركض الى البريد ، فربما واتاه الحظ فجاء برسالة حقيقية من تشايكوفسكى ، واذا لم يكن فسيغلق رسالته هو

* هرمس — رسول الآلهة عند الاغريق واله الرعى والتجارة والربح وحامى المسافرين . يماثل الاله ميركوري عند الرومان . **المعرب** .

ويختمها . فى الحقيقة لم يركض . فقد كان لديه متسع كاف من الوقت ، فمضى على مهل فى الشارع الملىء بشتى المغريات . سار بخطوة كسلى بطيئة كما يتسكع جميع صبيان موسكو حتى عندما يقال لهم : هيا ، رجْل هنا والثانية هناك . وكان فانكا موسكوفيا حديثا ، فمنذ عامين اخذ الحاجب ابنه من القرية وجاء به الى موسكو . سار الصبى صاعدا مع البوليفار المرتفع . ومتع ناظريه بالحمام ، وتفرج على فلاح يجلد حصانه النحيل الذى يجر حمل حطب ويقفز ويتلوى مغاليا المرتفع الوعر ، وكاد الصبى يمضى فى اثر موزع فواكه يحمل صندوق تفاح وكمثرى بنية وبرقوق مرمرى على رأسه . وتوقف بالقرب من شحاذة عمياء ، وظل طويلا يحدق فى وقبى عينيها العميقين ، حيث يلوح شقان ضيقان دامعان ، محاولاً ان يفهم هل هى حقا لا ترى ام أنها تتظاهر . واثناء وقوفه كانت قطع معدنية تتساقط برنين فى كوز الشحاذة . فقالت الشحاذة بصوت غليظ : «ما لك تحملق ؟ أمش فى سكتك !» . فابتعد عنها وهو يحسب فى ذهنه المبلغ الذى ستجمعه فى اليوم اذا كان قد أُلقى اليها بستة غروشات وكوبيك اثناء الدقائق الثلاث او الأربع التى وقفها بالقرب منها . وظهر ان المبلغ كبير الى درجة انه اعاد الحساب عدة مرات لكى يقتنع اخيرا بضخامة دخل هذه العجوز . وحتى لو طرحنا أيام الصقيع والمطر ، عندما تخلو الشوارع من المارة ، فان مهنة الأعمى هى اكسب مثلاً من مهنة الخادم او الحاجب او الساعى . ولكنها اكثر مللاً . اذ عليك ان تقف كالمقيد ، وتقلب عينيك ، وتتشكى بصوت رفيع مستعطف . عندئذ تفقد كل رغبة فى النقود .

بلغ فانكا بوابة سريتينكا ، حيث أصمه صخب الزحام وصرير عربات الجر ووقع حوافر الخيل وطقطقة الحناطير ، وقرقعة البراميل المتدحرجة الى اقبية خمور الاخوة بيرخوشكوف الواقعة خلف ناصية البوليفار مباشرة ، وصراخ باعة الحلويات والفواكه . وغاص فى الحشد كما يغوص فى بركة ، مبتهجا بالهياج الذى لا معنى له ، وكأنما كان الجميع

تحت تأثير نشوة الخمر ، فانتشى هو ايضا من الزحام والروائح والصخب ، ومن الثقة التى تملكته فجأة بأن ربع الروبل اصبح فى جيبه وسوف يرى عروس البحر ويأكل اللدائن والمطاطة والسكريات حتى الشبع . ووصل الى البريد ممتلئا بهذه الثقة البهيجة ، ودخل المكتب المشبع برائحة الصمغ ، وعرف انه لا توجد رسائل للسيدة فون ميك . وتحمل هذه الصدمة ان لم يكن بسهولة فبمرح غير طبيعى . وابتاع مظروفا وطابع بريد من أرخص فئة يحمل صورة التاج القيصرى . وطلى قطعة نقود بالحبر وطبعها عدة مرات على قصاصة صحيفة التقطها من الأرض ، ثم ختم بالقطعة على طابع البريد ختما باهت اللون . وكتب العنوان حسب الأصول : «موسكو ، بوليفار القيامة ، الى صاحبة المعالى السيدة فون ميك فى دارها الخاصة» . وخبأ الرسالة فى عبه وعاد ادراجه من نفس الطريق . .

. . . اثناء غيابه طرد الوكيل ثانية من مكتب السيدة فون ميك . كانت تبدو هذه المرة فى حالة الطف ، وكانت مستكنة ، مستغرقة فى ذاتها ، وكأنها تقرر خفية مسألة هامة بالنسبة لها . ولم تسأل حتى عن البريد ، واشارت للوكيل ليجلس وجلست هى قبالته ، الى طاولة صغيرة من خشب مطعّم . وبدا انها سعيدة اذ وجدت ما يشغلها عن افكارها ، كما ان منظر طاولة الكتابة التى وقعت عليها العديد من الاوراق الهامة ، انعش قلب فاسيلى سرجييفتش ، فارتكب خطأ لا يغتفر . كان ينبغى ان يبدأ فورا بشرح المسألة الرئيسية ، الا ان الخطة الماكرة التى اقرها جفوتوف كانت مسيطرة عليه ، كما ان هيأة ناديجدا فيلاريتوفنا كانت تشجع على التمهل ، فراح يتحدث عن تصليح مصنع السكر . ولم يكن قد فرغ من هذا الامر عندما قالت ناديجدا فيلاريتوفنا بارهاق وهدوء :

— حسنا يا سرجييفتش ، انا اعرف هذا كله ، وكتبت لك بأن تبدأ وانا بعد فى الطريق . فلماذا تزعجنى بهذا مرة اخرى ؟ الا ترى اننى متعبة ولا وقت عندى لك ؟ يا

إلهي ، لِمَ هذه القسوة في قلوب الناس ، لم ؟ — قالت بنبرة هزت الوكيل حتى أعماق روحه وحركت الدموع في عينيه .

ان للبلوى الحقيقية قدرة على تحريك حتى اغلظ القلوب . ولم يكن الوكيل من ذوي القلوب المتحجرة ابداً ، وقد بذل مجهودا هائلاً ليكبت في نفسه ضعف العطف الانساني المحض على السيدة فون ميك ويمضي الى غايته .

— انني اتجاسر على ازعاج سعادتكم لأنه قد جدّ ما يستدعي المزيد من النفقات . وفي ضوء هذه الظروف ارجو ان تولوا اهتمامكم للعرض الذي تقدم به التاجر من الطبقة الأولى السيد جغوتوف بخصوص شراء الغابة . . .

كانت ناديجدا فيلاريتوفنا قد كفت من وقت طويل عن سماع ما يقوله الوكيل وقد غاصت من جديد في ليل افكارها . لكن كلمة «الغابة» المألوفة ، التي ارتبطت في توافق زمني بحت بصمت تشايكوفسكي ، وبكل ما تعانيه هي من عذاب ، اخترقت جدار عدم اهتمامها وسقطت كشرارة في قبو بارود .

— اخرج من هنا ! — قالت وقد علاها شحوب السعار . . .

وخرج الوكيل ، ومضى يجرجر قدميه عبر الطرقة ، ناسيا تماما ان السيدة لا تطيق صوت احتكاك الاقدام . وتحول تفكيره الآن ، لسبب ما ، الى ذلك المنشور الذي القاه مجهول منذ قريب في فناء الدار . ومزقه هو في غضب والقى به في المدفأة ، ساخطا على لامبالاة الشرطة وتقاعسها عن التصدي لهذه الدعوات الهدامة . كان في المنشور كلام عن سلطة القيصر وكل من يؤيد العرش ، واستنتاج بضرورة القضاء عليهم . وفكر فاسيلي سرجييفتش في ان المنشور ، رغم حماقته ، فيه شيء من الانصاف ، فلان فون ميك تحمل فقط لقبا ارستقراطيا فإنها تبيح لنفسها عدم استقبال شخص مثل ايفان بروكوفيفتش جغوتوف الذي لا تساوي بالنسبة له ، من حيث الفطنة والمهارة ، قلامة ظفر . ستظل روسيا

متخلفة عن الدول الاخرى الى الأبد ، ما لم تتغير النظم ويصل الى السلطة رجال مثل جغوتوف . وهكذا توصل الوكيل ، دون ان يدري ، الى ادراك ضرورة الثورة البرجوازية في روسيا ، اي حقق طفرة هائلة في تطوره الذاتي . . .

. . . عند عودة فانكا من مكتب البريد عثر على الفور على السيد جغوتوف المنتظر عند البوابة .

وقبض جغوتوف على كتف الصبي النحيلة ، وهتف ضارعاً بوعيد :

— هه ؟

واحس الصبي بثقل ذراع جغوتوف فلم يجرؤ على التفوه بكذبه .

وهز جغوتوف الصبي في غضب فسقطت رسالة من تحت قميصه . وانحنى جغوتوف فالتقط الرسالة واخلى سبيل الصبي ، ولكن هذا لم يفكر حتى في الهرب . كان الشوق الى معرفة رد فعل جغوتوف على ما كتب اقوى فيه من الخوف .

فحص التاجر الرسالة ، وقلبها بين يديه ، وعرضها للضوء ونظر ، وكاد يشمها ، ثم توقفت نظرته على الختم فمزق المظروف مطمئنا . وقرأ الرسالة وهو يحرك شفتيه ببطء .

وسأل الصبي دون ان يبتسم :

— أمعقول أنت كتبتها ؟ مكتوبة جيدا . . — وفي حركة مناقضة لهذه الكلمات نقر الصبي ثلاثا على جبينه بعظمة سبابته المثنية .

واراد الصبي ان ينتحب ، ولكنه اكتشف مندهشا ان النقر لم يسبب له ألما ، وكان اقرب الى التشجيع منه الى العقاب .

قال فانكا مستجمعا شجاعته :

— تفضل بدفع ربع روبل .

— ماذا ؟ !

وارتفع جفنا جغوتوف الثقيلان المسدلان فكشفا فجأة عن بحيرتين زرقاوين .

وتجرأ فانكا فقال :

– طبعا . الشرط نور . وعدتنى بربع روبل على الرسالة . .

وقال جغوتوف وكأنه يحدث نفسه :

– هذا الجرو لديه مواهب كبيرة .

ودس يده فى جيبه .

– لن اعطيك . . – قال جغوتوف – جزاءً لك على هفوتك ، لن اعطيك . هذه الأعمال ينبغى اداؤها بدقة . بحيث لا يكون فيها أى عيب . أما أنت فطبعت الختم فى غير الموضع المطلوب .

ولكن العلاقة بين فانكا وجغوتوف لم تنته عند ذلك . لقد اعجب جغوتوف بمواهب الصبى الذى أبدى فى هذه السن المبكرة مثل هذه المهارة العملية الفذة ، فقرر أن يأخذه معه . فمن الجيد ان يكون لديك شخص قريب موثوق به وذكى ، مدين لك بكل شىء ، فأنت الذى ربيته ورفعته . وللأسف فقد قسا القدر على ايفان بروكوفيفتش اذ وهبه ابنتين دجاجتين وابنا أبله . البنات لسن مشكلة ، فسوف يزوجهن ، ويعطى البائنة المطلوبة لكل منهن وانتهينا . المصيبة عندما تجرى فى عروق ابنك دماء غريبة . عندئذ لا تعنى اعمال الأب وهمومه له شيئا . لا اهتمام ولا احترام ! وكم ضربه أبوه ، وكم سجنه ، وكم هدده بحرمانه من الميراث ، فلم يُجدِ ذلك شيئا . وهو الآن فى السادسة عشرة ، ولكنه لا يفعل سوى أن يجمع شتى الهوام والفراشات ويثبتها بالدبابيس فى العلب . النظر اليه يثير القرف ، وامام الناس تشعر بالخجل . وباختصار فهذا الولد سطر مشطوب من العمر . أما ابناء الاخت فلم يكن جغوتوف يفكر فيهم اثناء غيابه الا بغضب . بالطبع هو يستخدمهم كما يشاء ، ولكنه لن يبقيهم الى جواره ، فهم غربان محنكون ! عندما تعيش الى جوارهم ، جنبا الى جنب ، لا تلاحظ ذلك ،

ولكن على البعد يبدو كل شىء واضحا . أما فانكا هذا فسيصبح بعد ست او سبع سنوات ، لا غنى عنه فى جميع الامور . ودون أن يؤجل الموضوع تحدث جغوتوف فى نفس اليوم الى والدى فانكا : الحاجب الغبى المنتفخ الاوداج ذى السوالف الهائلة المغسولة جيدا ، والطاهية السوداء الاشبه بالغراب ، التى تعد الطعام للخدم . وبالطبع لم يجد الوالدان ما يعبران به عن شكرهما للتاجر الكريم .

بمرور الاعوام سيصبح ابن جغوتوف عالما كبيرا ، عضوا بأكاديمية العلوم الروسية . وسيطلق اسمه على ثلاثة انواع من الفراشات وعلى فصيلة من خنافس الخشب وعلى ذبابة جميلة زمردية ناقلة لعدوى جلدية ، وستدرس كتبه لطلبة الحشريات . . أما فانكا فلم يصعد نجمه . . لقد اخطأ جغوتوف فى تقديره له . اذ اتضح انه ذو شخصية مزعزعة وذهن شارد ، يهوى مصاحبة الخلاّن وضروب اللهو والكأس والقيثارة . وهكذا ظل وكيل أعمال عاديا ، لا يتميز عن الآخرين اللهم الا بأنه كان يزوّر احيانا سندات بمبالغ صغيرة ، وكان يُضرب ، ويودع الحبس . . .

بعد خروج الوكيل ظلت رائحة الغابة فى انف ناديجدا فيلاريتوفنا طويلا . فقد يحدث أحيانا ان يلوح اثناء الحديث أمر تافه ، ولكنه ينغرز فى القلب كالشظية فى الاصبع بينما ينمحى الحديث كله من الذاكرة . وقد تستحق المسألة التفكير : فلماذا مسك هذا الامر التافة وأثارك واغضبك ؟ ولكن ناديجدا فيلاريتوفنا كانت عازفة عن ارهاق تفكيرها ، فحاولت ابعاد رائحة الغابة عنها بوسيلة بسيطة هى الحط من شأن محدثها : «لماذا يلح الوكيل الاحمق على هذه الغابة ؟ لابد انه هبش هبشة كبيرة من التاجر . ولكن التاجر ، فيما يبدو يعرض سعرا طيبا ؟ أوه ، يا إلهى – قالت مقاطعة نفسها – ما لى انا بالتاجر وحساباته ؟ . .» . ولكن رائحة الغابة لم تتبدد . وقادتها هذه الرائحة المرة

المثيرة عبر الطريق المألـــوف الى تشايكوفسكي ، رغم ان الغابة ، فيما يبدو ، لم يكـــن لها اى دور فى علاقتهمـــا المتبادلة . مهلاً ! . . بل كان لها دور ! حتى ولو لم يكـن ذلك بصورة مباشرة .

كان بيوتر ايليتش يعلـــــق على الغابة المملوكة لآل ميلوكوف بعض الآمال البائسة . نعم ، نعم ، فقد اكدت لـه انطونينا ايفانوفنا ان لديهم غابة فى ناحيـــة كلين وهناك شخص يريد شراءها ، وسوف يكون ثمنها بائنة لها ، وهو مبلغ غير صغير ابداً بالنسبة للضائقة الماليـــة التى كان تشيايكوفسكي يعانــــى منها آنذاك . يا للانسان العظيم المسكين ! كان يامل عن طريق الغابة فى تسديد ديونــه وترقيع أحواله المهلهلة ودفع تكاليف العرس ورحلة شهـر العسل وتاثيث البيت . وكتب لناديجدا فيلاريتوفنا عن هذه الغابة بفخر ساذج واعتزاز . وربما لم يكن ثمة فخر ، ولكن الذى لا شك فيه ان الثقة فى انصلاح الأحوال تجلت فـى رسالته . وفوق ذلك فقد كان يرى فى الغابة ضمانة تشير الى ان عائلة ميلوكوف ، المشكوك فى أمرها ، ان لم تكـن محترمة الأصل فهى على الاقل شريفــــة . ومهما كان بيوتر ايليتش بسيطا وبريئا ، فهو شخصية مبدعـــة ذات حدس مرهف وقدرة على تمييز قيمة الاشياء الحقيقيــة دون خطأ .

ومن الواضح ان انطونينا ايفانوفنا لم تكن هـى التى أثارت فيه نوبة التقزز التى أفضت به الى محاولة الانتحار ، بل مـا أحس به من عار عندما تكشفت الحقيقة . فقد اختفى مشترى الغابة فى اللحظة الأخيرة كالمعهود ، اما الغابة فقد ادعـى ملكيتها بالوراثة اقرباء بعداء . هذا ان كــان لتلك الغابة وجود اصلاً فى غير خيال ميلوكوفا الملتهـب . كما ان التشوش الذى وصف به بيوتر ايليتش فى رسائله قصـة الغابة ، وهو المعروف بدقته ، يؤكد القناعة بانه لم يصدق رغم كل شيء تفسيرات انطونينا ايفانوفنا المتهافتة .

وهكذا انهارت مشاريع بيوتر ايليتش «الغابية» . وبعد ان كان يؤمل بالتقاط انفاسه ، اضطر الى ان يطلـب نقودا

من صديقه العزيز ، المساء اليه قليلا ، والمخدوع قليلا ، والمهجور قليلاً . نعم ، ان بيوتر ايليتش يعرف كيـف يسال نقودا دون مذلة ، دون ان يفقد اعتزازه بكرامته ، لانه يعرف قيمـــة نفسه وقيمتى **أنا** . . – فكـــرت ناديجدا فيلاريتوفنا بكبرياء . ولكنـــه كان فى هذه المرة معذبـا ومحرجاً . فما كاد يؤمن باستقلاليته عن غير طريقى بل عن طريق أملاك آل ميلوكوف الموروثة ، حتى اضطر الى طلب المال للزواج بل وحتى لشراء سرير العرس . بالطبع أجيب طلب بيوتر ايليتش على الفور وباقصى قدر من اللباقة . ولم اسمح لنفسى الا بانتقام صغير طفيف ، حينما امرت الوكيل بتسجيل هذا المبلغ تحت بند : «الموسيقيون المعوزون» . ولكنه ، اى والله ، انتقام ليس رهيبا ابداً ، فالوكيل الأحمق لم يدرك شيئا ، ولن يعلم سواه باندفاعتى هـذه . ولكنى كنت بحاجة الى التنفيس عن نفسى ولو بزفرة ، حتى لا ينفجر قلبى .

الآن بات واضحا ان خيبة أمل بيوتر ايليتش فى زواجه بانطونينا ايفانوفنا كانت كاملة ومؤكدة ، اذ لم يجد فيهـا تتيانا * . لم يجد فيها العاشقة الولهانـــة ، ولا الزوجة – الأم ، ولا الصديق الحاني الفاهم . ولم يجد فيها ذواقـة للموسيقى ، مع انه كان يحق له ان يتوقع ذلك من دارسة للموسيقى . ولم يجد فى أسرتها تلك الفضائل التى حلم بها فى سعيه المتحمس الى ركنه المنزلى وطبق الحساء الدسم . واخيرا لم يجد ولو راحة قصيرة من اضطراب أموره المادية الأبدى . غير أنـه رأى الكذب ، والخداع ، والريـاء ، والابتذال السوقى ، وعقل عصفور وقبضـــة حديدية للبؤة مفترسة انشبت اظفارها فى «فرصتها الأخيرة» . فصمتت الموسيقى فيه . ولحسن الحظ سنحت فترة راحـــة قصيرة تمكن فيها من انهاء مسودة اوبـرا «يفجينى انيجين» والبدء فى توزيع موسيقاها . ولكن أيـــن السيمفونية الرابعة سيمفونيتنا ، **سيمفونيتى** ، أين هى ؟ . .

* بطلة رواية «يفجيني ايجين» الشعرية . **المعرب**

لقد رفض بيوتر ايليتش ان يلبي طلبا صغيراً لها بان يؤلف معزوفة «عتاب» من وحي كوني ، متعللا بعدم وجود بواعث ابداعية لديه . وكان ما كتبه عن ذلك في رسالته شيقا وعميقا ، يكشف الستر عن سر أسرار الفنان . لكن الحقيقة المحزنة تجلت في ان هوسه الابداعي قد تلاشى . لقد كان يؤكد دائما انه يعمل كحرفي ، بلا كلل وباصرار ، ويوما بعد يوم ، ويكد ويعرق . كتب يقول انه مع عدم انكاره لاهمية الالهام ، وتاجج جميع القوى الروحية الباعث على السعادة ، فانه يقدر اكثر ما يقدر الكدّ اليومي المثابر ، والذي بدونه يصبح كل شيء هلاميا ، غير مضمون وخاليا من العظمة الحقيقية . فمعبوده موتسارت ، الهش ، الرشيق ، ذو الخدين الممتلئين كخدود الاطفال ، كان يكدح أيضا كحرفي .. كحرفي حقيقي يحترم حرفته ويغار على سمعة ورشته . وبنفس الطريقة كان يعمل بتهوفن ، ورافائيل المعبود الذي أبدع خلال عمره القصير اكثر مما ابدعته مدرسة تصوير كاملة . وكان بيوتر ايليتش ايضا يجيد العمل على هذا النحو ، اما الآن فقد تحطم شيء ما في هذه الآلة الجبارة والهشة معاً . لماذا لا يوجد قانون يحمي المبدعين ؟ لماذا يُسمح باطلاق النار عليهم ، كما فعل دانتيس مع بوشكين ومارتينوف مع ليرمنتوف ؟ لماذا يسمح بصلبهم على صليب المتاعب المعيشية ، القاتلة أحيانا كالرصاصة ؟ ينبغي على المجتمع ان يحمي عباقرته ، بل وان يتدخل حتى في حياتهم الخاصة في الأحوال الاستثنائية . فيفسخ زواج تشايكوفسكي وترسل انطونينا ايفانوفنا الى الاشغال الشاقة ! لا ، هذا بالطبع تجاوز ، يكفي أن تنفى إلى الاقليم لتعيش في كنف أمها ، ولتدبر لها تلك القوادة العجوز امر زواجها باحد جباة الاقليم أو احد الصيادلة أو بمالك أطيان صغير من هواة القنص . ولكن ، أواه ، لن يسمح بيوتر ايليتش بذلك ! ليس فقط انطلاقا من نبالته واستعداده للتضحية بنفسه في سبيل الآخرين ، ولكن لان هناك رسالته الاخيرة التي يقول فيها بوضوح وتحديد انه

عازم على ترتيب حياته مع انطونينا ايفانوفنا باي ثمن . لماذا أنسى هذه الرسالة كثيرا ، ولماذا اتظاهر أمام نفسي وكانها لم تكن ؟ مع ان فيها المفتاح لفهم كل ما يجرى . نعم ، اذا ما اعترفنا بمطابقتها لواقع الاشياء ، وهذا بالذات ما لا اقدر عليه ولا اريده . . .

كانت ناديجدا فيلاريتوفنا تقدر تقديرا عاليا الموسوعيين الفرنسيين . وكان يعجبها فيهم انهم ، مع تاكيدهم لتفوق العقل ، كانوا اشخاصا مشبوبي العواطف ، رقيقي المشاعر شديدي الحساسية . نعم ، لقد كانوا يعتقدون انه ينبغي ان نثق بالعقل ، وانه ليس هناك من ناصح في جميع الأمور افضل من العقل الانساني الجبار . لكنهم كانوا قادرين على الحب المتفاني وعلى الرقة والوفاء ، بمن فيهم جريم المتكبر ، ناهيك عن ديدرو الرقيق القلب . فقررت ناديجدا فيلاريتوفنا ان تختبر بالعقل البارد ما ينتمي الى دولة العواطف . ولن يكون ثمة شيء مذل لعلاقتها بتشايكوفسكي اذا ما اصبحت اليوم محققا صارماً . سوف تراجع جميع الرسائل العائدة الى تلك الايام السيئة الذكرى ، التي كتب لها فيها عن خطبته ، وستحاول فهم مجرى حياته الروحية . وبهذه الطريقة تدرك المغزى الحقيقي لرسالته الاخيرة ولصمته الحالي ، وتعرف هل بقي السيد تشايكوفسكي الى جوارها ، أم ينبغي عليها أن تلغي من ميزانيتها الى الأبد بند النفقات الروحية ، والمادية ايضا . وهنا خافت هي نفسها من ابتسامتها الجافة التي قلصت بالم زاويتي فمها .

وبينما ناديجدا فيلاريتوفنا تستخرج الرسائل من العلبة العاجية الموضوعة على طاولة قرب النافذة رات ، او بالاحرى خمنت ، زاوية الفناء خلف النافذة . ووخزها بصورة غريبة خاطر طرا على ذهنها عن ساكني البيت العديدين ، الذين تقوم حياتهم على اسرة فون ميك ، والمرتبطين بهذه الاسرة بآمال وحسابات صغيرة وبالخوف من فقدان اماكنهم المريحة ، ولكنهم في الوقت نفسه لا علاقة لهم ابدا بما

يعتمل فى نفس سيدتهم وغير مبالين بـــه ولا مهتمين ، لا يدرون شيئا ولا يحاولـــون حتى ان يخطوا خطوة واحدة بعيدا عن انانيتهم . كم من مرة فكرت فون ميـــك الأبية ، الانطوائية ، خلال الأيام الاخيرة واعادت التفكير ، بظل من الأسى ، فى الحواجز التى تفصل بيـن الناس . معاذ الله ان تكون راغبة اطلاقا فى ان يعطف عليها الخادم بتروشكا ، او الوكيل المحتال ، او الطاهية مارفا ، او المربيـــة الحمراء الأنف مدموازيل بلانش ، أو مربى الصبيان المستر جونس الذى تفوح منه رائحة تبغ الغلايين القوية ، أو السائـــق يروقى' ، او الحاجب نيكيتـا سافيتش ، ولكن ثمة ما يرعب فى هذا التشتت البشرى وفى وحدة الانسان التعيس .

ومن أين كان لناديجدا فيلاريتوفنا ان تعرف ، وهى التى عاشت كنبات فى دفيئة ، ولم تعان عذاب الروح الحقيقى ، اللهم الا الآن ولأول مرة تقريبا ، الى اى مدى يهتم الناس بامور بعضهم بعضا ، بل واهتماما منزها عن الغرض أحيانا . وكيف يشخص الناس بأبصارهم الى اولئك الذين يتوقـف عليهم ولو شىء من مصيرهم ! واى قلق وانزعاج يعتمل فى نفوس سكـــان دار فون ميك ممـــا يجرى لسيدتهم المتسلطة ! . .

. . . منعت ناديجـــدا فيلاريتوفنا اى احـــد من ان يزعجها . ولاول مرة يسرى الحظر حتى على يوليا ، التـــى احزنها هذا كثيراً بل وعلى ميلوتشكا التـى سرعان ما وجدت السلوان عند المربية ، هذا المخلوق الاكثر طرافة ولطافـة من امها بكثير .

وتوقع جميع أهل الدار بعد عودة فانكا مـــن البريد ان تبدأ الموسيقى والشهقات الثقيلة للصوت الرفيـع الباكى ، غير ان الصمت المخيم اذهلهم وضغط عـلى قلوبهم . كان هذا الصمت المطبق اشد هولاً من اى عاصفـة ، فاستولى القنوط على اهل الدار تماما .

ووضعت ناديجدا فيلاريتوفنا على عينيهـا النظارات ذات العدسات السميكة ، والتى اوصت عليها فـى امستردام –

وكانت لا تظهر بها ابدا حتى للمقربين – وراحـــت تقرأ رسائل بيوتر ايليتش مرة أخرى ولكن بنظرة جديدة . وخيل اليها ان اوراقها اصبحت ارق ، وكأنما نزعت عنها ملامســة الاصابع الطبقة تلو الطبقة بصورة غير ملحوظة . واخافهــا هذا ، فليس ينقصها الا ان تتآكل الرسائل .

واقبلت ناديجدا فيلاريتوفنـا بجدية شديدة على عمـل مضن ، الا وهو قراءة الرسائل بنظرة محايدة ، وكـان الامر لا يخصها . ولكن كل سطر فيها كان يجعـــل قلبها يخفق بعنف ، حتى لتضطر بين الحين والحين الى التوقف عن القراءة بل وتناول القطرات المهدئة . ومع ذلك امكنهـا تدريجيا ان تتمالك نفسها ، ولم يعد الاضطراب او الدموع المترقرقة فى عينيها تعوقها عن التركيز فى معنى مـــا تقراه . بل وبدات تظن ان التحليل المجرد أمر ممكن بالفعل .. فايا كانـــت الأحاسيس فان مبضـــع الجراح لن يهتز فى يدها . ولكن المبضع اهتز بالطبع وانزلق ، وراح يمـزق اللحم حيث لا ينبغى ، وما كان من الممكن ان يمضى على غير هـذا النحو . فهل كان بوسع ناديجدا فيلاريتوفنا ان تصبح شخصا آخر ، غير مبال بمصير تشايكوفسكى ! لقد رافقته من جديد فـى طريقه إلى الجلجثة ، ولكنها كانـــت جلجثتها هى ايضا . لا جدال فى انه عانى بشدة عندما اكتشف ان انطونينا ايفانوفنا ليست هى تتيانا لارينا ابداً ، وان «قدر الحساء» الذى دفـع فيه هذا الثمن الباهظ لن يشبع من جوع . لم يتضح له ذلك على الفور ، بيد ان رسالة ١٨ ابريل تبدو وكانها وضعـت الامور فى نصابها :

«. . . ما ان انتهت المراسيم ، وما ان اصبحت' مـع زوجتى على انفراد ، وفى ادراكى ان مصيرنا الآن قد ارتبط ارتباطا وثيقا ، حتى احسست فجاة انها لا تثيـر فى نفسى حتى مجرد المشاعر الودية ، بل انها بغيضة اليّ بكل معنى الكلمة . وخيل اليّ انني ، أو على الاقـل جزء منى ، الجزء الأفضل ، بل والجزء الطيب الوحيد فيّ ، اى موسيقيتى ، قد ضاع بلا عودة . . .»

حسنا يا صديقى العزيز ، كان عليك وقد ادركت الشىء الرئيسى ان تقطع علاقتك بهذه المرأة فورا ، حتى لو كنت تعتبرها «لا ذنب لها فى شى» . ولكنك بائس ومتردد ، وقد فكرت فى الانتحار ، ثم تذكرت اهلك ، فرحلت الى اختك فى كامنكا . لابد ان اختك مخلوق غير عادى طالما تحبها الى هذا الحد ، كما ان زوجها انسان رائـع ، واطفالهما فاتنون ، واخواك التوأم ساحران ، هذان اللذان تكتب لى عنهما بكل هذا التأثر والرقة والاحترام والطيبة ، حتى اشعر بروحى تفيض دفئاً وحنانا . وبين هؤلاء الناس ، ووسط الطبيعة العزيزة عليك ، عدت الى الموسيقى ثانية ، بل وكتبت لى تخبرنى **بسيمفونيتنا** ، وبدا لى اننى استعيد تشايكوفسكى ، صديقى العزيز . . وليكن مثخنا بالجراح ، معذباً ، وليكن حتى قد فقد شيئا ما (ما زلت أجد صعوبة فى تحديد الأمور) ولكنه تشايكوفسكي **انا** . وفجأة آمنتُ بان هراء حياتك الموسكوفية قد مضى بلا رجعة ، واعترف لك باننى أردت ان اساعدك على الخلاص من قيودك المضنية . ولكن لا ، لقد شاء القدر ان تمضى الأمور فى طريق آخر . فاذا ارتياح اعصابك ، ونجاحك فى العمل يجعلانك تميل الى مصالحة زوجتك ، التى تبنى «العش» فى موسكو . واخذتَ تأمل فى تأثير العادة المسكن للآلام ، بل وتذكرتَ محبوبك بوشكين : «وهبتنا الأقدارُ العادة ، لتكون بديلا لسعادة» . وتملكنى أسى لا يوصف من تفاؤلك العاجز هذا . واحسست ان الميزنتروبيا عادت لتلقى بظلها الأسود عليّ ، وكتبتُ لك عن ذلك . فأجبتنى برسالة غريبة ، مكتوبة على دفعتين ، ورسالة اعترفت بنفسك انك لم تكن تريد ارسالها ، ومع ذلك قررت ارسالها مع ملحوظة اطول من الرسالة نفسها ، والاهم من ذلك انها ، هـذه الملحوظة تلغى تماما معنى الرسالة . ماذا حدث لك حينها يا بيوتر ايليتش ، وكيف جرى هذا التحول الحاد فى مشاعرك ؟ وطالما حدث التحول ، فما الداعى اذن لارسال رسالة توقفت فيها عند كلمات الكراهية التى تحس بها نحو زوجتك ، ثم

أنهيتها بكلمات الوئام التام معها ؟ فى البداية كتبت انك تفهم أساي العميق وتشاطرنى اياه ، وتعتبر ان «الموت هو بالفعل اعظم النعم» وتدعوه اليك بكل قوى روحك . لقد كنت صادقا عندما كتبت ذلك . ولكن بعد مرور ساعتين لم تعد تفكر فى الموت ، وبنفس صدقك الرقيق والجذاب كتبت عن استعدادك للتصالح مع انطونينا ايفانوفنا والعيش معها فى وفاق وسلام .

فما الذى حدث اذن خلال هاتين الساعتين ؟ ضغطت ناديجدا فيلاريتوفنا على صدغيها بأصابعها النحيفة الطويلة . وراحت تعيد قراءة الرسالة ، وتلفظ الكلمات جهرا ، بل ومقطعا مقطعا تقريبا ، وكأنها تريد ان تحفرها حفراً فى ذاكرتها . حسنا ، انه يقول انه لم يرد ارسال الرسالة ، ولكنه لا يستطيع أن يتركنى بلا جواب . «وفى الوقت نفسه لا استطيع ان اكذب عليك» . اكذب عليك . . لنتذكر هذه الكلمة . «ومن الجائز جدا فى القريب العاجل أن تهدأ نفسى وتطمئن . لابد من خوض اللحظات الصعبة . . لقد تنبأتُ بذلك . . .» . متى وأين يا صديقى العزيز ؟ . . . «عندما جلست لأسطر هذه الرسالة كنت اريد ان اخفف عنك اساك وسخطك على الحياة . وكم اود ان اواسيك ، ولكنى لا اجد ما اقوله لك سوى اننى اعطف عليك من صميم قلبى يا ناديجدا فيلاريتوفنا ، فلتبحثى عن العزاء والوئام فى الحياة عن طريق تأمل الطبيعة» . لا يا صديقى العزيز ، انت تتجاوز الحدود ، انت لست طبيبى الخاص حتى تنصحنى بالتنزه وشم النسيم والاستحمام وبعدم القلق . ومواساتك بدا يلوح فيها الكثير من البرودة والغربة . اما الجملة التالية فهى محض تطاول : «ان ميزة الثروة هى انها توفر لصاحبها امكانية ان يهرب دائما من الناس ويختلى بالطبيعة ، التى هى فى ايطاليا اجمل وافخم مما هى فى اى مكان آخر» . كلا يا صديقى العزيز ، ان ميزة الثروة هى انها توفر امكانية مساعدة الاصدقاء . ولست انت الذى يقول عن ثروتى هذا الكلام الملتبس ! . .

انك تبتعد عنى اكثر فاكثر مع كل كلمة تكتبها ، ويملؤك غرور غير معتاد ، يتردد عاليا بصفة خاصة فى نهاية الملحوظة : «انتهيت من توزيع الجزء الأول من السيمفونية» فلماذا لم تكتب «سيمفونيتنا» ؟ أم انها لم تعد سيمفونيتنا ؟ وتكتب : «والآن ساقضى بضعة أيام فى **التعود** على الحياة الجديدة وسأنقطع فيها عن العمل» . غريب انك تشدد على كلمة «التعود» لا على كلمة «الجديدة» . لقد عدت الى زوجتك يا بيوتر ايليتش ، ورغم ان حياتكما المشتركة لم تدم الا قليلا ، لكنها لم تعد جديدة . وعلى اى حال فهى لا تبدو كذلك ابدا فى النصف الأول من رسالتك . بالعكس ، انها تترك انطباعا تاما بانك عدت الى حياة قديمة ، مملة ، كانت منذ البداية لا تطاق ولم تتغير ابداً ، اذا ما تجاوزنا عن المظاهر الخارجية البحتة . فانت لم تشعر بان الشقة الجديدة والاثاث الجديد هى جديدة ، لم تشعر الا بالنفور القديم المرضى من زوجتك ومن كل ما يحيط بها ، ورحت تمتدح الموت المخلِّص . وفجأة تصبح هذه الحياة جديدة عليك وتسعى الى التعود عليها !

انك تكتب : «عندما ساحس بالحاجة الى **العمل** — وتلك اولى علامات الشفاء النفسى — فسوف اشرع إما فى توزيع الاوبرا واما فى انهاء السيمفونية ، وذلك حسبما يتضح أيهما اكثر ضرورة» . عفوا يا صديقى العزيز ، ولكنك تتفوه بحماقات . انسيت حقا ان السيمفونية مهداة الي ، اما الاوبرا فان لم تكن مهداة الى انطونينا ايفانوفنا فهى على الاقل مرتبطة بها برابطة من وحى «رسالة تتيانا» ؟ وما معنى قولك «اكثر ضرورة» . اننى اعتقد بسذاجتى وعدم خبرتى ان مفهوم **الضرورة** ، البالغ الاهمية بالنسبة لبيساريف الذى احبه انا وتكرهه أنت . . غير مناسب هنا ابدا . ام انك يا صديقى العزيز تعتبر نفسك مثل العجل الحنون الذى يرضع من ثديين ؟ . . . — وهنا قاطعت نفسها بالم — ولكنى كنت اعرف ذلك واقدمت عليه ! فهل كنت انوى بالفعل ان اتطاول على مكانة انطونينا ايفانوفنا ؟ كلا بالطبع ! فلتدع

ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . انطونينا ايفانوفنا لها مكانة الزوجة الشرعية . . وانا لى مكانة الشخص الذى اهديت اليه السيمفونية الرابعة . نعم كل شىء هكذا . . ولكن ، الم يكن من حقى أن آمل بما هو اكثر من ذلك خاصة وان مراسلاتنا تقنعنى بهذا . تاملين بماذا ايتها العجوز ، افيقى ! ما هذه الأحلام العذرية وانت فى هذه السن ؟ . .

تملكها خجل لا يطاق ودهشة من هذه الأحاسيس والافكار التى تفجرت فجأة من أعماق كيانها . واوحت اليها الرغبة القوية فى التخلص فورا من هذا الخجل بالحل . فقالت لنفسها : إن تحرجى امام نفسى ، وقبل كل شىء امام نفسى ، زائد عن الحد ، فانا لم اكن اطمع الا فى تملك روح الفنان ، تملكا ليس فيه من تملك الاقطاعيين شىء . وانا لا اطمع ابداً فى ذات بيوتر ايليتش الفانية ، ومن هذه الناحية فليس هناك ما اتقاسمه مع زوجة البروفيسور تشايكوفسكى . ماشانك انتِ بقلب زوجك وروحه وعقله ؟ انت لا تهتمين الا بحافظة نقوده وبالمركز فى المجتمع . دعينى انا اهتم بموضوع المال ، وسوف يهتم هو بالمركز عندما يستأنف العمل .

ولكن لماذا احشر انطونينا ايفانوفنا دائما فى هذه المسألة ؟ ما دخل هذه التافهة هنا ؟ تراها لم تسمع حتى بوجودى ، اللهم إلا اذا كان ذلك متعلقا بالمرحوم كارل فيودوروفتش ، المعبود الذهبى لابناء الطبقة الوسطى الروس . اساس القضية ينحصر فى تشايكوفسكى . فى هذا التحول الحاد وغير الطبيعى فى عواطفه ونبرته على تلك الرقعة الصغيرة من الورق فى رسالة واحدة . غير ان ذلك ايضا يمكن فهمه . لقد وقع تحول جديد فى طبيعته الفنية ، الموسيقية ، الفائقة الحساسية والمرونة والاستجابة . لقد اصبح يكره انطونينا ايفانوفنا وهو ما يزال معها فى عربة القطار الذى اقلهما فى رحلة شهر العسل ، خلال المسافة القصيرة من موسكو الى تفير . ثم اكتشف فيها فضائل مجهولة خلال الساعتين الممتدتين بين بداية الرسالة

ونهايتها . يا إلهي ، قد يحتاج بعض الرجال الى زمن أقل لاكتشاف المراة . تكفي لحظة ، او نظرة ، او قبلة . ان بيوتر ايليتش المفتون والماسور لم يعد يرى فى انطونينا ايفانوفنا امراة حاقدة ، بل راى فيها فجاة بسيشة ، وبنلوب ، واندروماخ فى صورة واحدة . ها انذا اصل اخيراً إلى ادراك كنه ما حدث ، الى ما كنت اطرده عن ذهنى عندما كتبت بحب ورقة وود متسامح رداً على هذه الرسالة الهرائية . لم اكن اصدق ، وما اردت ان اصدق بوقوع هذا التحول ، هذه المعجزة التى اعادت بيوتر ايليتش الى احضان انطونينا ايفانوفنا . وخشية ان يصاب بخيبة امل جديدة ، بدت لى محتمة ، نصحته بأن يسافر الى ايطاليا ، لينظر من بعيد الى عش ميلوكوفا الوادع . وآمنت بأننى ساجد فى موسكو رسالة جديدة فى انتظارى ، رسالة مختلفة تماما . «اذا اردت ان تواسينى برسالة يا بيوتر ايليتش فلتكتب من فضلك الى عنوانى : بوليفار القيامة ، الى دارى الخاصة» . ولكن هذا الرجاء الذليل لم يعد بطائل ، اذ لزم بيوتر ايليتش الصمت . حسنا ، الصمت ايضا رد ، وقد يكون ابلغ رد . . .

دعيك من اللعبة المفضلة لذوى النفوس الضعيفة ، لعبة الاحالة الى وقوع شيء مجهول : مرض ، او سفر مفاجيء ، او تصادم فاجع او حادثة قطار . . . هراء ! بيوتر ايليتش فى كامل صحته ، والا لكان المدعوون بالاصدقاء قد اسرعوا اليّ ليعلمونى بحالته الخطيرة . ولم يرحل لا الى القوقاز ، ولا الى مسرح العمليات الحربية فى البلقان ، ولم يلق مصرعه فى مبارزة . فبيوتر ايليتش لن يستل سيفه ابداً ، فليست ساحة مجده هى تلك التى تراق فيها الدماء . وخلال الاسابيع الاخيرة لم يقع حادث واحد على السكك الحديدية ، الأمر الذى يعد نادراً . كلا ، انه لم يرحل الى اى مكان ، فهو مشدود الى بيته الجديد اللطيف ، كما ان السفر يتطلب نقودا . لقد حدث ما هو اسوا بكثير : ان بيوتر ايليتش سعيد . وسكوته هو الصمت الانانى للانسان السعيد ،

الشبعان روحا وجسداً . اما انا فلست انسانة شبعى ، رغم انى ثرية ، كما ذكّرنى بيوتر ايليتش بذلك عن حق . وبامكانى ان املك كل ما يُشترى بالمال ، ولكن كثيرا من الاشياء ، ويا للأسف ، لا تشترى بالمال . على اى حال يمكننى ان اشبع جوعى البدنى ، اذ لم ابل ريقى لليوم الثانى .

نظرت ناديجدا فيلاريتوفنا الى الساعة . لقد فاتت مواعيد جميع الوجبات . حسنا ، ستتعشى بمفردها : كوب من المرق الدسم سيجدد قواها . استدعت الوصيفة وامرتها بأن تجهز لها ملابسها . ورفضت بتقزز هندامها المنزلى المالوف . . فكل ما فيه زاه الى حد مخجل ومزركش وطائش ، وكانما هى ليست امراة عجوزا وجدة ، بل صبية متغنجة . اختارت الفستان الذى ارتدته عند انتهاء الحداد الرسمي على زوجها . زي حزن صارم من قماش تفتاه غامق . ومع الفستان قلنسوة من الباتستة البيضاء ، وحذاء مخملى بلون الفستان . عزّت نفسها بان شيئا مأساويا لم يحدث ، ولم تلم بها اى خسارة . كل ما فى الأمر ان شعاعا رفيعا قد خبا فى روحها ، ولهذا ارتدت هذا الزى شبه الحدادى حزنا عليه . اما بيوتر ايليتش فسيكتب يوماً ما ، نعم سيكتب ، فهو يكنّ لها الود وقد اهدى لها سيمفونية ، كما ان موارده لن تكفيه للمعيشة ، التى لم تصبح أرخص فى الغالب بظهور انطونينا ايفانوفنا . وسوف تستانف مراسلاتهما ، مراسلات الاشباح ، الذين اصبحوا منذ الآن اشباحا الى الابد . واجهشت ناديجدا فيلاريتوفنا ، المعروفة بقدرتها على ضبط النفس فى جميع الظروف ، اجهشت ببكاء مرير لم تبكه على زوجها ، بل بكته مرة واحدة فى حياتها ، عندما كاد التهاب الرئتين يودى بحياة ميلوتشكا وهى فى الثالثة من عمرها . واسرعت تختفى فى غرفة الحمام حتى لا ترى الوصيفة دموعها .

وخرجت من هناك بوجه تعلوه صفرة الموت وقد غاضت منه الحمرة ، وبعينين جافتين ملتهبتين . وطلبت يوليا

السماح لها بمشاركة امها عشاءها المتأخر ، فهى ايضا لم تتناول شيئا طوال اليوم بسبب الصداع . واذهلها منظر امها وفستانها الغامق الأشبه بزى الراهبات . وكانت يوليا تدرك انه من الممكن الانزواء فى الدير دون أن تدخل صومعة او تنذر نفسك ، فتملكها اليأس . اصبحت على يقين من انها لن تستطيع مساعدة امها . وظلت طوال الليل تؤلف رسالة الى السيد تشايكوفسكى ، ولكن عندما حاولت فى الصباح نقلها الى الورق تعثرت عند اول كلمة . اذ لم تعرف كيف تخاطب تشايكوفسكى : «سيدى الكريم» – تبدو جافة الى حد الاهانة . «بيوتر ايليتش المحترم» – متبسطة اكثر مما يجب . «السيد تشايكوفسكى» – لا صدق فيها ، وتبدو مكتبية . فرغما عن يوليا اقامت امها بينها وبين الموسيقار علاقة شبحية . فهى لم تتعرف عليه ولم تره أبداً ، ولكن اسمى يوليا وميلوتشكا جرى فى المراسلات بين الأم وتشايكوفسكى . وهذا ما زاد الأمر تعقيدا . من الممكن بالطبع ان تبدأ الرسالة عموما بدون عبارة المخاطبة هذه ، فهل يفكر احد فى ذلك عندما يدعو الآخرين لانقاذه ؟ كلا ، بل يصيح فقط «النجدة !» . ولكن يوليا ربيت تربية صارمة بحيث كانت تفضل الموت على ان ترتكب عملاً غير لائق . غير انها كانت مستعدة لمخالفة قواعد الذوق من اجل امها ، لو انها فقط تدري **ما الذى** تكتبه لتشايكوفسكى وكيف تكتبه . كانت الكلمات قوية ومريرة فى نفسها ، وما ان تمس الورق حتى تبهت بصورة غريبة .

. . . تناولت ناديجدا فيلاريتوفنا جرعة كبيرة من الحبوب المنومة فنامت على الفور ، واستيقظت ، كما خيل اليها فى نفس اللحظة . ولكن نور الضحى الساطع لاح خلف النوافذ ، وقد مرت ليلة كاملة بلا احلام وبلا لحظات افاقة ممضة ، عندما تشعر وانت بين النوم واليقظة كانك ترفع غطاء تابوت للحظة ثم تتركه يهوى على الفور وقد خارت قواك . آه لو امكن التغلب على الواقع بهذه الصورة ! لكن هذا ليس فى الامكان . ينبغى ان تستيقظ ، وان تنتظر من

جديد وتقنع نفسها بضرورة الحياة الخالية من النور . رأت فستانها الغامق ، الملقى على مسند المقعد باهمال – كانت قد صرفت الوصيفة ونزعت ملابسها بنفسها – فأثار منظر هذه الدرع الكئيبة فى نفسها شعورا غريبا بالارتياح . كان هذا الفستان علبة صماء تحفظ وتخفى جوهرها الهش .

نظرت ناديجدا فيلاريتوفنا الى قدميها الصغيرتين فاحست برثاء لنفسها لا يحتمل اشبه برثاء فلاحة معولة . فارتمت بوجهها على الوسادة ومدت ذراعيها كصليب ، واطلقت لنفسها عنان النحيب . وبعد ذلك ظلت طويلا ترطب وجهها بالكمادات الساخنة ، وتبرده وتدلكه وترش عليه البودرة ، وكانت حركاتها بطيئة وغير واثقة . . عجوز !

وفى الطابق الاسفل ايضا سادت الكآبة . كان ايفان بروكوفيفتش يستعد للرحيل . وفى الصباح ارسلوا بخادم الى محطة كازان ليبتاع تذكرة له واخرى لفانكا ، كما أوصوا على عربة . واخذت الطاهية الباكية تجهز ابنها للسفر فاعدت له شتى الاطعمة من فطائر حلوة ودجاج محمر وبيض مسلوق وسجق . وكان الوكيل على غير عادته مجعد الثياب ، محمر العينين ، وانفه يرشح ، فقد كان يصاب بالبرد دائما بعد كل سكرة . وكان ياتى الى غرفة الخدم بين الحين والحين ليشرب ماء خيار مملح مع العسل ، ولم يحاول استبقاء جغوتوف . لقد فقد هو نفسه كل أمل فشرب حتى الثمالة تأبينا لأحلامه المنهارة .

ولم يوجه جغوتوف اليه اى عتاب ، بل لمّح الى امكانية صفقات اخرى عندما تسترد ناديجدا فيلاريتوفنا رشدها . ولكن الوكيل لم يثق بهذه التلميحات ، ورغم خيبة أمله الشديدة لم يحمّل فون ميك اى ذنب . لقد كان يدرك ان القضية فيها مساس بشغاف قلب انسانى ، ومن ثم لا يجوز محاكمة ناديجدا فيلاريتوفنا المسكينة .

ورجاهم فانكا ، الذى كان فى ملابس سفر ثقيلة جيدة – سترة من الجوخ الرمادى مشدودة بحزام وعمرة مبطنة بالقطن – ان يسمحوا له بأن يركض الى البريد لآخر مرة

فسمحوا له . لم يكن يطمع فى المنحة ، كمــا انه لا وقت للملهى فالسفر قريب ، ولكنه اراد لآخر مرة ان يسير فى الشوارع المألوفة ويودع موسكو ، فمن يدرى متى يأتــى اليها ثانية .

عاد فانكا بسرعة غير متوقعة ، وفى يده رسالة . وكـان جغوتوف الذى خرج من الفناء بفعل الملل أول من شاهد هذه الرقعة البيضاء الصغيرة التى تركزت فيها كل شمس الصباح . وخطر له خاطر غريب ، اذ ظن ان فانكا ، بحماقة غير مفهومة ، كرر خدعة الأمس ، التى عادت عليــه فى المحصلة بمكسب هائل ، حتى ان التاجر من الطبقة الأولى تفصد عرقا من فكرة انه يأخذ معه من موسكو صبيا على هذه الدرجة من البلاهة ، ولكن فانكا تقدم راكضا ، محمر الوجه ، متقطع الانفاس ، منفعلا ، فصاح جغوتوف نحو الفناء للوكيل الخارج توا مـن غرفة الخدم :

— سرجييفتش ، أتسمع ، الصبى جاء برسالة !

لم يدر جغوتوف كيف اصبح الوكيل بجانبه فى غمضـة عين .

— هيّ ! . . — قال الوكيل وقد خطف الرسالة مـن فانكا وعرف على الفور الخط الذى كتب به العنوان .

وتراءت له عينا ناديجـدا فيلاريتوفنا الســوداوان ، المعذبتان ، الناظرتان الى داخلهما ، فتضرج وجهه بالحمرة ، فوضع يده فى جيبه واخرج حفنة من النقود ودسها فى يـد فانكا . وعندما صدق جغوتوف ان الرسالة حقيقية ، اراد أن يكافئ البشير هو ايضا ، ولكنه أمسك حتى لا يفسد بالتدليل الصبى الذى أنعم عليه بما يتجاوز كل حد .

— هيا ! — قال الوكيل مومئا برأسه الى جغوتوف واندفع الى البيت دون ان ينظر ان كان هذا قد لبى نداءه الآمر أم لا .

وهز جغوتوف رأسه ومضى خلفه بخطوات واسعة .

وخففت السجاجيد السميكة الكثة من وقع الخطوات بـل وامتصته تقريبا ، الا ان حذاء جغوتوف المصنوع من الجلد الغليظ صر صريرا عاليا ودفع الهواء بصخب من فتحتــى

الرقبة ، وفى هذا الصمت المطبق على المنزل كصمت القبور تردد هذا الصخب الفظ غريبا مقلقاً . وأصيب جغوتــوف بالذهول من السجاجيد والمرايا والمرمر والتماثيل البرونزية على بسطات الدرج ومن كل هذه العظمة التى لم يرها فــى حياته . واذا به ، الذى لم يكن يحفل أبداً بمظهر المسكن وزينته — فالمهم ان يكون دافئا وغير رطب — يشعر فجأة بالارتياع من حقارة وقذارة ونتانة بيته الاشبه بوكر وحش . وقال فى نفسه وهو يقلب عينيه الزرقاوين الحادتين فيمـا حوله : «انظر كيف يعيشون !» الظاهر ان لديهم لكل أمر محلاً : للأكل وللعمل وللنوم ولاستقبال الضيوف . والاولاد لا يتخبطون بين الأرجل ، بل يجلسون فى غرفهم ، فقد لاحت وجوههم المدورة عدة مرات فى الابواب التى فتحت قليـلا بذعر . وفى كل مرة كان يظهر بجوارهم وجه امرأة ساحر ، فقال جغوتوف فى نفسه : انها هى ! ولكن الوكيل مضى حتى دون ان يلتفت ، فحث جغوتوف خطاه حتى لا يتخلف عنه . وتجاوزا قاعة عالية شبه مظلمة ، بها صفوف مقاعد لينـة ، وبجوار احد الجدران امتدت انابيب فضية محاطة باطار مـن خشب البلوط . وسأل اثناء سيره الوكيل :«ما هذا؟» فاجاب ذاك باقتضاب : «أرغن» ، ولكن هذا الجــواب لم يكشف لجغوتوف عن الغرض من هذه الأنابيب الفضية .

— انتظرنى هنا . . — قال الوكيل لسبب ما بلهجـة متبسطة — عندما اعطيك اشارة ادخل فورا ، وسوف تفهـم بنفسك ما ينبغى ان تقول . . . — ووضع يده على قبضة الباب النحاسية المجلوة الى درجة اللمعان الباهر ، ودفع الباب الفائق الارتفاع ، ودون انتظار للاذن بالدخول دلف بعجلة الى الغرفة . وترك الباب خلفه مواربا فكان بامكان جغوتوف ان يرى كل ما يجرى فى الغرفة .

كانت ناديجدا فيلاريتوفنا واقفة فى وسط غرفة المكتب ، فى فستان الرهبان الغامق ، وقد قست ملامحها من شـدة الغضب . كانت عيناها السوداوان الواسعتان فى وجههـا الألبستري مرعبتين ، كانما ليستا عينين بشريتين بل عينى

ساحرة شريرة . كانت قد سمعت من وقت بعيد تلك الضجة المنفرة التي ملأت البيت فراحت تغلي من الغضب المسعور . ولكن سلوك الوكيل المنفلت الوقح شل حركتها . لقد اقتحم الغرفة بذلك الاستهتار الشرير الذي يدلف به قتلة القياصرة الى مخدع القيصر مستمدين الجرأة من وقاحتهم الصاخبة .

— ما معنى هذا ؟ — قالت بصوت رهيب ولكنه خافت — انك ثمل ! اخرج من هنا !

فقال الوكيل بلهجة عابثة وباسلوب شعبي مزيف ، فرحا لادراكه انه في مأمن من العقاب ومتوقعا رد الفعل السعيد :

— سيدتي ومولاتي . . عفوك ورضاك ! تعطفي وتكرمي بقبول هذا ! . . . — ومد الرسالة الى ناديجدا فيلاريتوفنا بحركة مسرحية .

تناولت الرسالة في وجل وكأنها لا تصدق ، باصابع ارتعشت على الفور . وتضرج وجهها الهزيل الشاحب ، وامتلأ صبأ فاتنا . وفضت المظروف فأذهلها ان الرسالة مرسلة من سويسرا . ولم تستطع ان تقرأ سوى الكلمات الأولى اذ انهمرت الدموع من عينيها الواسعتين . وشهق الوكيل الخبيث المحتال باكيا وقد نسي الغاية وجميع الحسابات وهو يفرح لفرحة انسان آخر ، وفي هذه العاطفة المنزهة عن الغرض ادرك لحظة الحياة السامية الرائعة .

تراقصت السطور امام عيني فون ميك ، واكتست عدسات عويناتها القوية بالضباب . وكان ما استطاعت ان تقرأه آتيا عبر ضباب المجهول .

«ناديجدا فيلاريتوفنا ! ربما تدهشين للغاية وانت تتسلمين هذه الرسالة من سويسرا . . . لقد قضيت اسبوعين في موسكو مع زوجتي . وكان هذان الأسبوعان سلسلة من اقسى صنوف العذاب . احسست على الفور انني لا استطيع ان احب زوجتي ، وان العادة التي كنت اعوّل عليها كثيرا لن تتحقق ابدا . ورحت ابحث عن الموت ، وبدا لي انه هو المخرج الوحيد . واخذت تنتابني لحظات جنون كانت روحي خلالها

تمتلئ بحقد رهيب على زوجتي التعيسة لدرجة انني كنت أرغب في خنقها . . .» .

وهمست ناديجدا فيلاريتوفنا في نشوة :

— ايها الغالي ! انه تعيس ! انه معذب ! أوه ، يا للفرحة ! . . .

«وفي تلك الاثناء تلقيت برقية من اخي يخبرني فيها بانه من الضروري أن اذهب الى بطرسبرج . . . وسافرت الى بطرسبرج وانا اكاد اطير من السعادة لأنني سأهرب ولو ليوم واحد من مستنقع الكذب والزيف والادعاء الذي سقطت فيه . وعندما التقيت باخي طفا الى السطح كل ما كنت أخفيه في اعماق نفسي خلال اسبوعين طويلين لانهاية لهما . وحدث لي شيء فظيع لا اذكره . وعندما بدأت اعود الى رشدي ، اتضح ان اخي تمكن من السفر الى موسكو والتفاوض مع زوجتي وروبنشتين وتسوية . . .» .

انه حر ! انه حر ! — غنى قلب ناديجدا فيلاريتوفنا . بالطبع لن تخلي تلك اللئيمة سراح بيوتر ايليتش هكذا ببساطة ، بل ستطالب بفدية ، بل وبفدية كبيرة . ولكن طالما خرجت المسألة من مجال المشاعر المرهف وانتقلت الى مجال الحسابات المادية ، فقد استردت ناديجدا فيلاريتوفنا قوتها . ولما كانت على يقين من ان الرسالة تعرض لشروط انطونينا ايفانوفنا ، فقد تخطت هذه الصفحة — فعلى اي حال سوف تقرأ هذه الرسالة وتعيد قراءتها عشرات المرات — ونظرت في نهايتها . لقد اخطأت . كان بيوتر ايليتش يطلب مالاً ، ولكن لنفسه فقط . **«انني مرة اخرى بحاجة الى مال ، ومرة اخرى لا استطيع ان اطلب ذلك من احد سواك . هذا فظيع ، هذا شاق الى حد الألم ، الى حد الدموع ، ولكنني مضطر الى الاقدام على ذلك ، مضطر الى اللجوء الى طيبة قلبك التي لا تنفد . . .» .**

قالت ناديجدا فيلاريتوفنا وعيناها مغرورقتان :

— سرجييفتش ، حوّل ثلاثة آلاف للسيد تشايكوفسكي .

فابتسم الوكيل قائلاً :

– تحت اي بند نسجلها ؟ تحت بند «مساعدة الموسيقيين المعوزين» ؟

«هذا الشيطان يعرف كل شيء» – قالت فون ميك في نفسها وأدهشها انها لم تشعر بأي استياء .

– كلا ، سنغير البند الى «للصديق العزيز» . . . سنكون بحاجة الى كثير من المال يا سرجييفتش . جهز عشرة آلاف روبل لكي نرسلها بمجرد الطلب الى نفس العنوان .

كان المعارف قد لاحظوا في ناديجدا فيلاريتوفنا ، عندما كانت بعد آنسة تدعى ناديا فرولوفسكايا ، ائتلافا نادراً للروح الرومانسية الحالمة والعقل الرجولي اليقظ . وقد ورثت ناديجدا فيلاريتوفنا عن أبيها سجاياها العاطفية الانثوية ، أما قدراتها العملية فورثتها عن أمها . وفي هذه المرة ايضا ، في لحظة النشوة القصوى ، استطاع المحاسب الماهر القابع في باطن ناديجدا فيلاريتوفنا ان يحدد بدقة المبلغ الذي ستطلبه انطونينا ايفانوفنا في القريب العاجل مقابل اطلاق سراح بيوتر ايليتش من اغلال الحياة الزوجية .

واكد الوكيل وهو يشعر وكأنه شخصية مثل بيرون أو الأمير المعظم بوتيومكين * :

– سنفعل يا مولاتي .

ثم نظر بطرف عينه نحو الباب وغمز لجغوتوف غمزة موحية .

ولم يضيع التاجر وقتا . اقتحم الغرفة والقى بنفسه تحت قدمي ناديجدا فيلاريتوفنا . كان قد رأى وسمع كل شيء ، وقدّر لعبة الوكيل الماهرة – رغم فجاجتها الظاهرية – فقام هو الآخر بتمثيل دور الخادم المطيع .

– مولاتي رحماك . . تعطفي يا صاحبة النعم ! . .

– ماذا يريد هذا الرجل ؟ – سألت فون ميك بعطف وقد رققها عذابها وخفف حدتها – مم يعاني هكذا ؟

* الكونت بيرون ، حظي الامبراطورة آنا ايوانوفنا ، كما سبقت الاشارة ، والجنرال بوتيومكين (١٧٣٩–١٧٩١) حظي الامبراطورة يكاترينا الثانية ومن اقرب معاونيها . **المعرب** .

فأجاب الوكيل بصوت باك :

– انه يريد الغابة .

وناح جغوتوف دون دموع :

– بيعيني الغابة ! أعرض سعرا جيدا !

ومن جديد تحركت فيها طبيعتها الموروثة عن أمها ، فكشفت لها انهم يخدعونها ، وان السعر الجيد الذي يعرضه جغوتوف ليس هو الثمن الحقيقي الذي يمكن ان تساويه الغابة الآن . وفي الوقت نفسه تحركت في روحها اوتار اخرى ، اوتار من أبيها . لقد خدعت ميلوكوفا تشايكوفسكي بالغابة ، حسنا ، فليكن انقاذه ايضا بالغابة ، ولكن بغابة تملكها امرأة اخرى .

قالت فون ميك وهي تخفي ابتسامة :

– حسنا ، حسنا ، بع له الغابة يا سرجييفتش . فليهدأ عذابه .

فقال جغوتوف ببرود وهو ينهض من ركوعه :

– يا ولية النعم !

وعجّل قدوم يوليا بانهاء المباحثات . وراح جغوتوف ينحني ويتقهقر حتى خرج من الغرفة .

وصاحت يوليا :

– ماما ! كم انت جميلة ! . يا الهي ، كم انت جميلة ! . . .

وقالت فون ميك في نفسها : نعم ، ينبغي ان اكون الآن جميلة . الانسان يصبح جميلا في اللحظات الحاسمة من حياته . فما أجمل نيكولاي روبنشتين اليدين ، الطويل الأنف ، وهو جالس الى المعزف . وكم كان المصارع مانولو جميلا عندما صرع آخر ثور في حياته في حلبة توليدو . وما أروع جمال المسيح وهو على الصليب ، وسباستيان المرمي بالسهام . ويا لعزة الجمال الذي يضفيه الموت المخلّص على كل وجه ، حتى لو كان تافها ، ذلك لأن الموت هو اسمى لحظة في حياة الانسان . لن يكون في حياتي شيء أروع ، فقد عرفت اني احب تشايكوفسكي ، احبه كما تحب امرأة لم

يفقد قلبها ولا جسدها القدرة على الحب . وسأجد في نفسي القوة لكي اخبره بذلك . . .

ولكنها لم تخبر تشايكوفسكي بمشاعرها نحوه وبوقع زواجه على قلبها الا بعد عامين ، في رسالة مفعمة بالحب المذهل والصدق والقوة . «لقد مقتُّ هذه المرأة لانك كنت تعيسا معها ، ولكني كنت سامقتها اكثر لو انك كنت سعيدا معها . . .» .

بعد ان انصرف ايفان بروكوفيتش جغوتوف من عند فون ميك احس ، بدلا من الراحة المتوقعة ، بخواء غريب اطل من خلاله غلّ او حسد او غيرة ، او ربما كل هذه المشاعر مجتمعة ، علاوة على احساس بالأسى المرير على حياته البليدة القذرة ، الخالية من اى جمال .

وقال جغوتوف في نفسه وهو يدب بحذائه على السجاجيد والباركيه والمرمر : «كلا ، ما زلنا بعيدين كثيرا عن هؤلاء السادة فون ميك . نحن نعرف كيف نكسب القرش ، ولا نعرف كيف نعيش . وما جدوى أن يكون الكيس محشوا بالنقود ، بينما البيت عفن ، قذر خانق ، مظلم ؟ الثروة يجب التمتع بها . انظر الى هذه «الميك» . لا بأس بها ، جسمها متناسق ، رغم سنها وخلفتها العديدة — وتذكر زوجته داريا اجناتيفنا . . ماجور عجين محشور في معطف مبقع — كيف انتفخت وانبعجت بعد انجاب ثلاثة اولاد فقط !» . وازدادت المرارة في نفسه .

«حان الوقت لأن يظهر التجار عظمتهم . نحن ايضا سيكون لدينا المرايا والسلالم والتماثيل والأراغين والزهور والمعازف ، وستعلم نساءنا كيف يتأنقن ، فاذا لم يتعلمن نتزوج غيرهن ، فما اكثر هذه البضاعة — وقال بتشفٍ — اما تشايكوفسكي فسننتزعه منها . فليكن ارستقراطيا او جنرالا ، لا يهم ، فالذهب يصيد أي سمكة . وسوف يؤلف لنا روائع الموسيقى الروحية ولما فيه متعة الاحاسيس . وسيكون عليه ان يتخلى عن القمار ، فلن نسمح له بهذا اللهو . المكتب والملبس والمسكن والراتب والنساء . . تفضل ، سنقدمها لك مع اول كل شهر . اما القمار فدعك منه ، والغطرسة ايضا دعك منها ! والرسائل عليك ان تكتبها في مواعيدها ، نعم . . كل شيء ، يعني ، لازم يكون تمام التمام ! اما اذا حاولت ان ترفس ، فلا تظن اننا مثل هؤلاء «الفونات» ، لا ، نحن تجار ، سنسلخ لك جلدك ، في غمضة عين . . .» .

جمع ايفان بروكوفيتش من الأموال كل ما امكن جمعه . واصبح مقاولا كبيرا للسكك الحديدية وصاحب معامل ومصانع ، وانتقل من زمن بعيد الى سكنى المدينة بعد ان اشترى فيها قصرا أثريا رائعاً ، وشرع في ترميمه ولكنه لضيق الوقت ، لم يتمكن من اتمام العمل . واذا به يصاب بالشلل ، فاصبح لديه من الوقت قدر ما يشاء ، ولكنه فقد الرغبة في استكمال بناء قصره . رقد مشلولا وراح يفكر في حياته التي مرت ، او بالأحرى مرقت ، فتذكر فجأة الموسيقار تشايكوفسكي ، الذي كان يعتزم منذ سنوات بعيدة ان يستخدمه لديه في مركز مرموق . وحرك بمشقة لسانه الذي فقد سيطرته عليه وبدا كأنما اصبح غليظا ، فطلب ان يستدعوا تشايكوفسكي على وجه السرعة ويلحقوه بالخدمة . ولم يستطع اهل البيت طويلا ان يفهموا ما يريد ، ولكن الوكيل ايفان ، فانكا السابق ، الذي تصادف وجوده هناك ، اخرجهم من الورطة . قال :

— لقد مات تشايكوفسكي منذ حوالى عشر سنوات .

— مات ؟! . . — ردد العجوز وبكى . . .

لم يبك على تشايكوفسكي بل على نفسه ، على حياته التي انتهت هي ايضا . . حياته التي كان دائما يؤجل شيئا هاما فيها ، وربما أهم من كل اعماله العظيمة البارعة .

فهرست

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته . وشكل عرضه وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتي